طالع البشرى

على العقيدة الصغرى

سلسلة إحياء التراث الزيتوني (٢)

طَالِعُ البُشْرَى

عَلَى العَقِيدَةِ الصُّغْرَى

تَأليف الشيخ العلاَّمة المُقْرِئ

إبراهيم بن أحمد المارغني الزيتوني المالكي

(ت ١٣٤٩هـ)

اعتنى به

نزار حمادي

تونس ـ ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٢م

هَذَا الشَّرْحُ كَانَ مُقَرَّراً مِنْ طَرَفِ المَشْيَخَةِ الزَّيْتُونِيَّةِ لِطَلَبَةِ العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ

إجازةُ النظّارة العلمية

بالجامع الأعظم جامع الزيتونة أدام الله عمرانه

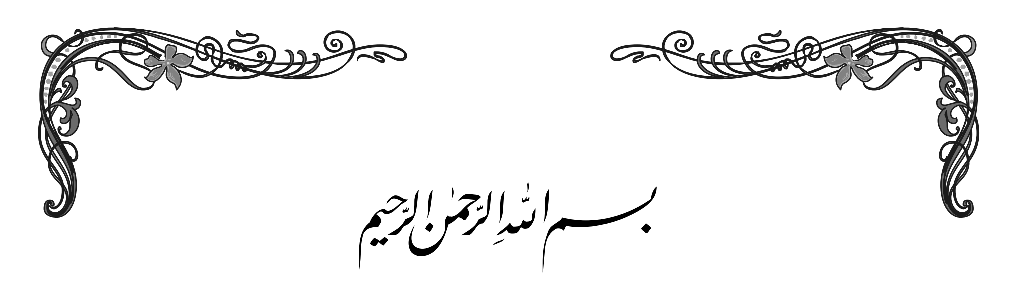
الحمد لله على إفضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، وصحابته والناسجين على منواله

هذا، وإنّ النظّارة العلمية قد اطلعت على ما كتبه العلَّامة الهمام النحرير الدرّاكة المحقِّق الشهير الشيخ سيدي إبراهيم المارغني المفتي المالكي بالقطر التونسي من الشرح المسمى بـ«**طالع البشرى على العقيدة الصغرى**» للشيخ العارف بالله سيدي محمد بن محمد بن يوسف السنوسي الحسني المشهورة بـ«**أم البراهين**» وبـ«**الصغرى**» في علم التوحيد، فأَلْفَتْهُ شرحاً مفيداً وتأليفاً نافعاً، ولغطاء ما انْبَهم منها مزيلًا ورافعاً، حسناً في بابه، نافعاً لراغبيه وطُلَّابه، فلذا شكَرتْ حضرةَ مؤلِّفه على حُسْنِ صُنْعِه، وأذِنَتْ له في نَشْرِه وطَبْعِه، رجاء لتعميم نَفْعِه. وكتب بالنظارة العلمية بالجامع الأعظم دام عمرانه في ٢ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ وفي ٩ مارس سنة ١٩٢٤

صحَّ ـ أحمد بيرم   **صحَّ ـ محمد الطاهر بن عاشور**

صحَّ ـ محمد رضوان   **صحَّ ـ محمد الصادق النيفر**





الحمدُ لِلَّهِ الَّذي خلقَ الإنسانَ وجعل له عَقلًا، وَوفَّقهُ للتَّمييزِ به بين الجائزِ والواجبِ والمُستَحيلِ لطفاً منه وفضلًا، والشُّكرُ له أن هدانا لمعرِفةِ عقائدِ الإيمانِ وأدلَّتِها، وسَلك بِنا طريقةً مرضِيّةً أَشعرِيَّةً في تحصيلها وتحصينها، والصّلاةُ والسّلامُ على سيِّدِنا مُحَمَّدٍ الموصُوفِ بالصِّدْقِ والأَمانةِ والتَّبليغِ، وعلى آلِهِ وأَصحابهِ المُبرَّئين من الزَّلَلِ والزَّيْغِ.

وبعد؛ فإنّ أفضل العلوم على الإطلاق، وآكدَها عند العقلاء باتفاق: عِلم العقيدة الإسلامية، المقرَّرِ على منهج أهل السُّنة والجماعة السَّنِيَّة، ذلك أنه العلم الذي عليه تَنْبنِي سائرُ العلوم الدِّينية، وبتحصيله والعملِ على وَفْقِه تتحقق سعادةُ المرء في الحياتين الدنيوية والأخروية، أمّا في الأولى فبحصول الجزم المطابق للواقع في عقائد الدين، وسكونِ النفس للحقِّ واطمئنان القلب ببرد اليقين، وبذلك تصدر عن الإنسان الأعمالُ الصالحة والأفعال المرضيّة لتنوُّرِ قَلْبِه باكتساب تلك الحقائق الإيمانية(١)، وأمّا في الآخرة فأدنى

(١) وقد بيّن الشيخ الإمام الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إصلاح عَقْدِ الإنسان هو أساسُ إصلاح جميع خصاله، ويتفرع عن ذلك اشتغاله بإصلاح أعماله، وعلى هذين الإصلاحين مدار قوانين المجتمع الصالح، فإن أعمال العاملين تجري على حسب معتقداتهم وأفكارهم، وجدير بمن صلحت عقائده وأفكاره أن تصدر عنه الأعمال الصالحة، وبمن ذهل عن حقائق العقيدة أو أخطأ في إدراكها أن تصدر عنه الأعمال=

ثمراته النجاةُ من الخلود في النيران لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**»[1]، وأعلاها رؤيةُ الله تعالى عند فراديس الجنان، وبينهما مراتب من النِّعم لا يحصيها إلا الله ذو الفضل والإحسان.

ولعِظَم شأن هذا العلم الجليل اهتم به العلماء قديماً وحديثاً، فكانت لهم فيه مصنفات لا تحصى كثرة، متفاوتة طولًا واختصاراً، ولشديد حرصهم على مشاركة عامّة الناس في تحصيل القدر المفروض شرعاً إدراكُه من هذا العلم كان لهم مزيد عناية بتصنيف المتون المختصرة المشتملة على مقاصد العقائد التي تضمنتها الكلمة المشرَّفة وهي قولنا: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**».

وإنّ من أبرز تلك المختصرات على الإطلاق، وأكثرها بركةً وانتشاراً في الآفاق، عقائد الإمام العارف بالله تعالى وبأحكام شريعته سيدي محمد بن محمد بن يوسف السنوسي الشريف الحسني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، خصوصاً صغراه المعروفة بـ«أم البراهين» لِما تضمنته من الأدلة القطعية على أهم مطالب أصول الدين، فمنذ مطلع القرن العاشر للهجرة وهلم جرّاً إلى عصرنا قد صارت محط أنظار العلماء والمتفقهين، فتناولوها بالدرس والشرح في أبرز معاهد المسلمين كالزيتونة والأزهر والقرويين، وكتبت عليها عشرات الشروح والحواشي والتقريرات، وقيّد

= الفاسدة، ولا يخفى تأثير ذلك في حفظ نظام المجتمعات وصلاح أحوال أهله أو فسادها. (راجع تفصيل علاقة العقيدة بسلوك المسلم في «أصول النظام الاجتماعي في الإسلام» ص ٤٩ ـ ٦٣)

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



جملة من الطلبة ما كان يلقيه عليها المشايخ من الإملاءات والتحريرات[1].

ومن أواخر تلك الشروح النفيسة وأكثرها بركةً في قطرنا التونسي خاصة الشرح المسمى بـ«**طالع البشرى على العقيدة السنوسية الصغرى**» للشيخ الإمام العلامة الهمام سيدي إبراهيم بن أحمد المارغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد مزج ألفاظه اللطيفة بألفاظها، فجلَّى غوامض أفكارها، ويسَّر للطالبين إدراك مقاصدها وفَهْم أبحاثها، فأجمع نظَّارُ عصره على اعتمادِهِ مقرَّراً لتدريس الأصول الإيمانية لطلبة المعاهد الزيتونية.

وقد طبع أربع طبعات متتالية كان آخرها عام ١٣٧١ هـ الموافق لسنة ١٩٥٢م، ومنذ ذلك الزمن البعيد انقطع وجوده بالمكتبات، فعزمت على العناية به لإعادة نشره، خدمة لتراثنا الإسلامي عامة والتونسي منه خاصة، ورعاية لحقوق العلماء علينا واعترافاً بجميل فضلهم وما قدموه من معروف إلينا، خصوصاً ونحن أحوج ما نكون إلى الاقتداء بسِيَرهم والاستفادة من علومهم لعلَّنا نحظى بالتوفيق للسير على منهجهم فندرك بعض خصالهم، فقد نصحوا لله وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامَّتِهم حَقَّ النُّصْح، وشهد لهم معاصروهم ومن جاء بعدهم بالعلم والتقوى والصلاح، وما ذاك إلا لتوفيق الله لهم بتحصيل صحيح الاعتقاد، ونشره بحِلْمٍ وعِلْمٍ بين العباد، والواقف على مصنفاتهم وتراجمهم يدرك ذلك بجلاء إذا لم يكن من أهل العناد.

وقد اعتمدت على النسخة الأخيرة التي صدرت بتصحيح الشيخ

---

(١) وما كتب على الصغرى يحتاج إلى دراسة خاصة لضبطه، فهو فعلا يعد بالعشرات والكثير منها موجود مخطوطاً.

عبد الواحد بن إبراهيم المارغني، فأعدت صفّ الشرح وشكل جميع حروفه وكلماته، وقدمت له بترجمة للشيخ الإمام السنوسي، ثم ذكرت عقيدته الصغرى كاملةً، ثم أوردت ترجمة حافلة للشيخ العلامة الشارح بقلم الشيخ محمد الشاذلي النيفر رحمهم الله جميعاً ورحمنا معهم، واللهَ أسأل أن ينفعني وجميع طلبة العلوم الشرعية بهذا الشرح النفيس وأن يوفقنا لفهمه وتحصيل ثمرته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



كتبه

نزار حمادي

تونس في ٩/١٢/٢٠١١م






ترجمة الإمام

أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسني[1]

(٨٣٢ - ٨٩٥هـ)

يعتبر الإمام السنوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامًا فقيهاً مالِكيّاً عالِمًا عَلَمًا من أئمة أهل السنة والجماعة، فقد كان متبحّرا في العلوم الشرعية والعقلية المعتبرة في عصره، وبلغ من الورع والزهد الغاية القصوى. تلقى العلم على مشاهير علماء عصره، وتخرج به العديد من العلماء، يأتي إن شاء الله تعالى ذكر أبرزهم.

وقد ألَّف تلميذه الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر الملالي مجلَّدا في مناقبه، وذكر فيه سيرته وما ظهر من كراماته في حياته وبعد مماته، سماه «المواهب القدوسية في المناقب السنوسية»، ومنه اختصرت هذه الترجمة، إذ كل النصوص الواردة في المصادر التي ترجمت للإمام السنوسي مقتبسة منه، ورتبتها على فصول:

---

(١) أبرز مصادر الترجمة: المواهب القدوسية في المناقب السنوسية، للشيخ الملالي (مخطوط رقم ٢٢٦٦٨ بدار الكتب تونس؛ البستان لابن مريم (ص٢٣٧ -٢٤٨ الطبعة الثعالبية سنة ١٩٠٨م)؛ وكفاية المحتاج للتنبكتي (ج٢/ص٢٠٠ ـ ٢٠٩ طبعة وزارة الأوقاف المغربية سنة ٢٠٠٠م)



الفصل الأول: في اسمه ولقبه ومذهبه ونسبه:

هو: محمد بن أبي يعقوب يوسف بن عمر بن شعيب، أبو عبد الله، السَّنوسي الأصل، التلمساني المولد، المالكي المذهب، الأشعري المعتقَد، والشريف الحسني النسب.

فالسَّنوسي: نسبة لقبيلة بني سنوس بالمغرب، وبهذا اللقب قد عُرف. والشريف الحسني: نسبة لسيدنا الحسن بن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فالشرف ثابت له بواجب الثبوت من قبل الأم. وإثبات الشرف من قبل الأم قال به جماعة من العلماء بأدلة معتبرة.

الفصل الثاني: في ولادته ومكانها:

ذكر الملالي أنّ الإمام السنوسي كان له من العمر عند وفاته ثلاثة وستون سنة، وحيث توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة (٨٩٥ هـ) فيكون مولده سنة (٨٣٢هـ)، وكان ذلك بتلمسان الجزائرية الواقعة على بعد (٨٠٠ كلم) غرب العاصمة الجزائر.

الفصل الثالث: في نشأته العلمية:

نشأ الإمام السنوسي ديِّنا وَرِعاً في رعاية والده الشيخ الصالح المبارك الزاهد العابد الأستاذ المحقق المقرئ الخاشع أبي يعقوب يوسف السنوسي الذي يُعتبَر أوّل أستاذ له، فقد حفظ على يديه القرآن العظيم في صغره، وتهيأ بتوجيهه للترقي في معارج العلوم الشرعية والعقلية، وقد تيسر له ذلك فيما بعد، لا سيما بالأخوّة الفاضلة التي حظي بها، فقد كان أخوه لأمّه الشيخ علي التالوتي يصطحبه معه إلى المجالس العلمية الراقية كمجلس الشيخ الحسن



أبركان، بل كان هو أيضا شيخًا له في العلوم الفقهية خاصة، وقد نقل الملالي أنّ الإمام السنوسي قرأ على أخيه في صغره رسالة الشيخ ابن أبي زيد القيرواني. فهذه العوامل العائلية المتميزة، مع البيئة العلمية المزدهرة التي كانت عليها مدينة تلمسان، والتي اتسمت بتوافر العلماء واعتناء الدولة الزيانية بهم، يسّرت للإمام السنوسي الانطلاق باكرًا في مسيرة علمية حافلة بالتوفيق والسداد.

وقد نقل لنا الشيخ الملالي بعض الأحداث الدالة على وفور عقل الإمام السنوسي وذكائة ونبوغه منذ صغره، منها قوله: «حدثني شيخنا سيدي علي التالوتي ـ رحمه الله تعالى ـ قال: كان أخي سيدي محمد السنوسي إذا دخل على الشيخ سيدي الحسن أبركان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتبسّم له ويفاتحه بالكلام، ثم يقول في دعائه له: جعلك الله من الأئمة المتقين. وكان أخي سيدي محمد لا يتكلّم في المجلس، وربما تَعْرِضُ للشيخ سيدي الحَسن مسألة ويتوقف أهلُ المجلس فيها، فيلتفت إلى سيدي محمد السنوسي ـ وكان صغيرًا ـ فيقول له: ما تقول يا محمد في هذه المسألة؟ فيقول: يحتمل أن يكون المراد كذا وكذا، فيقول الشيخ سيدي الحسن أبركان: الصواب ما قال محمد، يعني سيدي محمد السنوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونفع به، فقد أجاب الله دعوته وحقق فيه فراسته رضي الله تعالى عنهما وحشرنا في زمرتهما» اهـ.

الفصل الرابع: في مكانته العلمية:

لخص الملالي مكانة شيخه الإمام السنوسي العلمية قائلا: «اعلم أن العلم ينقسم إلى علم ظاهر وهو علم الشريعة، وباطن وهو علم الحقيقة، وهو

أفضل العلوم، وقد جمع الله تعالى للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين العلمين على أكمل وجه، أمّا العلوم الظاهرة فقد فاز منها بأوفر نصيب، وحاز في الفروع والأصول السهم والتعصيب، ورمى إلى كل فضيلة ومكرمة بسهم مصيب، ولهذا كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا تتحدث معه في علم من العلوم إلا تحدّث معك فيه، حتى يقول السامع: إنه لا يُحسِن غير هذا العلم، لا سيما علم التوحيد وعلم المعقول.

وقد شارك الفقهاء في العلوم الظاهرة، ولم يشاركوه في العلوم الباطنة، بل زاد على الفقهاء في العلوم الظاهرة زيادة لا يمكن وصفها وهو حلّ أقفال المشكلات وما يَعْرِض من الشُّبَه والدواهي المعضلات، لا سيما علم التوحيد، وهذا هو العلم على الحقيقة الذي يُعرَف به حقائق الأشياء، ويزيل بأنوار علومه وفهومه من القلب داءَ الشَّبَه وضروب الشكوك والامتراء» اهـ.

الفصل الخامس: في شيوخه:

قدّمنا أن الإمام السنوسي نشأ في عائلة علمية، وذكرنا أنه تلقى العلوم على مشاهير علماء عصره، وفيما يلي ذكر أبرزهم:

ـ **أبو يعقوب يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي**[1]، نسبة إلى القبيلة المعروفة بالمغرب من قبل أبيه، الحسني نسبة إلى سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، والد الإمام السنوسي، نعته الملالي بالشيخ الصالح المبارك الزاهد العابد الأستاذ المحقق المقرئ الخاشع المقدّس المرحوم، وذكر أنه في عدد أشياخ الإمام السنوسي حيث أنه قرأ عليه بعض القرآن العزيز في صغره.

(١) ترجم له في المواهب القدوسية، (مخ/ص ١٤).

* **أبو الحسن علي بن محمد السنوسي الشهير بالتالوتي**[(١)] (ت٨٩٥هـ)، أخو الإمام السنوسي لأمّه، نعته الملالي بالشيخ الفقيه الحافظ المتفنن العالِم الصالح البركة، وهو من أكبر تلاميذ الشيخ الحسن أبركان. كان حافظا لكتاب ابن الحاجب الفرعي مستحضِرًا له وكان بين عينيه، وذكر أن الإمام السنوسي أخذ عنه في زمن صغره رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

* **الحسن بن مخلوف بن مسعود المزيلي الراشدي الشهير بـ: أبركان**[(٢)] (ت ٨٥٧هـ) قال الملالي: هو الشيخ الإمام العالم العلم الولي الصالح القطب الغوث الشهير الكبير، أخذ عن الشيخ إبراهيم المصمودي، والإمام ابن مرزوق الحفيد. لازمه الإمام السنوسي كثيرًا في زمان صغره في أول بلوغه وانتفع به، وعدّه الملالي من مشايخه وإن لم يأخذ عنه كما أخذ أخوه الشيخ علي التالوتي، وذلك لأنه حضر مجلسه وانتفع بكلامه.

* **محمد بن قاسم بن تُونَرَتْ الصنهاجي التلمساني**[(٣)]: العلامة الفقيه المشارك المحقِّق، وقد ذكر الملالي نقلا عن شيخه الإمام السنوسي أنه قال: كان سيدي محمد بن تُونَرَتْ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيخًا عالمًا بعلوم المعقول والمنقول والنجم والحساب والفرائض والأوفاق والخط والهندسة وفي كل علم، وذكر أيضا أن الإمام السنوسي قرأ عليه في زمن صغره جملة من الحساب والفرائض.

---

(١) ترجم له في المواهب القدوسية (مخ/ص ٢٠)؛ والبستان (ص ١٣٩)؛ وشجرة النور الزكية (ج١/ص ٢٦٦)

(٢) ترجم له في المواهب القدوسية (ص٢٦)، ونيل الابتهاج للتنبكتي (ص ١٠٩) والبستان لابن مريم (ص ٧٤)؛ وشجرة النور لمخلوف (ص ٢٦٢/١)

(٣) ترجم له في المواهب القدوسية (مخ/ص ١٧) والبستان (ص ٢٣٧) ونيل الابتهاج (ص ٣٢١)



❊ **أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي الشهير بالقلصادي**[١] (ت ٨٩١هـ): الإمام العلامة الحاج الصالح الرحّال، فرضي عصره وعدديّه، له تآليف عديدة أكثرها في الحساب والفرائض، كشرحه على تلخيص ابن البناء وشرحه على فرائض الحوفي، ذكر الملالي أن الإمام السنوسي قرأ عليه جملة من الحساب والفرائض، وأجازه القلصادي في جميع ما يرويه.

❊ **نصر الزواوي التلمساني**[٢]: كان عالِمًا محقِّقًا زاهِدًا عابِدًا وليّاً صالِحًا ناصحًا، من أكابر تلاميذ الإمام محمد ابن مرزوق، أخذ عنه السنوسي علوم العربية ولازمه كثيرا.

❊ **محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشريف الشهير بالجلاب**[٣] (ت ٨٧٥هـ): الفقيه النوازلي، ذكر الملالي أن الإمام السنوسي كان يحدثه عن شيخه الجلاب فيقول: هو حافظ لمسائل الفقه. وذكر أيضا أن بعض الفقهاء أخبروه بأن الإمام السنوسي كان يقرأ عليه المدوّنة، وأنه ختمها عليه مرتين.

❊ **أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن محمد الشريف الحسني**[٤]: كان فقيها وجيها نزيها، عالما أستاذا مقرئا محققا. ذكر الملالي أن الإمام السنوسي قرأ عليه القرآن الكريم بالمقارئ السبعة المشهورة من أم القرآن إلى آخره ختمتين، زاد من الختمة الثالثة قدرًا صالحا، وأجازه فيها وفي جميع مروياته.

---

(١) ترجم له في المواهب القدوسية (مخ/ص١٨) وثبت البلوي (ص ١٠٤) والبستان (ص ١٤١) ونيل الابتهاج (ص٢٠٩).

(٢) ترجم له في الموهب القدوسية (مخ/ص١٦) وكفاية المحتاج (ص٤٤٥) والبستان (ص ٢٩٥).

(٣) ترجم له في المواهب القدوسية (مخ/ص١٩) والبستان (ص ٢٣٦).

(٤) ترجم له في المواهب القدوسية، (مخ/ص١٩) ونيل الابتهاج (ص ٣٥٤).

❊ **أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي الشهير بـ«ابن العباس»**[1] **(ت ٨٧١هـ)**: نعته الملالي بالشيخ الإمام العامل الحافظ المحصل المتفنن الصالح البركة، وذكر أن الإمام السنوسي قرأ عليه شيئا من علم الأصول، وقرأ عليه من كتب المنطق «الجمل» للخونجي من أوّله إلى آخره في مدة يسيرة نحو ثلاثة أيام، وسبب ذلك أنه يقرأ ويفسر ما يقرأه، فيورد له الإمام السنوسي أسئلة ويسوق أجوبة لم توجد في الكتب، فيتعجب منه الشيخ ابن العباس ومن حسن جوابه، فلمّا رأى ذلك منه قال: لا تقرأ عليّ، أنت الذي يُقرَأ عليك. وهذا سبب قلة مدة قراءته عليه، والله تعالى أعلم.

❊ **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحباك**[2] **(ت ٨٦٨هـ)** قال الملالي: هو الشيخ الأجلّ الصالح المعدّل، قرأ عليه الشيخ السنوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيراً من علم الاسطرلاب، وقد ذكره الشيخ في شرح الأرجوزة التي ألفها ابن الحباك المذكور وصرّح فيه بأنه تلميذه، وسمى قصيدته بـ«بغية الطلاب في علم الاسطرلاب».

❊ **أبو القاسم الكنابشي البجائي**[3] نعته الملالي بالشيخ الإمام العالم الورع الصالح، وذكر أن الإمام السنوسي وأخوه التالوتي قرآ عليه كتاب «الإرشاد» لأبي المعالي الجويني في أصول الدين، وأجازهما جميع مروياته.

❊ **إبراهيم بن محمد بن علي اللتني التازي**[4]، نعته الملالي بالإمام

(١) ترجم له في المواهب القدوسية (مخ/ص٢٠) والبستان (ص ٢٢٣) وشجرة النور (ج١/ص٢٦٤).
(٢) ترجم له في المواهب القدوسية (مخ/ص٢٠) والبستان (ص ٢٢٢).
(٣) ترجم له في المواهب القدوسية (ص٢٩) والبستان (ص ١٥٢).
(٤) ترجم له في المواهب القدوسية (مخ/ص ٣٣) وثبت الوادي آشي (ص ٤٣٩).

العالم العلامة الورع الزاهد الصالح الولي الناصح، وذكر أن الإمام السنوسي لقيه عند رجوعه من الجزائر بعد تلقيه العلوم عن الشيخ الثعالبي، وتحديداً في مدينة وهران حيث مكث عنده مدة خمسة وعشرين يوما، فأخذ فيها الخرقة والذكر والمصافحة والسبحة والحديث المسلسل بالأولية، كل ذلك بأسانيده المتصلة إلى سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

* **أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي**[٢]: الشيخ الإمام حجة الإسلام العالم العامل الزاهد العابد الورع الصالح الولي الناصح، صاحب تفسير «الجواهر الحسان» وغيره من المصنفات المفيدة، ذكر الوادي آشي أنّ الإمام السنوسي «رحل إليه إلى الجزائر وأخذ عنه بها علم الرواية»[٣]، وذكر الملالي أنه رَحِمَهُ اللَّهُ قرأ عليه صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الحديث، وأنه رأى إجازة بخط الثعالبي أجاز بها الإمام السنوسي وأخاه لأمّه الشيخ علي التالوتي.

* **أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي**[٤] (ت٨٨٤هـ): الفقيه الولي الصالح الفاضل، يضاهي الثعالبي علما وعملا، عده الوادي آشي من جملة مشايخ الإمام السنوسي حيث أخذ عنه في رحلته إلى الجزائر، من مؤلفاته قصيدة في علم العقائد سماها «كفاية المريد في علم التوحيد»، وهي التي أرسل بها إلى الإمام السنوسي وطلب منها شرحها، وقد فعل وسمى شرحه «المنهج السديد في شرح كفاية المريد في علم التوحيد».

---

(١) وقد ذكر الشيخ الملالي جميع تلك الأسانيد في المواهب القدوسية.

(٢) ترجم له في المواهب القدوسية (مخ/ص٢٩) وشجرة النور (ج١/ص٢٦٤).

(٣) ثبت الوادي آشي (ص ٤٣٩).

(٤) ترجم له ثبت الودياشي (ص ٤٣٩).



الفصل السادس: في ذكر مصنفاته

شرع الإمام السنوسي في إنشاء المصنفات العلمية القيمة باكرًا، وكان ذلك مبشِّرًا بسَيْل منهمر من المؤلفات ذات المستوى العالي في مختلف العلوم الشرعية والعقلية، وهو ما قد حصل بالفعل كما سنقف عليه من خلال عناوين كتبه.

وقد خصّ علمَ أصول الدين بالحظ الأوفر من كتاباته، فصنّف فيه المتون القصيرة والشروح المختصرة والمطولة، وتوجّه بمؤلفاته فيها لجميع المستويات، لا سيما للمبتدئين الذين بيّن لهم ما يجب اعتقاده على مذهب أهل السنة بأسهل العبارات وأعذبها، وحلّ لهم أعقد الشُّبُهات وأصعبها.

وقد أشار الملالي إلى أهمية علم أصول الدين عند الإمام السنوسي قائلا: «وسمعته رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول ما معناه: إنه ليس ثمَّ علمٌ من العلوم الظاهرة يورث المعرفة بالله تعالى والخشية منه والمراقبة إلا علم التوحيد، وبه يفتح الله له فهم سائر العلوم كلها، وعلى قدر معرفته به يزداد خوفه من المولى تبارك وتعالى وقربه منه» اهـ.

وقال أيضا: «ولا شك أنّ الشيخ الولي العارف بالله تعالى سيدي محمد السنوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد انفرد بمعرفة علم التوحيد في غاية المعرفة، ولم يشاركه فيها أحد، وعقائده المشهورة تنبِؤك عن ذلك، ويكفيك في ذلك عقيدته الصغرى التي يتداولها العام والخاص شرقًا وغربًا، لا يعادلها شيء من عقائد العلماء ولا ممن تقدّم ولا ممّن تأخّر لِما فيها من إدخال جميع عقائد الإيمان تحت كلمتي الشهادة»[1] اهـ.

(١) المواهب القدوسية، (مخ/ص ٧٨).

وقال أيضا: «وبالجملة فشيخنا ومولانا وسيدنا وإمامنا لا يعادله أحد في معرفته بالتوحيد ولا نظير له فيه، بل لا نظير له في كل شيء، ولا تجد بعده من يشفي لك الغليل ويزيل داء الشكوك والشُّبَه والدواهي المعضلة من القلب العليل، ولم يبق في هذا الزمان ـ الكثير الشرّ القليل الخير ـ في الغالب إلا من يحفظ المسائل من الكتب من غير تحقيق ولا دليل»[(١)].

وفيما يلي سأقتصر فقط على ذكر مؤلفاته في أصول الدين، وذلك على الترتيب الذي أورده الشيخ الملالي، وأما استيفاء جميع ما صنفه فقد أوردناه في مقدمة تحقيق شرح المقدمات الآتي ذكره.

* **عقيدة أهل التوحيد المخرجة بعون الله من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة بفضل الله تعالى أنف كل مبتدع وعنيد**. وهو متنه المعروف بالعقيدة الكبرى، من أوّل ما صنّف في علم التوحيد.

* **شرح العقيدة الكبرى المسمى بـ: «عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد»**.

* **العقيدة الوسطى**. وهي اختصار للعقيدة الكبرى مع زيادات نفيسة.

* **شرح العقيدة الوسطى**. وهو أيضا اختصار لشرح العقيدة الكبرى المتقدّم ذكره.

* **العقيدة الصغرى** الشهيرة بـ: «أم البراهين» وهي التي نقدم لشرحها للشيخ العلامة إبراهيم المارغني.

---

(١) السابق (مخ/ص ٨٠).

❋ **شرح العقيدة الصغرى.**

❋ **عقيدة صغرى الصغرى.** قال الملالي: «وقد كان وضعها لوالدي ـ حفظه الله تعالى من كل آفة وبلية وأناله الدرجة العلية ـ، وذلك أنّ والدي لمّا قرأ على الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقيدته الصغرى وختمها عليه بالتفسير غير ما مرة رأى أنه قد ثقل عليه درسها وحفظها لكبره وكثرة همومه، فطلب من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يجعل له عقيدة أصغر من الصغرى بحيث يمكنه درسها وحفظها، فعمل له هذه العقيدة وكتبها له بخط يده».

❋ **شرح صغرى الصغرى.**

❋ **عقيدة صغرى صغرَى الصغرى.** وتسمى أيضا الحفيدة، وتسمى عقيدة النساء والصبيان، وهي أوجز عقيدة كتبها.

❋ **المقدّمات.** ولم يذكر الملالي هذا المتن باسمه، وذكره الوادي آشي قائلا: «وضعها مبيّنة للعقيدة الصغرى، وهي تقرب منها في الجِرم»[(١)].

❋ **شرح المقدّمات.** وهو شرح للمتن المتقدّم ذكره، وقد يسر الله تعالى تحقيقه ونشره مؤسسة المعارف بلبنان عام ١٤٣٠هـ.

❋ **شرح واسطة السلوك**، وهو شرح على عقيدة مرجزة وضعها صاحبه وتلميذه الفقيه الأجل أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحوضي، وذلك بطلب منه.

❋ **المنهج السديد في شرح كفاية المريد**، وهو شرح كبير وضعه على القصيدة اللامية للشيخ الإمام العالم الولي الصالح سيدي أحمد بن عبد الله

(١) ثبت الوادي آشي (ص ٤٤١).



الجزائري التي وضعها في التوحيد وسمّاها «كفاية المريد في علم التوحيد»، وبعث بها من الجزائر للإمام السنوسي ليشرحها. قال الوادي آشي: «فوضع عليها هذا الشرح الجليل، وهو كبير محشوّ بالفوائد في علوم شتى»[1] حققه الأستاذ مصطفى مرزوقي، وطبعته دار الهدى بعين مليلة الجزائر.

* **شرح العقيدة المرشدة لابن تومرت**. قال الملالي: رأيته مكملا بخطه.

* **شرح الأسماء الحسنى**. قال الملالي: «وهو في نحو عشرين ورقة، فبعد ما يذكر تفسير كل اسم من أسمائه تعالى يقول بإثره في حظ العبد من الاسم كذا وكذا». وقد يسر الله لي تحقيقه ونشره بمؤسسة المعارف بلبنان عام ١٤٢٩هـ.

الفصل السابع: في ذكر بعض تلاميذه:

ذكر الملالي أنّ مجلس الإمام السنوسي كان يزخر بطلبة العلوم الذين وجدوا في درسه ضالتهم، وذلك لِمَا فيه من البيان بالتلطف وترقيق القلوب والصدق والإخلاص وغيرها من الخصال التي عرف بها، ويقدم لنا الوادي آشي صورة عن ذلك المجلس قائلا: «لقيته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وحضرت مجلسه الغاص بالمستفيدين من طلبة العلم والعامة بمسجده قرب داره، حضرت «الفاتحة» وأوائل سورة «البقرة» تقرأ عليه بالسبع، وكتبا غير ذلك، منها «البخاري» كان يقرأ عليه في بعض مجالس حَضَرتُها، ويتكلم على أحاديثه بالكلام الذي يدل على مقامه في العلم والعبادة، وغيره من كتب المجلس، وحضرنا يوم سلّمنا

(١) ثبت الوادي آشي (ص ٤٤١).

عليه إثر ما صلينا العصر خلفه «عقيدته الصغرى» تقرأ بين يديه، ويقرؤها طلبته وجمع من العوام الملازمين لمجلسه عن ظهر قلب، سردًا على صوت واحد إثر سلامِهِ من صلاة عصر يوم الجمعة عادة مستمرة، وهو قاعد بمحرابه، مقبل على الذكر. ولم تقدّر لي القراءة عليه، مع رغبتي في ذلك وحرصي عليه؛ لاستغراق طلبته أوقات قعوده، حتى إنهم كانوا يقرؤون عليه و«الرملية» في يد أحدهم، إذا فرغت قطع، وكنت أؤمل القراءة وأترصد لها وقتا، فعاجلته ـ قدَّسَهُ الله تعالى ـ المنيَّةُ، ولم أنل من ذلك الأمنية»[١].

وقد حفظت لنا كتب التراجم بعض العلماء الذين تخرجوا على يد الإمام السنوسي وانتفعوا به، وأبرزهم:

- محمد بن عمر بن إبراهيم الملالي التلمساني (كان حيا سنة ٨٩٧هـ)، وهو صاحب «المواهب القدسية في المناقب السنوسية» الذي ترجم فيه لشيخه الإمام السنوسي وتكلم فيه على جميع نواحي حياته العلمية والأخلاقية وغير ذلك مما لا يوجد في غيره من الكتب، وله أيضا شرح كبير على العقيدة الصغرى وآخر وجيز.

محمد بن أبي مدين[٢] (ت٩١٥هـ) ذكر ابن مريم أنه من تلاميذ الإمام السنوسي، ونقل عن بعض تلاميذه ـ وهو الآتي ترجمته ـ ما نصه: هو شيخنا الفقيه الإمام، محيي ما درس من علوم الشريعة علم الكلام، الحائز قصب السبق في المنقول والمعقول خصوصا علم الكلام؛ إذ لو لا هو لتلاشى علم الكلام، بل علم المعقول بأسره بمغربنا: السيد الفاضل العلامة أبو عبد الله بن أبي مدين.

(١) ثبت الواي آشي البلوي (ص ٤٣٦).
(٢) ترجم له في البستان (ص ٢٥٩) وكفاية المحتاج (ص ٢٢٠).

ـ **محمد بن محمد بن العباس التلمساني، الشهير بـ«أبو عبد الله»**[١] (كان حيا في حدود سنة ٩٢٠ هـ): الشيخ الفقيه النحوي العالم، ابن العلامة المحقق ابن العباس. قال ابن مريم: أخذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن علماء تلمسان، ولازم الإمام السنوسي. وذكر قبل ذلك نقلا عنه أنه تفقه على الشيخ محمد بن أبي مدين بالدراية في مقدمة الشيخ السنوسي وفي عقيدته الكبرى والصغرى ومختصره المنطقي وغير ذلك.

ـ **بلقاسم بن محمد الزواوي (ت٩٢٢هـ)**: نعته ابن مريم بالشريف الفقيه الولي الصالح العالم المدرس، وذكر أنه من أكابر أصحاب الإمام السنوسي وقدمائهم[٢].

ـ **محمد بن صعد التلمساني**[٣](ت٩٠١هـ). قال الحضيكي: الفقيه العالم المحصل، أخذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام ابن العباس والحافظ التنسي والسنوسي، وألف: «النجم الثاقب فيما للأولياء من المناقب» وغيره.

ـ **أحمد بن محمد المعروف بابن الحاج البيدري التلمساني (ت ٩٣٠هـ)**، أديب لغوي له تآليف كثيرة[٤].

ـ **محمد القلعي**: فقيه متصوف من كبار تلاميذ الإمام السنوسي، له كتاب «الأسئلة القلعية»[٥].

(١) ترجم له في كفاية المحتاج (ج٢/ص٢٢١).
(٢) راجع ترجمته في البستان (ص ٧١).
(٣) ترجم له في البستان (ص ٢٥١) وكفاية المحتاج (ج٢/ص٢١٢).
(٤) راجع ترجمته في نيل الابتهاج للتنبكتي (ص ٨٨).
(٥) راجع البستان (ص ٢٧٢).

ـ **محمد بن عبد الرحمن الحوضي**[1] (ت٩١٠هـ) الفقيه الأصولي التلمساني. كان عالما شاعرا مكثرا، له نظم في العقائد سماه «واسطة السلوك»، وقد شرحها الإمام السنوسي بطلب منه كما تقدم ذكره.

الفصل الثامن: في صفاته الخُلقية:

عرّف العلماءُ الأخلاق الفاضلة بأنها عبارة عن المواهب والقوى والسجايا المدرَكة بالبصيرة لا بالبصر، وأيضا بالمَلَكة النفسانية التي يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الحميدة.

وبغض النظر عن كونها غريزية أو مكتسبة، تقبل التغير أو لا تقبله، فقد نال الإمام السنوسي نصيبا وافرًا منها، وقد ذكر تلميذه الملالي أنه كان ممن يشار إليه بالصلاح في صغره لكثرة حيائه وصمته، وكثرة صدقته على الفقراء والمساكين، وعظيم شفقته ورحمته وغير ذلك من محاسنه التي جبل عليها في صغره.

والواقف على سيرته العطرة، والمُطالِع لمصنفاته الباهرة، لا سيما شرحه على الأسماء الحسنى، يدرِك أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إمامًا أيضا في علم الأخلاق المتعلِّق بكيفية اكتساب الأخلاق الحميدة والتخلّي عن الخصال الذميمة، جامعًا بين العلوم الظاهرة والباطنة، عاملاً بما علّمه الله تعالى من العلوم النافعة.

والكلام على صفات الإمام السنوسي الخُلُقية الرفيعة يطول، وسأنقل كلامًا لتلميذه الملازم له الشيخ الملالي يلخّص مقصود هذا الفصل، إذ قال

(١) راجع ترجمته في البستان (ص ٢٥٢) وكفاية المحتاج (ج٢/ص٢١٥).



مُقسِمًا: «فوالله الذي لا إله غيره ولا معبود سواه، ما رأت عيناي أحسن خُلُقًا، ولا أوسع صدرًا، ولا أكرم نفسًا، ولا أعطف قلبًا، ولا أحفظ عهدًا ووُدًّا، ولا أكثر علمًا وفهمًا من الشيخ سيدي ومولاي محمد السنوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونفعنا به.

ولقد كان مع جلالة قَدْره وعُلوِّ منزلته وسَعَةِ عِلمه يقف مع الصغير، ويوقّر الكبير، ويبدأ بالسلام، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء، وقد اتبع في هذه الخصال كلها أفضلَ الخَلْقِ وأفضلهم عند الحق تعالى سيّد الأولين والآخرين سيدنا ونبينا ومولانا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه كان عليه الصلاة والسلام ليِّنَ الخُلُقِ، كريم الطبع، حسن المعاشرة، بسّامًا من غير ضحك، متواضعًا من غير مذلة، رقيق القلب، رحيمًا بكل مسلم، ويسلّم مبتدئًا، ويصافح الغنيَّ والفقيرَ إلى غير ذلك من عظيم تواضعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى هذا النمط كان أصحابه الأخيار من العلماء والأولياء والأتقياء والأصفياء كالشيخ السنوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه قد اقتدى بأشرف الخلق سيدنا ومولانا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ظاهره وباطنه» اهـ.

الفصل التاسع: في زهده:

عرّف الإمامُ السنوسيُّ الزهدَ في شرحه على العقيدة الصغرى بقوله: «ونعني بالزهد: خلوَّ الباطن من المَيْل إلى فانٍ، وفراغُ القلب من الثقة بزائلٍ، وإن كانت اليدُ مغمورةً بمتاع حلالٍ فعلى سبيل العارية المحضَة، وتصرُّفه فيه بالإذن الشرعي تصرُّفَ الوكالة الخالصة، ينتظر العَزْلَ عن ذلك التصرُّفِ بالموت أو غيره مع كل نَفَسٍ، وذلك ينفي عن النَّفْس التعلّق بما لا بدّ من زواله»[1].

(١) شرح أم البراهين، ص٢٣٠، مطبوع بهامش حاشية الدسوقي عليه.

وقد بيّن الملالي تحقق اتصاف الإمام السنوسي بهذه الصفة الجليلة قائلا: «وأمّا زهده رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدنيا والإعراض عنها وعن زهرتها وبغضه لها أشد البغض، فمعلوم ضرورة عند الخاص والعام؛ قال ابن عطاء الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُستدل على الزهد في الدنيا بالزهد في الرئاسة، ويستدل على الزهد في الرئاسة بالزهد في الاجتماع بأهلها». ولا شك أن شيخنا وبركتنا سيدي محمد السنوسي ـ قدّس الله روحه وأسكنه من الجنان فسيحه ـ قد زهد في الرئاسة، وزهد في الاجتماع مع أهلها، ولا شيء أبغض إليه من الدنيا وأهلها؛ ولقد بعث إليه السلطان أبو عبد الله ـ حفظه الله تعالى ـ يوماً رسولاً، وطلب من الشيخ أن يأخذ شيئا من غلاَّت مدرسة سيدي الحسن أبركان رحمه الله تعالى، فامتنع الشيخ من ذلك، فبعث إليه ثانيا، فأبى أن يقبل شيئا، فلمّا ألحّ الرسول على الشيخ، كتب الشيخ كتابا إلى السلطان ـ حفظه الله تعالى ـ نصه:

«الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله، من عبد الله تعالى الفقير إليه محمد بن يوسف السنوسي ـ لطف الله تعالى به ـ إلى أمير المؤمنين ـ حفظه الله تعالى وأمده بتوفيقه وتسديده وجعله بفضله في الدنيا والآخرة من خيار عبيده ولطف به وختَم له بالحسنى عند موته ومفارقة دنياه وقريبِه وبعيده ـ، بعد السلام عليكم ورحمة الله والبركة، فقد وقف علينا الفقيه الحسيب الأمين النصيح في خدمتكم الكيِّس اللبيب السيد أبو عبد الله محمد العبّادي ـ جعله الله وزير صِدْقٍ ومُعِينَ حَقٍّ، وخلَّص الجميع من شباك الدنيا وسراب غرورها المارّ مرّ السحاب خلاصا جميلا ـ، فذكر لنا أنكم اهتممتم بنا فيما يرجع إلى هذا العيش الدنيوي القريب، وأنكم عرضتم علينا الإعانة بشيء من غلاّت المدرسة الجديدية، فجزاكم الله تعالى على ما اهتممتم به

أفضل الجزاء، ولقّاكم به خيراً وسروراً يوم الموت واللقاء، ونحن نُعلِمُكم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى بفضله كفانا الضروريات في هذا المعاش، ورزقنا عند الاحتياج من حيث لا نحتسب، وأنعم علينا بطَوْله أن خَلَقَ لنا الراحة من ذلك في قلوبنا وأبداننا، ونحن نتقلّب في أنعم مولانا جل وعزّ ظاهِرًا وباطنًا مع عدم الأهلية ـ والله! ـ لشيء من ذلك، بل الذي نتحققه ونقطع به وجود الأهلية منا للمعالجة بغضبه وعقابه، لكن بحلمه وكرمه عامل من ليس من المتقين معاملة المتقين، فلِلَّه الحمد تبارك وتعالى ظاهرًا وباطنًا أولاً وآخرًا، فليُرجِع أمير المؤمنين ـ سدّده الله تعالى ـ خاطِرَه من قِبَلنا، ولا يتشوَّفْ إلى شيء من إمدادنا في هذا العيش الدنيوي وإعانتنا، فنحن قد أغنانا مولانا تبارك وتعالى عن ذلك، ومن لم يقتنع في الدنيا بالقليل لم ينفعه منها الكثير، والعاقل من اغتنم كفايته وقته الخالي لطاعة الله تعالى وأعْرَض عن المستقبل، إذ لعله لا يَصِلُ إليه، وإن وصل إليه فخزائن مولانا الكريم لا تبيد ولا تغيض، ثم الذي نعتقده أن تلك المدرسة لا حقَّ لنا فيها اليوم إذ لسنا نعمّرها بقراءة ولا سكنى ولا خدم لنا فيها بوجه، فمشاركتنا لذوي الحقوق فيها وتضييقنا عليهم بالأخذ معهم جَوْرٌ منا وحرص منا وتكاثر؛ إذ المقصود كفاية المهم الحالي، وقد حصلت والحمد لله تعالى، فلا حاجة لنا في أخذ شيء ـ ولو قُدِّر حلالا محضا ـ من مدرسة ولا من بيت مال، وعلى تقدير أن يأتينا شيء من هذه الجهات فلا نقبله ولا يَصْفُو لنا في الآخرة خيرُه، وكل عيش لا يسلم الإنسان من تبعاته في الآخرة فهو فتنة وشر عظيم، وكل من في الدنيا ضيف عابر سبيل في سفره لا فترة معه إلى الآخرة وكان كل واحد منا قد حلّ في حفرته وانفجرت عليه بوابة الآخرة وأهوالها عن قريب، فلا يليق الاهتمام إلا

بزاد الآخرة الذي لا نجاة إلا معه إلا بفضل الله تعالى، نسأل الله تعالى أن يوفقنا ويوفق أمير المؤمنين لصرف الهمة كلها لزاد الآخرة، وأن يمنّ على الجميع من الفوز برضاه دنيا وآخرة بالمنازل الفاخرة، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته».

ثم قال الملالي معقّبا: «فانظر يا أخي ما أحلى هذا الخطاب الذي لا يصدر إلا من مثله من أولي الألباب، وما احتوى عليه من حسن المواعظ والتزهيد في هذه الدنيا الحقيرة التي صارت عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهون وأحقر من الذباب».

الفصل العاشر: في حِلمه:

قال الإمام السنوسي في شرحه على اسمه تعالى«الحليم»: هو الذي يسامح عبده الجاني بترك المؤاخذة، مع استحقاقه لها، كرمًا منه ـ تبارك وتعالى ـ، وإمهالِه للعبد الجاني مع إصراره، فضلاً منه، ورعايةً لحكمةٍ ومصلحةٍ في ذلك خفيّة لا يطلع عليها سواه. وحظ العبد منه: الاقتداء بالمولى الكريم ـ جل وعلا ـ، فيقابل الإساءة إليه بالإحسان، وظلم من ظلمه بجميل العفو والغفران»[1].

هذا كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولا شك أنه قد نال حظّه من اسمه تعالى «الحليم» أكمل نوال، وتخلق به على أحسن الأحوال، فظهر منه الصفح والمسامحة والغفران، بل ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ وقد قال الملالي في ذلك الشأن: «أمّا حِلمُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكان من شأنه أنه لا ينتقم لنفسه، ولا ينتصر لها، فمن عظيم

(١) شرح الأسماء الحسنى (ص ٣٩) طبعة مؤسسة المعارف.



حِلمه أنه ربما يقال فيه ما يكره سَمْعه، فيتعامى عنه ويرى من نفسه أنه لم يكن شيء من ذلك، ولا يؤثِّر ذلك فيه بالكلية، بل سماعُه لذلك وعدمُ سماعِه على حدِّ السواء عنده، وربما يُظهِر البِشْرَ والتبسُّمَ عند ذلك، ولقد تكلّم رجل بحضرته بكلام قبيح جدًّا يرجع قبحه إلى الشيخ، حتى خجل بعض العارفين من قبح كلامه، وهمَّ أحد أن يسبّه وأن يقيمه من مكانه ويطرده، فأخذ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتبسم من كلام الرجل ويُظهِر له البِشْرَ والبشاشة في وجهه، بحيث يُظَنّ بالرجل أنه لم يصدر منه سوء، وإنما صدر منه شيء حَسن».

وقد ساق الملالي وقائع أخرى تدل على عظيم حِلمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن قال: «فهكذا كانت سيرته مع الخلق، فتجده لا يحقد على أحد، ولا يظهر العبوسة في وجه من أساء إليه، بل إذا لقيه الرجل الذي تكلم في عِرضه بدأه الشيخ بالسلام، وفاتحه بالكلام والتحية والإعظام، ولا يظهر له ما يدل على الملام، حتى يعتقد المعتقد أن ذلك الرجل صديقه وحبيبه، ثم إذا غاب الرجل بحث الشيخُ عليه، فإن قيل له إنه بخير حمد الله على ذلك، وإن قيل له إنه مريض عاده، وإن مات خرج لجنازته إن أمكنه ذلك، هكذا كان حاله مع من تكلم في عِرْضه، فكيف بغيره؟! حتى لا يميز الإنسان بين صديقه وعدوه وقريبه وبعيده».

الفصل الحادي عشر: في ورعه:

قال الملالي: «وأمّا وَرَعُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فلا شك ولا خفاء أنه كان أورع أهل زمانه، فمن ورعه وَرَعُه عن الاجتماع مع أبناء الدنيا وأقارب السلطان من الوزراء والقواد ونحوهم، ولا شيء أبغض إليه من الاجتماع بهم والنظر إليهم».

ثم ذكر جملة من الأحداث التي وقعت بينه وبين السلطان وخواصه وأقاربه، إلى أن قال: «وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمّا شرع في التفسير بعث له السلطان رسولا وطلب منه أن يطلع عليه ويقرأ التفسير بحضرته كما يطلع غيره من المدرّسين، فامتنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الطلوع إلى السلطان، فلمّا طولب في ذلك ثانيا وثالثا ورأى أنهم قد ألحّوا عليه، كتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابا إلى السلطان أو إلى وزيره واعتذر له بأنه يغلبه الحياء بذلك كثيراً بذلك الموضع فلا يقدر أن يتكلّم بشيء فيه كما يتكلم في مجلسه المعتاد، فحينئذ آيس السلطان منه وعلم أنه لا حاجة للشيخ به ولا بالاجتماع به، وأنه ليس كغيره من الفقهاء والمدرسين الذين يحبون الدنيا والاجتماع بأهلها والميل إلى زينتها».

الفصل الثاني عشر: في مواعظه:

قال الملالي: «وأمّا مواعظه فلا شك ولا خفاء أنه كان يقرع الأسماع بمواعظه، وتقشعر منها الجلود، وتلين لها القلوب، كل من حضر مجلسه الشريف يقول: معي هو يتكلم، وإيّاي هو يخاطب.

وكان شأنه في الوعظ كشأن العلماء العارفين الأخيار في مواعظهم، تجده يسرق الخَلْقَ إلى الله تعالى بعبارات لطيفة سهلة، من غير عنف ولا قهر ولا إظهار صلابة في العبارة، عارفًا بما يصلح ويفسد، فانتفع الناس بكلامه انتفاعا عظيمًا، فتجده يسوق الناس إلى الله تعالى بسياسة ولطافة ولين، ويعبّر بعبارة سهلة لا تكلّف فيها، يفهمها الخاص والعام». م ساق الملالي طرفًا من مواعظه الجليلة، إلى أن قال:

«وسمعته رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول ما معناه: **جاء ولي من أولياء الله تعالى إلى بعض**

الأمراء، فقال الأمير وقد رأى عليه لباس الزهد: ما لكم تزهدون في الدنيا؟! فقال الوليُّ للأمير: أنتم أزْهَد منّا. فقال له الأمير: ومن أين ذلك؟ قال له: لأنّ زهدنا إنما هو في الدنيا، وزهدكم أنتم إنما هو في الآخرة. قال: فلمّا افترقا تأمل الأمير ما خاطبه به الوليُّ، فوجد كلامه كأنه قال: أنت أحمق ونحن عقلاء؛ لأنك زهدت في شيء نفيس لا قيمة له؛ لشرفه، ونحن زهدنا في شيء قليل جدا لا قيمة له؛ ليسارته وخسته، ولا شك أن من بذل شيئًا خسيسًا ليأخذ عنه عوضًا لا قيمة له؛ لشرفه، هو الذي يقال له إنه عاقل حقيقة، كما هو شأن هذا الولي وغيره من الأولياء، ومن بذل شيئا نفسيا لا قيمة له؛ لشرفه، في شيء خسيس هو الأحمق حقيقة، كما هو شأن هذا الأمير وغيره. ثم قال الشيخ السنوسي: فانظر ما أبلغ وعظ هذا الولي وما أحسنه وما انطوى عليه كلامه الموجز من نسبة الحمق والسفه للأمير على وجه لا عتاب فيه ولا غلظ عبارة».

الفصل الثالث عشر: في ولايته لله تعالى:

عرّف أئمة أهل السنة الولي بقولهم: «هو العارف بالله تعالى وصفاته، المواظب على الطاعات، المتجنب عن المعاصي، المُعرِض عن الانهماك في اللذات والشهوات»[1] وهذا التعريف قد ارتضاه الإمام السنوسي وأقرّه في شرحه على «كفاية المريد»، وزاد في شرحه على العقيدة الوسطى ذكر شروط الولاية عند أهل السنة استنادًا إلى قول الشيخ ابن دهاق[2] في «شرح

(١) شرح المقاصد، للتفتازاني (ج٢/ص٢٠٣) مداد للطباعة والنشر.

(٢) هو الإمام يوسف بن محمد بن دِهاق الأوسي، أبو إسحاق المالَقي، المالكي، نزيل مُرْسية، يُعرف بابن المرأة (ت ٦١١هـ) كان متكلّماً فقيهاً مشاركاً في الأب. ومن أشهر كتبه شرح الإرشاد لإمام الحرمين، ومنه ينقل الإمام السنوسي. (راجع شجرة النور الزكية ج١/ص١٧٣).

الإرشاد»: «للولي أربعة شروط:

❋ **أحدها**: أن يكون عارفًا بأصول الدين حتى يفرِّقَ بين الخلق والخالق، وبين النبيِّ والمدعِي.

❋ **الثاني**: أن يكون عالما بأحكام الشريعة نقلا وفهما ليكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام الشرعية كما اكتفى عن ذلك في أصول التوحيد، فلو أذهب الله تعالى علماء أهل الأرض لوُجد عنده ما كان عندهم، ولأقام قواعد الإسلام من أولها إلى آخرها، فإنه لا يفهم من قولنا «وَلِيُّ الله» إلا الناصر لدين الله تعالى، وذلك ممتنع في حق من لا يحيط علما بدين الله وقواعده وأصوله وفروعه.

❋ **الثالث**: أن يتخلق بالخلق المحمود الذي يدل عليه الشرع والعقل، فأما ما يدل عليه الشرع فالورَعُ عن المحرَّمات وامتثال جميع المأمورات، وأمّا ما يدل عليه العقل فهو ما يُثمِرُه العلم بأصول الدين، وهو أنه إذا عَلِم حدوثَ العالَم بأسره لم يتعلق قلبُه بشيء منه خوفًا منه ولا طمعاً لِعِلْمِهِ أنه في قبضة الله ﷻ، وإذا علم الوحدانية أخلص لله تعالى في سائر أعماله، إذ الربوبية لا تحتمل الشّركة في شيء، وإذا علم أنّ القَدَرَ سابقٌ بكل ما هو كائن لم يخف فَوْتَ شيءٍ مما قُدِّرَ ولم يَرْجُ نَيْلَ شيءٍ مما لم يُقَدَّر، وهذا هو المُعبَّرُ عنه بالرضا بالقدر، وخرج من ذلك الرفق بالخلق والصفح عنهم عند إذايتهم له لعلمه أنهم لا يستطيعون لأنفسهم ـ فضلا عن غيرهم ـ دَفْعَ ضَرٍّ ولا جَلْبَ نَفْعٍ.

❋ **والرابع**: أن يُلازِمَهُ الخَوْفُ أبدًا سرمدًا، ولا يجد لطمأنينة النفس سبيلا، فإنه لا يحيط علمًا بأنه من فريق السعادة في الأزل أو من فريق الشقاوة، ثم ينظر إلى أسباب الشقاوة وأماراتها فيجدها منحصرة في المُخالَفات

فهو يَخافُ الوقوع فيها ويجتنبها وهذا هو المُعبَّرُ عنه بالوَرَع، وما حصل له من الموافقة فهو يخاف زوالها بأضدادها حتى يخاف أن يُبدَّل عِلمُه وفَهْمُه إلى الشك والجهل، وكذا يخاف أن يطالبه ربُّه بالقيام بشكره فيما أنعم عليه فلا يطيق ذلك، وكذا يخاف أن تخدعه نفسه فيحصل في عمله ما يفسده ويحبطه من الرياء والسمعة والعجب، وكذا يخاف من توجه حقوق عليه للآدميين فتُنقَل أعمالُه إلى صحائفهم، وهذه أحوالهم وتفاوتهم على حسب الحضور في أبواب القربات وأعمال الخيرات، والله يرزق من يشاء بغير حساب».

وقد حصّل الإمام السنوسي بفضل الله تعالى هذه الشروط، وظهرت عليه علامات الولاية، وقد قال تلميذه الملالي: «ولا خفاء أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد خصَّهُ البارئ سبحانه بهذه الشروط الأربعة، وزاد عليها زيادة لا يمكن وصفها، ومنحه سبحانه معارف ربانية، وعلومًا لدنية، وأنوارًا إلٓهية، حتى امتلأت عروقُه ومفاصِله من أنوار الله المخزونة، فهو بنجوم العلم وقمر التوحيد يَهتدي في ليله، وبشموس المعارف يستضيء منها في نهاره».

فهذا ما أردنا تلخيصه من ترجمة الإمام السنوسي، وقد عقد الملالي له فصولا أخرى في كراماته، ورفع همته، وشفقته، ورحمته، وصبره، وسداد طريقته رحمه الله تعالى، وساق من الحكايات الباهرة والأحوال الفاخرة مما شاهد بعينه وتواتر عن الشيخ بين الخواص والعوام ذكره.

الفصل الرابع عشر: في وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الملالي: «كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أواخر عمره كثير الانقباض عن الخلق، لا يكاد ينبسط مع أحد كما كانت عادته قبل ذلك، وشقّ عليه الخروج إلى المسجد والصلاة، ولا يخرج إليه في بعض الأيام إلا حياء من الناس الذين

ينتظرونه في المسجد للصلاة، ولمّا أحسّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بألم مرضه الذي توفي منه انقطع عن المسجد، فسمع الناس بمرضه فصاروا يأتون إلى المسجد فلا يجدونه، فتتغير قلوبهم من فقدان الشيخ وعدم رؤيته لهم، فأُخبِرَ الشيخُ بذلك فصار يتكلّف الخروج إلى المسجد للصلاة لأجل الناس، فإذا رأوه فرحوا وسُرّوا بخروجه ورؤيته.

فخرج يوما وأتى لباب المسجد وأراد الصعود إليه فلم يقدر، فقال: كيف أطلع إلى المسجد يا ربّ؟ أو كما قال، فهمّ بالرجوع إلى داره، فبدا له خوفا من أن يدخل على الناس حزناً برجوعه فتكلّف الصعود إلى المسجد وصلى بالناس صلاة العصر يوم الجمعة ولم يكمل الصلاة إلا بشق النفس، وهذه آخر صلاة صلاها، فرجع إلى داره فبقي إلى صبيحة يوم السبت من الغد، فقرّبت إليه زوجته طعاما فقال لها: لا أقدر على شيء، فقالت له: وأيّ شيء بك؟ فقال لها: أنا تخلّفت! ثم غاب عن حسّه، فبقي على تلك الحالة النهار كله، ثم كلّمته زوجته وقالت له: ما الذي غيّبك عن حسك؟ أو قريب من هذا، فقال لها: إن الملائكة قد صعدت بي إلى السماء الدنيا فسمعت قائلا يقول لي: اترك ما أنت عليه، فقد قَرُبَ أجلُك، ثم قال: لا أستطيع أن أفسِّر لكِ بقية ما رأيتُ، أو كما قال، فقالت له زوجته: وما الذي أمرت بتركه؟ قال لها: قد تركت حبس ذلك المسجد لا آخذ منه شيئاً أبداً. ثم إنه لازم الفراش من حينئذ إلى أن توفي.

ومدّة مرضه عشرة أيام، وفي كل ساعة يتقوى مرضه ويتضاعف ألمُه وتضعف قوّته وحركته ويثقل لسانه، وهو مع ذلك ثابت العقل، يتأوّه ولا أنَّ بالكلية، ثم تجده مع ذلك يكلّم من كلّمه ويسلّم على من سلّم عليه أو يشير له، فلمّا قرب أجله بثلاثة أيام دخلته سكرات الموت، فرجع يتأوّه بالقهر

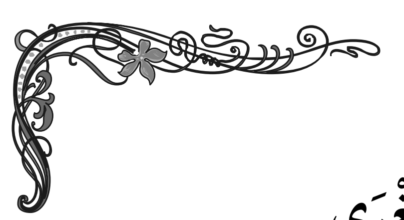


ويميل يميناً وشمالا، فنظرت إليه وقد احمرّت وجنتاه واشتدَّ نَفَسُه وتقوّى صعودُه وهبوطه، فلم أملك صبراً على البكاء مما عاينت من شدة مقاساته وعظيم صبره على ذلك، ففارقته وظننت أنه لا يبقى تلك الليلة وكانت ليلة السبت، فبقي في النزع تلك الليلة والأحد إلى بعد العصر، فكان ابن أخيه يلقنه الشهادة مرة بعد مرة، فالتفت الشيخ له وقال بكلام ضعيف جدا: وهل ثمّ غيرها؟! يعني أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس بغافل بقلبه في هذا الوقت وإن كنت لم أنطق بها اللسان، فحينئذ استبشروا بذلك وعرف الحاضرون أنه ثابت العقل ليس بغافل عن الله سبحانه، وكانت بنته رَحِمَهَا ٱللَّهُ تقول له حينئذ: تمشي وتتركني؟ فقال لها: الجنة تجمعنا عن قريب إن شاء الله تعالى.

وكانت في يده رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبحة فلمّا اشتد مرضه سقطت السبحة من يده، فبقي كذلك ما شاء الله، ثم التفت إلى السبحة فلم يجدها في يده، فقال: مشت العبادة يا محمد! يعني نفسه. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عند موته: نسأله سبحانه أن يجعلنا وأحبتنا عند الموت ناطقين بكلمتي الشهادة، عالمين بها.

وتوفي رحمه الله ورضي عنه يوم الأحد بعد العصر، الثامن عشر من جمادى الآخرة من عام خمسة وتسعين بعد ثمان مائة (٨٩٥هـ)، وأخبرتني والدتي ـ رحمها الله تعالى ـ عن بنت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها شمّت رائحة المسك في البيت بنفس موت أبيها، وشمّته أيضا في جسده، والله تعالى أعلم.

نسأله سبحانه أن يقدّس روحه وأن يسكنه في أعالي الفردوس فسيحه، وأن يجعله ممن يتنعّم في كل لحظة برؤية ذاته العلية العديمة النظير والمثال، وأن ينفعنا به في الدنيا والآخرة، وأن يجمعنا معه بفضله وكرمه في أعلى المنازل الفاخرة بجاه سيدنا ونبينا ومولانا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته».




العَقِيدَةُ الصُّغْرَى

(أُمُّ البَرَاهِين)

الحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

اِعْلَمْ أَنَّ الحُكْمَ العَقْلِيَّ يَنْحَصِرُ فِي ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: الوُجُوبُ، وَالاسْتِحَالَةُ، وَالجَوَازُ. فَالوَاجِبُ: مَا لَا يَتَصَوَّرُ في العَقْلِ عَدَمُهُ. وَالمُسْتَحِيلُ: مَا لاَ يَتَصَوَّرُ فِي العَقْلُ وُجُودُهُ. وَالجَائِزُ: مَا يَصِحُّ فِي العَقْلِ وُجُودُهُ وَعَدَمُهُ.

وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ شَرْعًا أَنْ يَعْرِفَ مَا يَجِبُ فِي حَقِّ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ وَمَا يَسْتَحِيلُ وَمَا يَجُوزُ، وَكَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي حَقِّ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلَامُ.

فَمِمَّا يَجِبُ لِمَوْلَانَا جَلَّ وعَزَّ عِشْرُونَ صِفَةً وَهْيَ: الوُجُودُ، وَالقِدَمُ، وَالبَقَاءُ، وَمُخَالَفَتُهُ تَعَالَى لِلْحَوَادِثِ، وَقِيَامُهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ أَيْ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى مَحَلٍّ وَلَا مُخَصِّصٍ، وَالوَحْدَانِيَّةُ أَيْ لَا ثَانِيَ لَهُ فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ.

فَهَذِهِ سِتُّ صِفَاتٍ، الأُولَى نَفْسِيَّةٌ وَهْيَ الوُجُودُ، وَالخَمْسَةُ بَعْدَهَا سَلْبِيَّةٌ.

ثُمَّ يَجِبُ لَهُ تَعَالَى سَبْعُ صِفَاتٍ تُسَمَّى صِفَاتُ المَعَانِي، وَهْيَ: القُدْرَةُ وَالإِرَادَةُ المُتَعَلِّقَتَانِ بِجَمِيعِ المُمْكِنَاتِ، وَالعِلْمُ المُتَعَلِّقُ بِجَمِيعِ الوَاجِبَاتِ وَالجَائِزَاتِ وَالمُسْتَحِيلَاتِ، وَالحَيَاةُ وَهْيَ لَا تَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ، وَالسَّمْعُ وَالبَصَرُ

المُتَعَلِّقَانِ بِجَمِيعِ المَوْجُودَاتِ، وَالكَلَامُ الَّذِي لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ وَيَتَعَلَّقُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ العِلْمُ مِنَ المُتَعَلَّقَاتِ.

ثُمَّ سَبْعُ صِفَاتٍ تُسَمَّى صِفَاتٍ مَعْنَوِيَّةً، وَهْيَ مُلَازِمَةٌ لِلسَّبْعِ الأُولَى، وَهْيَ كَوْنُهُ تَعَالَى قَادِراً، وَمُرِيداً، وَعَالِماً، وَحَيّاً، وَسَمِيعاً، وَبَصِيراً، وَمُتَكَلِّماً.

وَمِمَّا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى عِشْرُونَ صِفَةً، وَهْيَ أَضْدَادُ العِشْرِينَ الأُولَى وَهْيَ: العَدَمُ، وَالحُدُوثُ، وَطُرُوُّ العَدَمِ، وَالمُمَاثَلَةُ لِلْحَوَادِثِ بِأَنْ يَكُونَ جِرْماً أَيْ تَأْخُذَ ذَاتُهُ العَلِيَّةُ قَدْراً مِنَ الفَرَاغِ، أَوْ يَكُونَ عَرَضاً يَقُومُ بِالجِرْمِ، أَوْ يَكُونَ فِي جِهَةٍ لِلْجِرْمِ، أَوْ لَهُ هُوَ جِهَةٌ، أَوْ يَتَقَيَّدَ بِمَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ، أَوْ تَتَّصِفَ ذَاتُهُ العَلِيَّةُ بِالحَوَادِثِ، أَوْ يَتَّصِفَ بِالصِّغَرِ أَوْ الكِبَرِ، أَوْ يَتَّصِفَ بِالأَغْرَاضِ فِي الأَفْعَالِ أَوِ الأَحْكَامِ.

وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى أَنْ لَا يَكُونَ قَائِماً بِنَفْسِهِ بِأَنْ يَكُونَ صِفَةً يَقُومُ بِمَحَلٍّ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى مُخَصِّصٍ.

وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى أَنْ لَا يَكُونَ وَاحِداً بِأَنْ يَكُونَ مُرَكَّباً فِي ذَاتِهِ، أَوْ يَكُونَ لَهُ مُمَاثِلٌ فِي ذَاتِهِ أَوْ فِي صِفَاتِهِ، أَوْ يَكُونَ مَعَهُ فِي الوُجُودِ مُؤَثِّرٌ.

وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى العَجْزُ عَنْ مُمْكِنٍ مَا، وَإِيجَادُ شَيْءٍ مِنَ العَالَمِ مَعَ كَرَاهَتِهِ لِوُجُودِهِ أَيْ عَدَمِ إِرَادَتِهِ لَهُ تَعَالَى، أَوْ مَعَ الذُّهُولِ أَوِ الغَفْلَةِ، أَوْ بِالتَّعْلِيلِ أَوْ بِالطَّبْعِ.

وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى الجَهْلُ ـ وَمَا فِي مَعْنَاهُ ـ بِمَعْلُومٍ مَا، وَالمَوْتُ وَالصَّمَمُ، وَالعَمَى، وَالبَكَمُ.

وَأَضْدَادُ الصِّفَاتِ المَعْنَوِيَّةِ وَاضِحَةٌ مِنْ هَذِهِ.

وَأَمَّا الجَائِزُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى فَفِعْلُ كُلِّ مُـمْكِنٍ أَوْ تَرْكُهُ.

أَمَّا بُرْهَانُ وُجُودِهِ تَعَالَى فَحُدُوثُ العَالَمِ لأَنَّه لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُـحْدِثٌ بَلْ حَدَثَ بِنَفْسِهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الأَمْرَيْنِ المُتَسَاوِيَيْنِ مُسَاوِياً لِصَاحِبِهِ رَاجِحاً عَلَيْهِ بِلَا سَبَبٍ، وَهُوَ مُـحَالٌ.

وَدَلِيلُ حُدُوثِ العَالَمِ مُلَازَمَتُهُ لِلْأَعْرَاضِ الحَادِثَةِ مِنْ حَرَكَةٍ أَوْ سُكُونٍ وَغَيْرِهِمَا، وَمُلَازِمُ الحَادِثِ حَادِثٌ.

وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ القِدَمِ لَهُ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ قَدِيماً لَكَانَ حَادِثاً، فَيَفْتَقِرُ إِلَى مُحْدِثٍ، فَيَلْزَمُ الدَّوْرُ أَوِ التَّسَلْسُلُ.

وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ البَقَاءِ لَهُ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ أَنْ يَلْحَقَهُ العَدَمُ لَانْتَفَى عَنْهُ القِدَمُ لِكَوْنِ وُجُودِهِ حِينَئِذٍ جَائِزاً لَا وَاجِباً، وَالجَائِزُ لَا يَكُونُ وُجُودُهُ إِلَّا حَادِثاً، كَيْفَ وَقَدْ سَبَقَ قَرِيباً وُجُوبُ قِدَمِهِ تَعَالَى؟!

وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ مُخَالَفَتِهِ تَعَالَى لِلْحَوَادِثِ فَلِأَنَّهُ لَوْ مَاثَلَ شَيْئاً مِنْهَا لَكَانَ حَادِثاً مِثْلَهَا، وَذَلِكَ مُـحَالٌ لِمَا عَرَفْتَ قَبْلُ مِنْ وُجُوبِ قِدَمِهِ تَعَالَى وَبَقَائِهِ.

وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ قِيَامِهِ تَعَالَى بِنَفْسِهِ فَلِأَنَّهُ تَعَالَى لَوِ احْتَاجَ إِلَى مَـحَلٍّ لَكَانَ صِفَةً، وَالصِّفَةُ لَا تَتَّصِفُ بِصِفَاتِ المَعَانِي وَلَا المَعْنَوِيَّةِ، وَمَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ يَجِبُ اتِّصَافُهُ بِهِمَا فَلَيْسَ بِصِفَةٍ، وَلَوْ احْتَاجَ إِلَى مُخَصِّصٍ لَكَانَ حَادِثاً، كَيْفَ وَقَدْ قَامَ البُرْهَانُ عَلَى وُجُوبِ قِدَمِهِ تَعَالَى وَبَقَائِهِ؟!

وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ الوَحْدَانِيَّةِ لَهُ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ وَاحِداً لَزِمَ أَنْ لَا يُوجَدَ شَيءٌ مِنَ العَالَمِ لِلُزُومِ عَجْزِهِ حِينَئِذٍ.

وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ اتِّصَافِهِ تَعَالَى بِالقُدْرَةِ وَالإِرَادَةِ وَالعِلْمِ وَالحَيَاةِ فَلِأَنَّهُ لَوْ انْتَفَى شَيْءٌ مِنْهَا لَمَا وُجِدَ شَيْءٌ مِنَ الحَوَادِثِ.

وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ السَّمْعِ لَهُ تَعَالَى وَالبَصَرِ وَالكَلَامِ فَالكِتَابُ وَالسُّنةُ وَالإِجْمَاعُ، وَأَيْضاً لَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا لَزِمَ أَنْ يَتَّصِفَ بِأَضْدَادِهَا وَهْيِ نَقَائِصُ، وَالنَّقْصُ عَلَيْهِ تَعَالَى مُحَالٌ.

وَأَمَّا بُرْهَانُ كَوْنِ فِعْلِ المُمْكِنَاتِ أَوْ تَرْكِهَا جَائِزاً فِي حَقِّهِ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْ وَجَبَ عَلَيْهِ تَعَالَى شَيْءٌ مِنْهَا عَقْلًا أَوِ اسْتَحَالَ عَقْلاً لَانْقَلَبَ المُمْكِنُ وَاجِباً أَوْ مُسْتَحِيلاً وَذَلِكَ لَا يُعْقَلُ.

وَأَمَّا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصلاة السَّلَامُ فَيَجِبُ فِي حَقِّهِمُ الصِّدْقُ، وَالأَمَانَةُ، وَتَبْلِيغُ مَا أُمِرُوا بِتَبْلِيغِهِ لِلْخَلْقِ.

وَيَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِمْ ـ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ أَضْدَادُ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَهْيَ الكَذِبُ، وَالخِيَانَةُ بِفِعْلِ شَيْءٍ مِمَّا نُهُوا عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ كَرَاهَةٍ، وَكِتْمَانُ شَيْءٍ مِمَّا أُمِرُوا بِتَبْلِيغِهِ لِلْخَلْقِ.

وَيَجُوزُ فِي حَقِّهِمْ ـ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ مَا هُوَ مِنَ الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةِ الَّتِي لَا تُؤَدِّي إِلَى نَقْصٍ فِي مَرَاتِبِهِمُ العَلِيَّةِ كَالمَرَضِ وَنَحْوِهِ.

أَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ صِدْقِهِمْ ـ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ فَلِأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ

يَصْدُقُوا لَلَزِمَ الكَذِبُ فِي خَبَرِهِ تَعَالَى لِتَصْدِيقِهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالمُعْجِزَةِ النَّازِلَةِ مَنْزِلَةَ قَوْلِهِ تَعَالَى «صَدَقَ عَبْدِي فِي كُلِّ مَا يُبَلِّغُ عَنِّي».

وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ الأَمَانَةِ لَهُمْ ـ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ فَلِأَنَّهُمْ لَوْ خَانُوا بِفِعْلِ مُحَرَّمٍ أَوْ مَكْرُوهٍ لَانْقَلَبَ المُحَرَّمُ أَوِ المَكْرُوهُ طَاعَةً فِي حَقِّهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنَا بِالاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلَا يَأْمُرُ تَعَالَى بِفِعْلِ مُحَرَّمٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، وَهَذَا بِعَيْنِهِ هُوَ بُرْهَانُ وُجُوبِ الثَّالِثِ.

وَأَمَّا دَلِيلُ جَوَازِ الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةِ عَلَيْهِمْ فَمُشَاهَدَةُ وُقُوعِهَا بِهِمْ، إِمَّا لِتَعْظِيمِ أُجُورِهِمْ، أَوْ لِلتَّشْرِيعِ، أَوْ لِلتَّسَلِّي عَنِ الدُّنْيَا، أَوْ لِلتَّنْبِيهِ لِخِسَّةِ قَدْرِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعَدَمِ رِضَاهُ بِهَا دَارَ جَزَاءٍ لِأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِاعْتِبَارِ أَحْوَالِهِمْ فِيهَا عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَيَجْمَعُ مَعَانِيَ هَذِهِ العَقِيدَةِ كُلِّهَا قَوْلُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللَّهِ» إِذْ مَعْنَى الأُلُوهِيَّةِ اسْتِغْنَاءُ الإِلَهِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَافْتِقَارُ كُلِّ مَا عَدَاهُ إِلَيْهِ، فَمَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لَا مُسْتَغْنِياً عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَمُفْتَقِراً إِلَيْهِ كُلُّ مَا عَدَاهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

أَمَّا اسْتِغْنَاؤُهُ جَلَّ وعَزَّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ فَهْوَ يُوجِبُ لَهُ تَعَالَى الوُجُودَ وَالقِدَمَ وَالبَقَاءَ وَالمُخَالَفَةَ لِلْحَوَادِثِ وَالقِيَامَ بِالنَّفْسِ وَالتَّنَزُّهَ عَنِ النَّقَائِصِ.

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ وُجُوبُ السَّمْعِ لَهُ تَعَالَى وَالبَصَرِ وَالكَلَامِ، إِذْ لَوْ لَمْ تَجِبْ لَهُ هَذِهِ الصِّفَاتُ لَكَانَ مُحْتَاجاً إِلَى المُحْدِثِ أَوِ المَحَلِّ أَوْ مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ النَّقَائِصَ.



وَيُؤْخَذُ مِنْهُ تَنَزُّهُهُ تَعَالَى عَنِ الأَغْرَاضِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ وَإِلَّا لَزِمَ افْتِقَارُهُ إِلَى مَا يُحَصِّلُ غَرَضَه، كَيْفَ وَهُوَ جَلَّ وعَزَّ الغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ؟!.

وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَيْضاً أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِعْلُ شَيْءٍ مِنَ المُمْكِنَاتِ عَقْلًا وَلَا تَرْكُهُ، إِذْ لَوْ وَجَبَ عَلَيْهِ تَعَالَى شَيْءٌ مِنْهَا عَقْلًا، كَالثَّوَابِ مَثَلًا لَكَانَ جَلَّ وعَزَّ مُفْتَقِراً إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ لِيَتَكَمَّلَ بِهِ غَرَضُهُ، إِذْ لَا يَجِبُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى إِلَّا مَا هُوَ كَمَالٌ لَهُ، كَيْفَ وَهْوَ جَلَّ وعَزَّ الغنيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ؟!.

وَأَمَّا افْتِقَارُ كُلِّ مَا عَدَاهُ إِلَيْهِ جَلَّ وعَزَّ فَهْوَ يُوجِبُ لَهُ تَعَالَى الحَيَاةَ وَعُمُومَ القُدْرَةِ وَالإِرَادَةِ وَالعِلْمِ، إِذْ لَوْ انْتَفَى شَيْءٌ مِنْهَا لَمَا أَمْكَنَ أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ مِنَ الحَوَادِثِ فَلَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ شَيْءٌ، كَيْفَ وَهْوَ الَّذِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ؟!.

وَيُوجِبُ لَهُ تَعَالَى أَيْضاً الوَحْدَانِيَّةَ، إِذْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ثَانٍ فِي الأُلُوهِيَّةِ لَمَا افْتَقَرَ إِلَيْهِ شَيْءٌ لِلُزُومِ عَجْزِهِمَا حِينَئِذٍ، كَيْفَ وَهْوَ الَّذِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ؟!.

وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَيْضاً: حُدُوثُ العَالَمِ بِأَسْرِهِ، إِذْ لَوْ كَانَ شَيْءٌ مِنْهُ قَدِيماً لَكَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ مُسْتَغْنِياً عَنْهُ تَعَالَى، كَيْفَ وَهْوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَفْتَقِرَ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ؟!

وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَيْضاً أَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لِشَيْءٍ مِنَ الكَائِنَاتِ فِي أَثَرٍ مَا وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ يَسْتَغْنِيَ ذَلِكَ الأَثَرُ عَنْ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ، كَيْفَ وَهْوَ الَّذِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ عُمُوماً وَعَلَى كُلِّ حَالٍ؟!

هَذَا إِنْ قَدَّرْتَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الكَائِنَاتِ يُؤَثِّرُ بِطَبْعِهِ، وَأَمَّا إِنْ قَدَّرْتَهُ مُؤَثِّراً

بِقُوَّةٍ جعَلَهَا اللهُ فِيهِ كَمَا يَزْعُمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الجَهَلَةِ فَذَلِكَ مُحَالٌ أَيْضاً لِأَنَّهُ يَصِيرُ حِينَئِذٍ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ مُفْتَقِراً فِي إِيجَادِ بَعْضِ الأَفْعَالِ إِلَى وَاسِطَةٍ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ لِمَا عَرَفْتَ مِنْ وُجُوبِ اسْتِغْنَائِهِ جَلَّ وَعَزَّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

فقَدْ بَانَ لك تضَمُّنُ قَوْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لِلْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهَا فِي حَقِّ مَوْلَانَا جَلَّ وعَزَّ، وَهْيَ مَا يَجِبُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى وَمَا يَسْتَحِيلُ وَمَا يَجُوزُ.

وَأَمَّا قَوْلُنَا «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُ فِيهِ الإِيمَانُ بِسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءَ بِتَصْدِيقِ جَمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَيُؤْخَذُ مِنْهُ وُجُوبُ صِدْقِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاسْتِحَالَةُ الكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَإِلَّا لَمْ يَكُونُوا رُسُلًا أُمَنَاءَ لِمَوْلَانَا العَالِمِ بِالخَفِيَّاتِ جَلَّ وَعَزَّ، وَاسْتِحَالَةُ فِعْلِ المَنْهِيَّاتِ كُلِّهَا، لِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِيُعَلِّمُوا النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَسُكُوتِهِمْ، فَيَلْزَمُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي جَمِيعِهَا مُخَالَفَةٌ لِأَمْرِ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ الَّذِي اخْتَارَهُمْ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَأَمِنَهُمْ عَلَى سِرِّ وَحْيِهِ.

وَيُؤْخَذُ مِنْهُ جَوَازُ الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةِ عَلَيْهِمْ، إِذْ ذَاكَ لَا يَقْدَحُ فِي رِسَالَتِهِمْ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ ذَاكَ مِمَّا يَزِيدُ فِيهَا.

فَقَدْ بَانَ لَكَ تَضَمُّنُ كَلِمَتَي الشَّهَادَةِ مَعَ قِلَّةِ حُرُوفِهَا لِجَمِيعِ مَا يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهُ مِنْ عَقَائِدِ الإِيمَانِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى وَفِي حَقِّ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ.

وَلَعَلَّهَا لِاخْتِصَارِهَا مَعَ اشْتِمَالِهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ جَعَلَهَا الشَّرْعُ تَرْجَمَةً عَلَى مَا فِي القَلْبِ مِنَ الإِسْلَامِ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ الإِيمَانَ إِلَّا بِهَا.

فَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِهَا مُسْتَحْضِراً لِمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ عَقَائِدِ الإِيمَانِ حَتَّى تَمْتَزِجَ مَعَ مَعْنَاهَا بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ، فَإِنَّهُ يَرَى لَهَا مِنَ الأَسْرَارِ وَالعَجَائِبِ إِنْ شَاءَ اللَّـهُ تَعَالَى مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ، وَبِاللَّـهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ.

نَسْأَلُهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَأَحِبَّتَنَا عِنْدَ المَوْتِ نَاطِقِينَ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ عَالِمِينَ بِهَا. وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الغَافِلُونَ، وَرَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّـهِ أَجْمَعِينَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ، وَالحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تمّت



ترجمة الشيخ العلامة إبراهيم المارغني

بقلم الشيخ محمد الشاذلي النيفر[1]

إنّ خير ما يتنافس فيه المتنافسون، وأفضل ما يقف عليه الواقفون: ترجمة عالم جليل أو مصلح خطير أو مفكر شهير؛ إذ سيرتهم مثال للاقتداء ونبراس للاهتداء، والعالِم ـ مهما كان ـ جديرٌ بالاعتبار وحقيق بالتخليد.

وإن خير ما نخلِّفه للأبناء تراجم الأجداد والآباء، يبنون على بنيانهم ويسيرون على منوالهم ويتقدمون بالأمة إلى مستوى راق.

وسنذكر في هذه الصحائف القليلة أعمالا جليلة لعالِم فاضل تعلم وعلم واستفاد وأفاد ودرس وصنف وأجاد، وأفتى المسلمين بما يرضي رب العالمين، رحمه الله رحمة واسعة في جنات ونعيم ومقام كريم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

نَسَبُهُ

هو العلامة النحرير والأستاذ الشهير مفتي الديار التونسية ذو الأخلاق المرضية الشيخ سيدي إبراهيم بن أحمد بن سليمان المارِغني، نسبة إلى قبيلة بساحل حامد من أعمال طرابلس الغرب، وظهر من هاته القبيلة الولي سيدي

(١) وردت هذه الترجمة في آخر كتاب بغية المريد لجوهر التوحيد للشيخ المارغني، الطبعة الثانية بتونس، المطبعة التونسية، بلا تاريخ.



عمر بن حجا المارغني دفين الداموس من قرى الساحل بتونس، وحفيده الولي سيدي محمد المارغني دفين الخُمْس من مدن طرابلس بزاوية تزار وتُقصَد قراءةً وضيافةً حتى الآن، وتفرق منها أقوام في بعض الأقاليم والأنحاء من القطر التونسي وغيره.

مَوْلِدُهُ وَتَرْبِيَتُهُ

ولد بعاصمة المملكة التونسية خلال عام (١٢٧٨هـ) وتربى تربية زكية إسلامية تامة مرضية، يحفُّه القرآن والعلم من كل النواحي، ويكتَنِفُه الفضل من كل الجهات، فشَبَّ على حب القرآن ورجاله والعلم وأهله، فحفظ القرآن كله وهو ابن أحد عشر عاماً، فصلى به التراويح إماماً، وأعاده في عام لمزيد الرسوخ والثبات، وحافظ عليه وتعبَّد به وعمل به إلى الممات، وأوصى بذلك ولدَه وذويه وكل من قرأ عليه.

تَعَلُّمُهُ وَمَشَايِخُهُ

أمَّ المعهد الزيتوني كعبة أفريقية فكرع من عذب زلاله، وتغذى بلبان علومه ورجاله، فأخذ من كل علم أنفعه وأحسنه، وجد في طلبه وأتقنه، وأحرز فيه على الإجازات البهية والشهادات العلمية كشهادة التطويع سنة (١٢٩٩هـ) فتلقى هناك سائر العلوم السَّنية المقررة في المعاهد الإسلامية على شيوخ نخص بالذكر منهم:

ـ شيخ الشيوخ المفتي المالكي الأول العلامة المنعم سيدي عمر بن الشيخ[١] وهو أخص شيوخه وأكثرهم ملازمة له وقراءة عليه، لا سيما في علوم

(١) هو الشيخ أبو حفص عمر بن الشيخ، جلس للإقراء بجامع الزيتونة سنة (١٢٦٦هـ)=

التفسير والحديث والمنطق.

ـ ورئيس الفتوى وإمام العربية في وقته العلامة المنعم الشيخ سيدي سالم بوحاجب[1].

ـ ورئيس الفتوى العلامة المنعم سيدي محمود بن الخوجة.

ـ ورئيس المفتين في عصره العلامة المنعم الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر.

ـ والصالح العلامة المفتي المالكي الشيخ محمد النيفر.

ـ والعلامة المفتي المالكي الشيخ محمد النجار[2].

= قال تلميذه الشيخ محمد بن عثمان السنوسي في ترجمته: هو آية الله في الذكاء والتحقيق، وله تحصيل زائد في العلوم العقلية وعلى الخصوص علم المنطق وآداب البحث، فقد أدركت جامع الزيتونة وهو الذي يشار إليه فيهما، ومهما تصدى للفهم أتى بالعجب العجاب من التحرير والتدقيق مع حسن الإلقاء وتتبع أمهات المسائل. (مسامرات الظريف بحسن التعريف، ج٤/ص٩٦ تحقيق الشيخ الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي)

(١) هو الشيخ أبو النجاة سالم بن عمر بوحاجب، ولد سنة (١٢٤٤هـ) ودخل لقراءة العلم بجامع الزيتونة سنة (١٢٥٩هـ) وبعد تحصيل العلوم تصدى للتدريس فيه سنة (١٢٦٦هـ). قال تلميذه السنوسي في حقه: آية الله في الذكاء والتحصيل، بلغ إلى رتبة عالية في العلوم وعلى الخصوص المعاني والبيان والنحو والصرف واللغة فإنه إمام جميعها. (مسامرات الظريف، ج٤/ص١٠٤)

(٢) هو الشيخ أبو عبدالله محمد بن عثمان النجار، ولد سنة (١٢٥٣هـ) ودخل إلى جامع الزيتونة في طلب العلم سنة (١٢٧٠هـ) وأخذ عن الشيخ عمر بن الشيخ والشيخ سالم بوحاجب وغيرهما، وتصدى للتدريس به سنة (١٢٨٤هـ) قال تلميذه السنوسي: هو عالم محصل متضلع بعلوم شتى، أدرك أكثرها بالمطالعة التي لازمها، يحاضر بالمسائل العلمية كثيراً، مواظب على التدريس، يشتغل جميع اليوم بالدروس المختلفة العلوم والمراتب، محب للبحث في أثناء الدرس محرِّر فاضل عالي الهمة. (مسامرات الظريف ج٤/ص١٢٢)

ـ والعلامة المفتي الحنفي الشيخ محمود بيرم.

ـ والعلامة المفتي الحنفي الشيخ محمود بن محمود.

ـ والعلامة القاضي الحنفي في وقته الشيخ إسماعيل الصفايحي.

وغيرهم من فطاحل شيوخ ذلك العصر.

وأخذ القراءات والتجويد عن شيخ الإقراء في زمانه العالم التقي المؤلف المدرس الشيخ محمد بن يالوشه، والمدرس الشيخ إبراهيم نور الدين، والمدرس الشيخ الشاذلي الصدام وغيرهم، ولازم الأول ـ أعني الشيخ ابن يالوشه ـ حتى تخرج عليه في القراءات السبعية والعشرية، وصاهره فوهب له من ابنته أنجاله الكرام، وصار خليفته في ذلك العلم والمنصب.

تَدْرِيسُهُ وَتَلَامِيذُهُ

أقرأ كتب التوحيد، والقراءات، والفقه، والبلاغة، والعربية، والفرائض، والميقات، وعلوم الرياضة، والأدب. ودرَّس من الكتب العلمية العالية تفسير البيضاوي إلى سورة الأعراف، وتفسير ذي الجلالين، وصحيح مسلم حتى أتى على نحو الربع، وجانبا من شرح الزرقاني على الموطأ وعلى خليل، والعضد على مختصر ابن الحاجب، والمغني، والمطول، ومختصره، والمواقف، والقطب على الشمسية، وغير ذلك مما يطول ذكره.

وأخذ عنه الجم الغفير من طلبة العلم من أهالي هذا الإقليم وغيرهم، وأخص بالذكر منهم أعلام وأفذاذ هذا العصر أصحاب الفضيلة:

ـ الشيخ سيدي محمد الطاهر بن عاشور رئيس الفتوى المالكية الآن.

ـ وكاهيته المفتي الأول الشيخ عبد العزيز جعيط.

ـ وكاهية المفتي الثاني الشيخ بلحسن النجار.

ـ وقاضي الجماعة في زمانه المنعم الشيخ الصادق النيفر.

ـ وقاضي الحاضرة الآن الشيخ الطيب سياله.

ـ والمفتي الشيخ محمد العنابي.

ـ وإمام الجامع الأعظم ونقيب الأشراف الشيخ حمده الشريف.

ـ والأستاذ الأكبر الشيخ البشير النيفر.

ـ ونائب شيخ الجامع الشيخ محمد العزيز النيفر.

ـ ونائبه الثاني الشيخ الشاذلي الجزيري.

ـ وشيخ الإقراء المنعم الشيخ حسن السناوني.

ـ وشيخ الإقراء الآن الشيخ محمد جديد.

ـ والمدرس النحرير المنعم الشيخ عثمان بن خوجة.

ـ والمدرس الجليل الشيخ محمد الزغواني.

ـ والمدرس الشيخ عبد السلام التونسي.

ـ والمدرس الشيخ أحمد العياري.

ـ والمدرس الشيخ مختار المؤدب.

ـ وابن المترجم العالم النبيل الفاضل المدرس شيخنا سيدي عبد الواحد المارغني.

ـ وأقرباؤه المدرس الشيخ حموده بن يحيى.

ـ والمتطوع الشيخ الطيب السبعي.

ـ والمتطوع الشيخ صالح الكسراوي.

وغيرهم ممن لا يحصى عددا.

مُؤَلَّفَاتُهُ

جمع رحمه الله بين التدريس والتصنيف حرصا على إيصال النفع ودوامه، فقد ترك مؤلفات قيمة حافلة تدل على سمو مكانته العلمية وسعة اطلاعه وتوثقه من نفسه في التحرير وسلاسة العبارة ولطف الإشارة والإيجاز المناسب وتخير القول المرجح الصائب، خالية من الإغلاق شأن من يكتب لنفع الطالبين ولا يريد إلا وجه رب العالمين.

ولذا نفع الله بكتبه بعد مماته كما نفع بها وبدروسه ونصائحه وفتاواه في حياته، وتلقاها الناس بالرحب والقبول جيلا بعد جيل، حتى إن مشيخة الجامع الأعظم وفروعه قررت منها للدراسة رسميا بالمعهد الزيتوني وفروعه مؤلفات خمسة طبعت كلها:

ـ فمنها في فني القراءة والرسم العثماني شرح النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في مقرإ نافع، طبع مرتين عام (١٣٢٢هـ) وعام (١٣٥٤ هـ).

ـ وشرح دليل الحيران على مورد الظمئان في رسم القرآن، طبع سنة (١٣٢٥هـ). ومعه شرح لطيف يسمى تنبيه الخلان على الإعلان بتكميل مورد الظمآن في رسم باقي السبعة الأعيان، قرر للمرتبة العليا في العلم المذكور

علم التجويد والقراءات، كما قرر الأولان للمرتبة المتوسطة فيه.

ومنها في فن التوحيد ثلاثة شروح:

ـ شرح الشذرات الذهبية على العقائد الشرنوبية، طبع مرتين سنة (١٣٤١هـ) وسنة (١٣٥٠ هـ) والآن تحت الطبع[١].

ـ وشرح طالع البشرى على العقيدة الصغرى، طبع مرتين عام (١٣٤٢هـ) وعام (١٣٤٨هـ)[٢].

ـ وعام (١٣٥٧هـ) هذه الطبعة المباركة وهي حاشية بمنزلة الشرح لكونها على المتن كحاشية الشيخ إبراهيم البيجوري المتوفى سنة (١٢٧٦هـ) على الجوهرة، ومنها اختُصرت هاته الحاشية[٣] كما صرح به مؤلفها في الديباجة، ففاقت أصلها بالإيجاز وبديع الصنع والتهذيب وانتقاء الأهم من ذلك بتصرف وزيادة لائقين وترتيب.

وقد قررت الثلاثة للمرتبة الأخيرة في سائر العلوم على هذا الترتيب: الأول للسنة الأولى، والثاني للسنة الثانية، والثالث للسنة الثالثة.

وله رسائل لطيفة طبع بعضها بهامش كتابه النجوم الطوالع بعد أن طبعت رسالة منها بمصر القاهرة في تأليف مصري أيد مؤلفُه صدقَ قوله بها وبرسائل أخرى لغيره وذلك عام (١٣٤٥هـ).

(١) وجملة الطبعات القديمة للشذرات خمسة، وآخرها كان سنة (١٣٧٢هـ/١٩٥٣م) وقد وفق الله تعالى لنشر السادسة ضمن سلسة إحياء التراث الزيتونة (١) آخر عام ٢٠١١م بتونس.

(٢) وجملة طبعاته القديمة أربعة كما أشرنا في المقدمة، وهذه الخامسة بتوفيق الله تعالى.

(٣) وهي المسماة «بغية المريد لجوهرة التوحيد»، تاريخ الطبعة الأولى (١٣٤٤هـ) والثانية (١٣٥٧هـ).

وله نظم في جهات العصوبة السبع شرحه تلميذه الشيخ محمد المكني، وبعض شروح أخرى لم تمثل للطباعة، منها شرحه على رسالة الوضع، وشرحه على البيقونية، وله مؤلفات أخرى لم تكمل منها حاشية على شرح ابن القاصح على الشاطبية، وشرح على الوسطى[1]، وشرح على المرشد المعين، ومصنف في القراءات العشر على نسق غيث النفع[2] أوجز منه وأوضح، فياحبذا لو تكمل وتُطبع لينتفع بها كما انتفع بإخوانها.

وَظَائِفُهُ

تقلب مترجَمنا في عدة وظائف سامية، فدل ذلك على مكانة علمية وأهلية ولياقة لما يتولاه مما أبقى له ذكراً حسنا في جميع وظائفه التي قام بواجبها الديني والأدبي حتى نال به كل ذي حق حقه علماً وإفتاءً وحكماً وغيرها، وقد نال جميعها بعز نفس وعلو همة، ولم يتخذ وسيلة لنيل شيء منها، بل طلبته من غير أن يطلبها.

تقلد أوَّلا خطة العدالة والإشهاد عموماً بالحاضرة في أوائل هذا القرن، ثم سمي عدلا بجمعية الأوقاف سنة (١٣٠٧هـ) وفي هذه السنة عرض عليه العادل قاضي القضاة في زمانه العلامة الإمام المنعم الشيخ سيدي محمد الطاهر النيفر خطة القضاء ببعض الآفاق فامتنع مُؤثِراً بقاءَه للاستفادة والإفادة والاستكمال على القضاء ومتاعبه وأخطاره، وقد حماه الله تعالى وصرف عنه القضاء ومنحه الرضا وعوَّضه بما هو خير منه مما سيذكر.

---

(١) وهي العقيدة الوسطى للإمام محمد بن يوسف السنوسي.

(٢) وهو للإمام أبي الحسن علي النوري الصفاقسي الشهير.

ولا زال مع ذلك يتعاطى القراءة والإقراء بالجامع الأعظم وخارجه حتى ولي مدرسا به من الرتبة الثانية في علم التجويد والقراءات سنة (١٣١٢هـ). وفي السنة نفسها انتظم في سلك مدرِّسي المدرسة العصفورية، ولم يلبث طويلا حتى أسند إليه مشيخة الإقراء بالإيالة التونسية فولي مدرسا من الرتبة الأولى بالجامع الأعظم عام (١٣١٤هـ) جامعاً في تعليمه بين علم التجويد والقراءة وسائر العلوم السَّنية.

كما ولي عضوا نائبا بالمجلس المختلط العقاري عام (١٣٢٦هـ) وعضوا رسميا به عام (١٣٣٢هـ) بعد إلحاح وشبه إجبار.

ثم إنه لا زال ينفع العباد والبلاد حتى ارتقى وقلد خطة الإفتاء المالكي للمحكمة الشرعية بالعاصمة عام (١٣٣٧هـ) وبعد نحو العام أبدل تدريسه في الإقراء بتدريس سائر العلوم، وتولى أيضا رئاسة لجنة امتحان الإعفاء من الجندية بسراية المملكة والتدريس بجامع صاحب الطابع والتدريس بالمكتب الحسيني بمدرسة الجامع الجديد.

أَخْلَاقُهُ

كان رحمه الله مثال المروءة والتُّقَى والوراعة والعفاف والأناة والتواضع والحلم، يؤذَى فلا يؤذِي، يعفو عمن ظلمه، ويَصِلُ من قطعه، ويبدأ مَن لقيه بالسلام، ويستصغر نفسه قهراً لها وتربيةً، ويقر بذنبه وعيبه وإن لم يتصف بذلك، وطالما يتمثل بقول الشاعر:

يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي ... لَشَرُّ النَّاسِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي

وكان هينا ليِّنا هشّا بشّا غيوراً، لا يُرى إلا ذاكراً، يذب على الدين وأهله، لا سيما طلبة العلم، ناصراً لهم ومحبا، لا يفرق بين أحد منهم، فلا يقدِّم البلدي ولا الغني ولا الوجيه على من سواهم، ويستر عليهم وعلى سائر المسلمين، ويقول قول القرآن: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وكان يَرى النبي ﷺ مناماً، فقد حكى لنا ابنُه أستاذنا المذكور[١] عنه أنه رأى رسول الله ﷺ وصاحبيه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ونال شرب اللبن من سُؤْرِهم الشهيِّ، ونال ما نال من القرب والكرامة.

كما حكى أنه قصد الفال الحسن من القرآن لوالده المترجَم يوم نودي لخطة الإفتاء آخذاً بقول من يجيزه، فلاحت له آية الأعراف: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، قال: فعند ذلك تمثلت له بقول الشاعر:

جَاءَ الخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَراً   كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ

وَفَاتُهُ وَمَدْفَنُهُ

استأثر الله به صبيحة يوم الأربعاء الثالث من ثاني الربيعين عام (١٣٤٩هـ) ودفن صبيحة يوم الخميس بعده بمقبرة الجلاز حذو أسلافه الكرام جوار شيخه سيدي سالم بوحاجب، وحضر جنازته كل الطبقات من الخاصة والعامة، وصلى عليه صديقُه وقرينه علما وإفتاءً صاحب الفضيلة شيخ الإسلام المنعَّم سيدي أحمد بيرم، وتولى لَحده تلميذاه نقيب الأشراف وإمام الجامع

(١) وهو الشيخ عبد الواحد المارغني رحمه الله

الأعظم الشيخ حمده الشريف، وشيخ المقارئ العلامة المؤلف المنعَّم الشيخ حسن السناوني، بوَّأه الله تعالى غرف الجنان ووسعه بالرحمة والرضوان.

رِثَاؤُهُ

لم يتسن لنا الوقوف على كل ما قيل في رثاء هذا العالم الجليل سوى قصيدتين إحداهما لشيخ الأدباء العالم المتطوع سيدي العربي الكبادي، ونقشت على رمسه ونصها:

قَبْـــرٌ بِتُرْبَتِـــهِ العَفَـــافُ مُقِـــيمُ ... وَبِأُفْقِـــهِ طَيْـــرُ الجَـــلَالِ يَحُـــومُ

قَـدْ ضَـمَّ عَـالِمَ تُـونِسَ وَسِـرَاجَهَا ... حَيْـثُ الظَّـلَامُ مِـنَ الضَّـلَالِ يَهِـيمُ

مَنْ عَاشَ مِنْ بَعْدِ المَمَاتِ بِـذِكْرِهِ ... وَالـذِّكْرُ عَـيْشٌ لِلرِّجَـالِ عَظِـيمُ

قَبْـرٌ تَضَـمَّنَ جِسْـمَ إِبْـرَاهِيمَ مَـنْ ... آثَـــارُهُ لِلعَـــالَمِينَ نُجُـــومُ

قَـدْ كَـانَ تِـمْثَالَ المُـرُوءَةِ وَالتُّقَـى ... فَإِنَّـــهُ لِلصَّـــالِحَاتِ زَعِـــيمُ

مَـا كَـانَ مَارِغْنِينَـا إِلَّا امْـرءاً ... ظَهَـرَتْ بِـهِ لِلْعَـالَمِينَ عُلُـومُ

فَقَضَـى الإِلَـهُ بِـأَنْ يُفَارِقَنَـا وَلَـمْ ... تَبْـرَأْ مِـنَ الشَّـعْبِ الكَلِـيمُ كُلُـومُ

يَـا وَاقِفـاً بِضَـرِيحِهِ قُـمْ نَـاظِراً ... كَيْـفَ السَّـعَادَةُ وَالعِظَـامُ رَمِـيمُ

وَاسْأَلْ مِنَ الرَّحْمَانِ أَشْرَفَ رَحْمَةٍ ... لِضَـرِيحِهِ تَبْقَـى لَـهُ وَتَـدُومُ

وَانْظُرْ بِعَيْنِ الصِّدْقِ قَوْلَ مُؤَرِّخٍ ... حَقّـاً لَيُقَـرَّرُ مَـاتَ إِبْـرَاهِيمُ

والأخرى من نظم العلامة المدرس الشيخ الناصر الصدام، وهي طويلة الذيل ومنها قوله:

رَاسِــــخٌ ذُو تَوَاضُـــعٍ وَأَنَـــاةٍ هَـــيِّنٌ لَـــيِّنٌ سِــــرِّيٌّ[1] كَــــرِيمٌ
لَــمْ يُغَيِّــرْهُ عَــنْ حَمِيــدِ خِصَــالٍ مَنْصِــبٌ شَــامِخٌ وَحَــظٌّ عَظِــيمٌ

رُؤْيَاهُ

حدثني شبل مترجمنا أستاذنا سيدي عبد الواحد المارغني أنه رِيءَ والدُه مناماً بعد وفاته رُؤىً سارة مبشرة، منها أنه رِيءَ يكتب أوائل سورة «قد أفلح المؤمنون» إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ – ١١]، ثم ختم كتابته بقوله جل وعلا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وأطال باء ﴿بِكُم﴾ كباء البسملة وضمّها، فقال الرائي له: أَقُرِئَ هكذا؟ قال: نعم! قراءة المقربين وعباد الله المخلصين.

ورِيءَ أنه يتلو قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] إلى قوله: ﴿ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

ورِيء أنه يقرئ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] إلى آخر السورة، و﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] إلى قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

من فقير ربه **محمد الشاذلي النيفر**

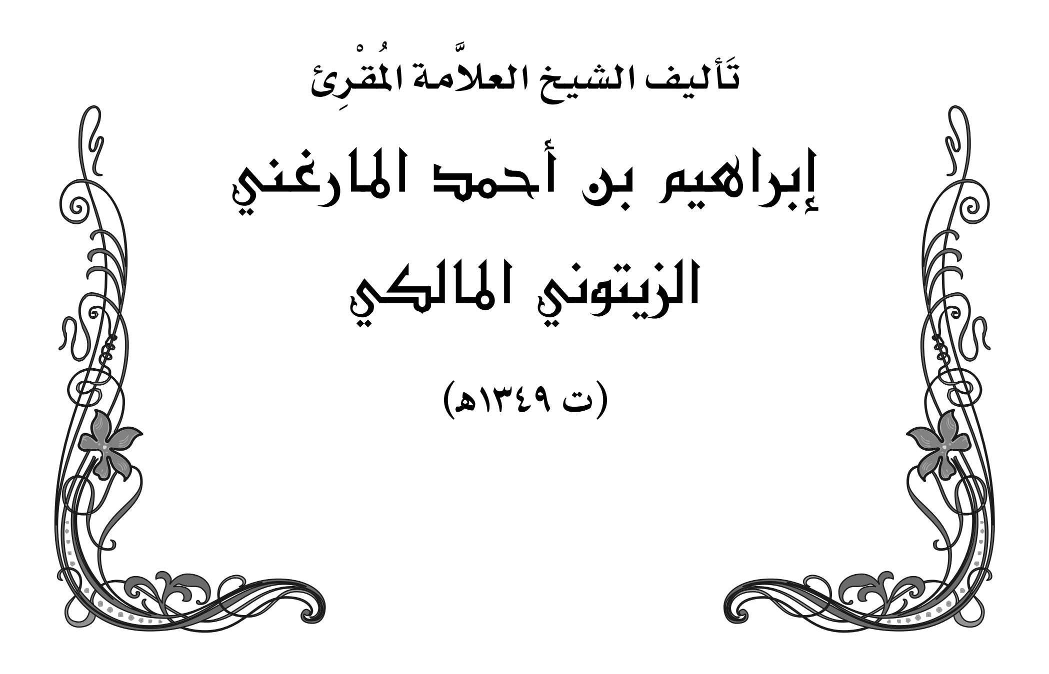
---

(١) السِّرِّيُّ: هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَصْنَعُ الأَشْيَاءَ سِرّاً.



طَالِعُ البُشْرَى

عَلَى العَقِيدَةِ الصُّغْرَى



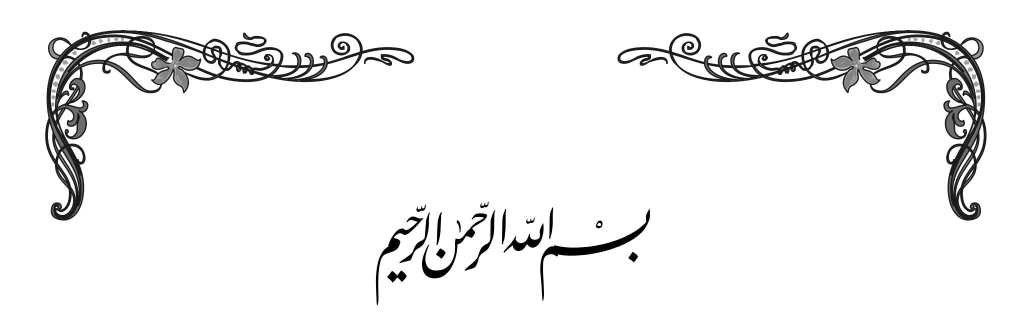
تَأليف الشيخ العلاَّمة المُقْرِئ

إبراهيم بن أحمد المارغني

الزيتوني المالكي

(ت ١٣٤٩هـ)





الحَمْدُ لِلَّهِ القَدِيمِ بِلَا بِدَايَةٍ، البَاقِي بِلَا نِهَايَةٍ، الغَنِيِّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، المُنَزَّهِ عَنِ الأَمْثَالِ وَالأَشْبَاهِ، الوَاحِدِ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالأَفْعَالِ، العَالِمِ بِكُلِّ وَاجِبٍ وَجَائِزٍ وَمُحَالٍ، المُرِيدِ لِجَمِيعِ الكَائِنَاتِ، القَادِرِ عَلَى جَمِيعِ المُمْكِنَاتِ، الحَيِّ المُحِيطِ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ بِكُلِّ مَوْجُودٍ، المُتَكَلِّمِ بِكَلَامٍ لَا يُشْبِهُ كَلَامَنَا المَعْهُودَ.

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَفْضَلِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ المُؤَيَّدِ بِالمُعْجِزَاتِ البَاهِرَاتِ وَسَوَاطِعِ البَرَاهِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَقُولُ الفَقِيرُ إِلَى رَبِّهِ الغَنِيِّ، عَبْدُهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَحْمَدَ المَارِغْنِيّ، سَدَّدَ اللَّهُ أَعْمَالَهُ، وَبَلَّغَهُ فِي الدَّارَيْنِ آمَالَهُ: إِنَّ أَهَمَّ مَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ اللَّبِيبُ وَيَجْتَهِدُ فِي تَحْصِيلِهِ كُلَّ الاجْتِهَادِ العِلْم الَّذِي يُنْجِيهِ ـ بِفَضْلِ اللَّهِ ـ مِنَ العَذَابِ المُرَتَّبِ عَلَى الكُفْرِ وَسُوءِ الاعْتِقَادِ، وَذَلِكَ هُوَ عِلْمُ عَقَائِدِ الإِيمَانِ الَّتِي قَالَ بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَقَامُوا عَلَيْهَا البَرَاهِينَ.

وَمِنْ أَجَلِّ وَأَنْفَعِ مَا صُنِّفَ فِيهِ العَقِيدَةُ السَّنُوسِيَّةُ الشَّهِيرَةُ بِـ«أُمِّ البَرَاهِين» وَبِـ«الصُّغْرَى» المُحْتَوِيَةُ مَعَ صِغَرِ جِرْمِهَا عَلَى زُبْدَةِ مَا فِي كُتُبِ التَّوْحِيدِ

الكُبْرَى، بَلْ قَدْ زَادَتْ عَلَيْهَا بِفَرَائِدِ فَوَائِدِهِ كَشَرْحِ كَلِمَتَيْ الإِسْلَامِ وَبَيَانِ أَنَّهُ يَنْدَرِجُ فِي مَعْنَاهُمَا جَمِيعُ العَقَائِدِ.

وَقَدْ شَرَحَهَا مُصَنِّفُهَا الإِمَامُ العَارِفُ بِاللَّهِ تَعَالَى سَيِّدِي مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ السَّنُوسِيُّ الحَسَنِيُّ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ تَآلِيفُهُ بِتَبَحُّرِهِ فِي العُلُومِ ـ سِيَّمَا فِي عِلْمِ التَّوْحِيدِ السُّنِّيِّ ـ شَرْحاً حَسَناً مُفِيداً وَنَافِعاً، وَلِغِطَاءِ مَا انْبَهَمَ مِنْهَا كَاشِفاً وَرَافِعاً، غَيْرَ أَنَّ فِيهِ مَبَاحِثَ لَا تَخْلُو مِنْ تَطْوِيلٍ وَتَعْقِيدٍ، كَمَبْحَثِ التَّقْلِيدِ فِي العَقَائِدِ وَمَبْحَثِ إِعْرَابِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، فَلِذَلِكَ اسْتَصْعَبَهُ كَثِيرٌ مِنَ الطَّلَبَةِ، وَرَغِبُوا فِي شَرْحٍ وَسَطٍ خَالٍ عَنِ التَّعْقِيدِ وَبَعْضُهُمْ مِنِّي طَلَبَهُ، فَأَجَبْتُهُ إِلَى مَطْلُوبِهِ وَبَادَرْتُ بِإِنْجَازِ مَرْغُوبِهِ، فَشَرَحْتُهَا شَرْحاً لَيْسَ بِالطَّوِيلِ المُمِلِّ وَلَا بِالمُخْتَصَرِ المُخِلِّ، مَمْزُوجاً بِهَا سَهْلَ العِبَارَاتِ، مُوَضِّحاً لِمَا خَفِيَ مِنْهَا وَمُشْتَمِلًا عَلَى تَنْبِيهَاتٍ، مُقْتَصِراً فِيهِ عَلَى عَقَائِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ، سِوَى مَوَاضِعَ قَلِيلَة اقْتَضَى فِيهَا الحَالُ التَّعَرُّضَ إِلَى بَيَانِ قَوْلِ مَنْ خَالَفَهُنَّه.

وَلَمَّا طَلَعَ فِي سَمَاءِ التَّآلِيفِ مُبَشِّراً لِطَالِبِيهِ بِتَمَامِهِ عَلَى نَحْوِ مَا رَغِبُوا فِيهِ، سَمَّيْتُهُ «**طَالِع البُشْرَى عَلَى العَقِيدَةِ الصُّغْرَى**» رَاجِياً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهُ مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ المَقْبُولِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِأَصْلِهِ فَإِنَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَكْرَمُ مَسْؤُولٍ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَنَفَعَنَا بِهِ: (**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، الحَمْدُ لِلَّهِ**) ابْتَدَأَ العَقِيدَةَ بِالبَسْمَلَةِ ثُمَّ بِالحَمْدَلَةِ اقْتِدَاءً بِالقُرْآنِ العَظِيمِ، وَعَمَلًا بِمَا اقْتَضَاهُ حَدِيثاهُمَا المَشْهُورَانِ مِنْ طَلَبِ الابْتِدَاءِ بِهِمَا فِي كُلِّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ، أَيْ صَاحِبِ

حَالٍ يُهْتَمُّ بِهِ شَرْعاً كَالتَّأْلِيفِ، وَإِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ حَدِيثَيْهِمَا لِأَنَّ الابْتِدَاءَ نَوْعَانِ؛ حَقِيقِيٌّ: وَهْوَ الابْتِدَاءُ بِمَا تَقَدَّمَ عَلَى المَقْصُودِ بِالذَّاتِ وَلَمْ يَسْبِقْهُ شَيْءٌ. وَإِضَافِيٌّ: وَهْوَ الابْتِدَاءُ بِمَا تَقَدَّمَ عَلَى المَقْصُودِ بِالذَّاتِ وَإِنْ سَبَقَهُ شَيْءٌ.

فَحَمَلَ الابْتِدَاءَ بِالبَسْمَلَةِ عَلَى الحَقِيقِيِّ، وَبِالحَمْدَلَةِ عَلَى الإِضَافِيِّ، وَلَمْ يَعْكِسْ لِمُوَافَقَةِ القُرْآنِ، وَلِأَنَّ حَدِيثَ البَسْمَلَةِ أَقْوَى مِنْ حَدِيثِ الحَمْدَلَةِ، وَلِلْاجْتِمَاعِ الفِعْلِيِّ فَإِنَّ العُلَمَاءَ أَجْمَعُوا عَلَى تَقْدِيمِ البَسْمَلَةِ.

وَالحَمْدُ: هُوَ الثَّنَاءُ بِالكَلَامِ لِأَجْلِ جَمِيلٍ اخْتِيَارِيٍّ عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ، سَوَاءٌ كَانَ فِي مُقَابَلَةِ نِعْمَةٍ أَمْ لَا.

وَمَعْنَى الثَّنَاء: الاتْيَانُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى اتِّصَافِ المَحْمُودِ بِالصِّفَةِ الجَمِيلَةِ، فَإِذَا أَكْرَمَكَ زَيْدٌ فَقُلْتَ: «زَيْدٌ كَرِيمٌ» فَقَدْ حَمِدْتَهُ لِأَنَّكَ أَثْنَيْتَ عَلَيْهِ بِالكَلَامِ الَّذِي هُوَ قَوْلُكَ: «زَيْدٌ كَرِيمٌ» لِأَجْلِ جَمِيلٍ اخْتِيَارِيٍّ وَهْوَ الإِكْرَامُ، وَقَصْدُكَ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ تَعْظِيمُهُ، لَا السُّخْرِيَةَ وَالاسْتِهْزَاءَ بِهِ.

وَهَذَا الثَّنَاءُ فِي مُقَابَلَةِ نِعْمَةٍ وَهْيَ الإِكْرَامُ، وَقَدْ يَكُونُ الثَّنَاءُ لَا فِي مُقَابَلَةِ نِعْمَةٍ كَمَا إِذَا رَأَيْتَ زَيْداً مُوَاظِباً عَلَى قِرَاءَةِ القُرْآنِ فَقُلْتَ: «زَيْدٌ رَجُلٌ صَالِحٌ».

وَقَيَّدْنَا الجَمِيلَ بِالاخْتِيَارِيِّ ـ وَهْوَ مَا كَانَ عَنِ اخْتِيَارٍ وَإِرَادَةٍ ـ لِيَخْرُجَ الجَمِيلُ الغَيْرُ الاخْتِيَارِيِّ، فَإِنَّ الثَّنَاءَ بِالكَلَامِ لِأَجْلِهِ يُسَمَّى مَدْحاً لَا حَمْداً، وَلِذَا يُقَالُ: «مَدَحْتُ زَيْداً عَلَى حُسْنِ وَجْهِهِ»، وَلَا يُقَالُ: حَمِدْتُهُ.

وَلَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الوَاسِطَةُ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْنَا

مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، ذَكَرَ المُصَنِّفُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَيْهِ إِثْرَ حَمْدِ اللَّهِ فَقَالَ: **(وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)** كَائِنَانِ **(عَلَى رَسُولِ اللَّهِ)** سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَإِنَّمَا لَمْ يُسَمِّهِ المُصَنِّفُ لِأَنَّ لَفْظَ «رَسُولِ اللَّهِ» غَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَ لَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا مَعَ ذِكْرِهِ أَوْ مَعَ قَرِينَةٍ.

وَمَعْنَى صَلَاةُ اللَّـهِ عَلَى رَسُولِهِ: رَحْمَتُهُ سُبْحَانَهُ المَقْرُونَةُ بِالتَّعْظِيمِ.

وَمَعْنَى سَلَامُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ: تَحِيَّتُهُ تَعَالَى اللَّائِقَةُ بِهِ ﷺ، كَمَا يُحَيِّي بَعْضُنَا بَعْضاً بِقَوْلِنَا: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.

أَقْسَامُ الحُكْمِ العَقْلِيِّ وَحُدُودُهَا

اِعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ المَقْصُودِ بِالذَّاتِ مِنْ هَذِهِ العَقِيدَةِ هُوَ قَوْلُ المُصَنِّفِ: «وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ» إِلَى آخِرِهِ، وَأَمَّا مَا قَبْلَهُ وَبَعْدَ الخُطْبَةِ فَهُوَ مُقَدِّمَةٌ[1]

(١) من المقدمات الضرورية في علم العقائد معرفة الأحكام العقلية وهي الوجوب والاستحالة والجواز لأن المقصود من هذا العلم إثبات ما يجب والتنزيه عما يستحيل ومعرفة ما يجوز في حق الله ﷻ وفي حق رسله عليهم الصلاة والسلام، والحكم بهذه الأمور فرع تصور حقائقها، فدعت الحاجة إلى تقديم الكلام في تعريف حقائقها. قال الإمام السنوسي: لا شك أن تصوّر هذه الأحكام الثلاثة ومعرفة حقائقها من مبادئ علم أصول الدين؛ إذ غرض الناظر فيه منحصر في هذه الثلاثة بأن يثبت شيئا أو ينفيه، أو يثبت ما يتفرع عن ذلك الشيء أو ينفيه، فمن لم يعرف حقائق هذه الأحكام الثلاثة لم يفهم ما أُثبِتَ منها في هذا العلم ولا ما نُفِي. وإدراك هذه الأحكام الثلاثة هو العقل الذي هو مبدأ النظر، فمن لم يدركها فليس بعاقل ولا يتأتى منه نظرٌ ولا استدلال صحيح أصلا، ومن فسّر العقل بأنه غريزة يتأتى بها إدراك المعقولات، فإدراك تلك الثلاثة لازم لهذه الغريزة وإلا لم يتأتَّ بها إدراك لمعقولٍ. (شرح العقيدة الوسطى، ص ٢٢)

ذَكَرَهَا قَبْلَ المَقْصُودِ بِالذَّاتِ لِارْتِبَاطٍ لَهُ بِهَا وَانْتِفَاعٍ بِهَا فِيهِ، فَقَالَ:

(اِعْلَمْ) أَيُّهَا النَّاظِرُ فِي هَذِهِ العَقِيدَةِ **(أَنَّ الحُكْمَ)** مُطْلَقاً هُوَ إِثْبَاتُ أَمْرٍ لِأَمْرٍ، أَوْ نَفْيُ أَمْرٍ عَنْ أَمْرٍ، فَالإِثْبَاتُ كَمَا فِي قَوْلِكَ: «زَيْدٌ قَائِمٌ»، وَ«القُدْرَةُ وَاجِبَةٌ لِلَّهِ»، وَالنَّفْيُ كَمَا فِي قَوْلِكَ: «زَيْدٌ لَيْسَ بِقَائِمٍ»، وَ«شَرِيكُ اللَّهِ تَعَالَى لَيْسَ بِمَوْجُودٍ».

وَيَنْقَسِمُ إِلَى عَقْلِيٍّ وَشَرْعِيٍّ وَعَادِيٍّ، فَالأَوَّلُ أَعْنِي الحُكْمَ **(العَقْلِيَّ)** هُوَ إِثْبَاتُ أَمْرٍ لِأَمْرٍ أَوْ نَفْيُ أَمْرٍ عَنْ أَمْرٍ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ عَلَى تَكَرُّرٍ وَلَا وَضْعِ وَاضِعٍ، أَيْ جَعْلِ جَاعِلٍ.

فَخَرَجَ بِقَوْلِنَا: «مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ عَلَى تَكَرُّرٍ» الحُكْمُ العَادِيُّ وَهْوَ الَّذِي عُرِفَ مِنَ العَادَةِ، فَإِنَّ الإِثْبَاتَ فِيهِ وَالنَّفْيَ إِنَّمَا عُرِفَا وَحُكِمَ بِهِمَا بِوَاسِطَةِ التَّكَرُّرِ وَالتَّجْرِبَةِ، كَقَوْلِنَا: «أَكْلُ هَذَا الطَّعَامِ يُسَخِّنُ البَدَنَ، وَأَكْلُ هَذَا الطَّعَامِ الآخِرِ يُبَرِّدُهُ».

وَخَرَجَ بِقَوْلِنَا: «وَلَا وَضْعِ وَاضِعٍ» الحُكْمُ الشَّرْعِيُّ وَهْوَ الَّذِي عُرِفَ مِنَ الشَّرْعِ، فَإِنَّ الإِثْبَاتَ فِيهِ وَالنَّفْيَ إِنَّمَا عُرِفَا وَحُكِمَ بِهِمَا بِوَاسِطَةِ وَضْعِ الشَّرْعِ لَهُمَا، كَقَوْلِنَا: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَاجِبَةٌ»، وَ«صَوْمُ عَاشُورَاءَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ».

فَمِثَالُ الإِثْبَاتِ فِي الحُكْمِ العَقْلِيِّ قَوْلُنَا: «كُلُّ مَوْجُودٍ إِمَّا قَدِيمٌ وَإِمَّا حَادِثٌ»، فَالحُكْمُ بِثُبُوتِ أَحَدِ الأَمْرَيْنِ لِكُلِّ مَوْجُودٍ يَعْرِفُهُ العَقْلُ بِلَا وَاسِطَةِ تَكَرُّرٍ وَتَجْرِبَةٍ وَلَا وَاسِطَةِ وَضْعِ الشَّرْعِ.

وَمِثَالُ النَّفْيِ فِي الحُكْمِ العَقْلِيِّ قَوْلُنَا: «كُلُّ مَوْجُودٍ لَا يَخْلُو عَنِ القِدَمِ وَالحُدُوثِ».

وَلَمْ يَذْكُرْ المُصَنِّفُ الحُكْمَ الشَّرْعِيَّ[1] وَلَا الحُكْمَ العَادِيَّ، بَلِ اقْتَصَرَ عَلَى الحُكْمِ العَقْلِيِّ لِأَنَّ الأَدِلَّةَ الَّتِي سَيَذْكُرُهَا لِلصِّفَاتِ غَالِبُهَا عَقْلِيٌّ.

وَإِذَا عَلِمْتَ الحُكْمَ العَقْلِيَّ فَاعْلَمْ أَنَّهُ (**يَنْحَصِرُ فِي ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ**:

* **الوُجُوبُ)**: وَهْوَ أَنْ لَا يَتَصَوَّرَ فِي العَقْلِ عَدَمُ الشَّيْءِ.

* **(وَالاسْتِحَالَةُ)**: وَهْيِ أَنْ لَا يَتَصَوَّرَ فِي العَقْلِ وُجُودُ الشَّيْءِ.

* **(وَالجَوَازُ)** وَيُرَادِفُهُ الإِمْكَانُ: وَهْوَ أَنْ يَصِحَّ فِي العَقْلِ وُجُودُ الشَّيْءِ وَعَدَمُهُ.

وَوَجْهُ الانْحِصَارِ فِي الثَّلَاثَةِ أَنَّ كُلَّ مَا يَحْكُمُ بِهِ العَقْلُ إِمَّا أَنْ يَقْبَلَ الثُّبُوتَ دُونَ الانْتِفَاءِ، وَإِمَّا أَنْ يَقْبَلَ الانْتِفَاءَ دُونَ الثُّبُوتِ، وَإِمَّا أَنْ يَقْبَلَهُمَا، الأَوَّلُ الوُجُوبُ، وَالثَّانِي الاسْتِحَالَةُ، وَالثَّالِثُ الجَوَازُ.

(فَالوَاجِبُ) العَقْلِيُّ: **(مَا)** أَيْ شَيْءٌ **(لَا يَتَصَوَّرُ في العَقْلِ عَدَمُهُ)** أَيْ انْتِفَاؤُهُ، كَذَاتِ اللَّـهِ تَعَالَى.

(وَالمُسْتَحِيلُ) العَقْلِيُّ: **(مَا)** أَيْ شَيْءٌ **(لاَ يَتَصَوَّرُ فِي العَقْلُ وُجُودُهُ)** أَيْ

---

(١) وهو كما عرّفه الإمام السنوسي: خطابُ الله تعالى المتعلّق بأفعال المكلَّفين بالطلب أو الإباحة أو الوضع لهما. ويدخل في الطلب: الإيجابُ، والندبُ، والتحريمُ، والكراهةُ، فالإيجاب: طلبُ الفعل طلباً جازماً كالإيمان بالله وبرسوله وكقواعد الإسلام، والندبُ: طلب الفعل طلبا غير جازم كصلاة الفجر ونحوها، والتحريمُ: طلب الكفِّ عن الفعل طلباً جازماً كشرب الخمر والزنى ونحوهما، والكراهةُ: طلبُ الكفِّ عن الفعل طلبا غير جازم كالقراءة في الركوع والسجود مثلا. (راجع تفصيل ذلك في شرح المقدمات، ص ٥٥ ـ ٦٠).

ثُبُوتُهُ، كَشَرِيكِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالأَظْهَرُ فَتْحُ اليَاءِ مِنْ «لَا يَتَصَوَّرُ» عَلَى بِنَائِهِ لِلْفَاعِلِ مِنْ «تَصَوَّرَ» اللَّازِمِ، يُقَالُ: تَصَوَّرَ الشَّيْءَ: أَمْكَنَ، فَمَعْنَى «لَا يَتَصَوَّرُ»: لَا يُمْكِنُ، وَأَمَّا ضَمُّ اليَاءِ عَلَى بِنَائِهِ لِلنَّائِبِ فَيُحْتَاجُ فِي تَصْحِيحِ المَعْنَى عَلَيْهِ إِلَى تَكَلُّفٍ[1].

وَيَنْقَسِمُ كُلٌّ مِنَ الوَاجِبِ وَالمُسْتَحِيلِ إِلَى ضَرُورِيٍّ[2] وَنَظَرِيٍّ:

* فَالوَاجِبُ الضَّرُورِيُّ: مَا يُدْرَكُ بِلَا تَأَمُّلٍ، كَكَوْنِ الوَاحِدِ نِصْفَ الاثْنَيْنِ.

* وَالوَاجِبُ النَّظَرِيُّ: مَا لَا يُدْرَكُ إِلَّا بَعْدَ التَّأَمُّلِ، كَكَوْنِ الوَاحِدِ نِصْفَ سُدُسِ الاثْنَيْ عَشَرَ.

* وَالمُسْتَحِيلُ الضَّرُورِيُّ، كَكَوْنِ الوَاحِدِ نِصْفَ الأَرْبَعَةِ، فَإِنَّ اسْتِحَالَتَهُ ضَرُورِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ.

* وَالمُسْتَحِيلُ النَّظَرِيُّ[1]، كَكَوْنِ الوَاحِدِ سُدُسَ الاثْنَيْ عَشَرَ، فَإِنَّ

---

(١) بعض العلماء رجح أنها «لا يُتَصَوَّرُ» بالبناء للغائب، بمعنى: لا يُتعقَّل. أي: لا يقبله العقل ولا يقع التصديق به. قال الشيخ العلامة يحيى الشاوي في حاشيته على شرح الإمام السنوسي على صغراه: «المعنيُّ أن الواجبَ هو الذي لا يَصِلُ العقلُ بدليله التام الناشئ عن النظر الصحيح إلى التصوّر لعدمه، أي التصديق بعدمه وعدم الحكم برفعه، فالمعنيُّ أنه لا يرتفع».

(٢) المُرَادُ بِالحُكْمِ الضَّرُورِيِّ: هُوَ مَا تَجزِمُ النَّفْسُ بِهِ جَزْماً مُطَابِقاً بِلَا تَأَمُّلٍ، بِحَيْثُ لَوْ حَاوَلَتْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا ذَلِكَ الجَزْمَ بِتَشْكِيكِ مُشَكِّكٍ وَنَحْوِهِ لَمْ تَقْدِرْ. وَيُقَابِلُهُ الحُكْمُ النَّظَرِيُّ: وَهْوَ مَا تَجْزِمُ النَّفْسُ بِهِ بَعْدَ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ.

اسْتِحَالَتَهُ تَحْتَاجُ إِلَى تَأَمُّلٍ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الحِسَابَ.

(وَالجَائِزُ) العَقْلِيُّ وَيُرَادِفُهُ المُمْكِنُ: **(مَا)** أَيْ شَيْءٌ **(يَصِحُّ فِي العَقْلِ وُجُودُهُ)** تَارَةً **(وَعَدَمُهُ)** تَارَةً أُخْرَى[٢]، وَيَنْقَسِمُ إِلَى الضَّرُورِيِّ وَالنَّظَرِيِّ:

ـ **فَالأَوَّلُ**: كَاتِّصَافِ الجِرْمِ بِخُصُوصِ الحَرَكَةِ، فَإِنَّ العَقْلَ يُدْرِكُ ابْتِدَاءً صِحَّةَ وُجُودِهَا لِلْجِرْمِ وَصِحَّةَ عَدَمِهَا لَهُ، وَمِثْلُهَا السُّكُونُ.

ـ **وَالثَّانِي**: كَتَعْذِيبِ اللَّهِ لِلْمُطِيعِ وَإِثَابَتِهِ لِلْعَاصِي، فَإِنَّ العَقْلَ لَا يُدْرِكُ جَوَازَهُمَا ابْتِدَاءً، بَلْ بَعْدَ أَنْ يَنْظُرَ فِي دَلِيلِ الوَحْدَانِيَّةِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَعْرِفَ أَنَّ الأَفْعَالَ كُلَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، لَا تَأْثِيرَ لِغَيْرِهِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ اسْتِوَاءُ الطَّاعَةِ وَالمَعْصِيَةِ عَقْلًا فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَصْلُحُ أَنْ يَجْعَلَهُ اللَّهُ

---

(١) وَمِثَالُ المُسْتَحِيلِ النَّظَرِيِّ كَوْنُ الذَّاتِ العَلِيَّةِ جِرْماً تَأْخُذُ قَدْراً مِنَ الفَرَاغِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً، فَإِنَّ اسْتِحَالَةَ هَذَا المَعْنَى عَلَيْهِ جَلَّ وَعَزَّ إِنَّمَا يُدْرِكُهُ العَقْلُ بَعْدَ أَنْ يَسْبِقَ لَهُ النَّظَرُ فِيمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ المُسْتَحِيلِ وَهْوَ الجَمْعُ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ وَجَبَ لِلَّهِ تَعَالَى القِدَمُ وَالبَقَاءُ لِئَلَّا يَلْزَمَ الدَّوْرُ أَوِ التَّسَلْسُلُ لَوْ كَانَ حَادِثاً، فَلَوْ كَانَ جِرْماً لَوَجَبَ لَهُ الحُدُوثُ لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ وُجُوبِ الحُدُوثِ لِكُلِّ جِرْمٍ، فَلَزِمَ إِذَنْ لَوْ كَانَ تَعَالَى جِرْماً أَنْ يَكُونَ وَاجِبَ القِدَمِ لِأُلُوهِيَّتِهِ، وَاجِبَ الحُدُوثِ لِجِرْمِيَّتِهِ، وَذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ لَا مَحَالَةَ، وَهْوَ مُسْتَحِيلٌ. (الدر الثمين لميارة، ج١/ص ١٦)

(٢) وَعَرَّفَ الإِمَامُ السَّنُوسِيُّ الجَائِزَ العَقْلِيَّ بِأَنَّهُ: مَا لَا يَتَرَتَّبُ عَلَى تَقْدِيرِ وُجُودِهِ وَلَا عَلَى تَقْدِيرِ عَدَمِهِ مُحَالٌ لِذَاتِهِ، وَقَسَّمَهُ إِلَى جَائِزٍ مَقْطُوعٍ بِوُجُودِهِ كَالبَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ، وجائز مقطوع بعدمه كدخول الكافر الجنة، وقال: «دخول الكافر الجنة إن نظرنا إلى حقيقته في نفسه لم يلزم من وجوده ولا عدمه محال، ولو نظرنا إلى ما عرض له من إخبار الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام بأنه لا يكون له دخول الجنة أبداً لترتب حينئذ على تقدير وجوده محال وهو كذب من لا يجوز عليه الكذب عقلا». (شرح المقدمات، ص ٧٨، ٧٨)



عَلامَةً عَلَى مَا جُعِلَ الآخَرُ عَلامَةً عَلَيْهِ، فَلَوْ جَعَلَ سُبْحَانَهُ المَعْصِيَةَ عَلامَةً عَلَى دُخُولِ الجَنَّةِ وَالطَّاعَةَ عَلامَةً عَلَى دُخُولِ النَّارِ مَا كَانَ لِأَحَدٍ طَرِيقٌ لِلْاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ ظُلْمٌ لِأَنَّ الظُّلْمَ هُوَ التَّصَرُّفُ فِي مِلْكِ الغَيْرِ بِدُونِ إِذْنِهِ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ المَالِكُ المُطْلَقُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مِلْكٌ لَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ.

لَكِنَّ تَعْذِيبَ اللَّهِ لِلْمُطِيعِ وَإِنْ جَازَ عَقْلًا هُوَ مُسْتَحِيلٌ شَرْعاً، وَكَذَا إِثَابَتُهُ لِلْعَاصِي إِنْ كَانَ عَاصِياً بِالكُفْرِ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ عَاصِياً بِغَيْرِ الكُفْرِ فَإِثَابَتُهُ جَائِزَةٌ شَرْعاً كَمَا هِيَ جَائِزَةٌ عَقْلًا.

** ** **





مُقَدّمَة

أَذْكُرُ فِيهَا تَعْرِيفَ عِلْمِ العَقَائِدِ المُسَمَّى بِعِلْمِ أُصُولِ الدِّينِ، وَعِلْمِ التَّوْحِيدِ، وَعِلْمِ الكَلَامِ، وَمَوْضُوعَهُ، وَفَائِدَتَهُ لِيَكُونَ الشَّارِعُ فِيهَا عَلَى بَصِيرَةٍ.

فَتَعْرِيفُهُ: عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ العَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ المُكْتَسَبَةِ مِنَ الأَدِلَّةِ اليَقِينِيَّةِ.

وَالمُرَادُ بِالعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ العَقَائِدُ المَنْسُوبَةُ إِلَى دِينِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَحْوُ: العَالَمُ حَادِثٌ(١)، وَخَالِقُهُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهُ وَاحِدٌ، وَاللَّهُ يَرَاهُ المُؤْمِنُونَ فِي الآخِرَةِ.

وَمَوْضُوعُهُ أَيْ الأَمْرُ الَّذِي يُتَحَدَّثُ عَنْهُ فِيهِ هُوَ ذَاتُ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ، وَذَاتُ الرُّسُلِ، وَالمُمْكِنُ، أَيْ الجَائِزُ مِنْ حَيْثُ يَتَعَلَّقُ بِكُلٍّ مِنْهَا إِثْبَاتُ العَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ(٢).

---

(١) الحادِثُ: هو الموجود بعد العدم. وحدوث العالَم أصلٌ عظيم من المسائل العقدية التي جاء بها الإسلام، بل هو في الحقيقة أصل لها كلها لأنه يُتوصَّل به إلى إثبات العلم بوجوب وجود الله تعالى وصفاته الأزلية وإثبات النبوات وبقية العقائد، ولشرف هذا الأصل اعتنى به العلماء بإفراده بالتأليف، وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذا الأصل بقوله: «**كان الله ولم يكن شيء غيرُه**». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ويروى أيضا: «كان الله ولم يكن شيء معه»، وكلاهما صريح في حدوث العالَم.

(٢) ويجمع كل ذلك في بيان موضوع علم العقائد قول العلامة التفتازاني بأنه المعلوم من حيث يتعلق به إثباتُ العقائد الدينية؛ فإنه يُبحَث فيه عن شؤون الصانع عَزَّ وَجَلَّ من القِدَم=



وَفَائِدَتُهُ: أَنْ تَصِيرَ العَقَائِدُ الدِّينِيَّةُ مُتَيَقَّنَةً لَا تُزَلْزِلُهَا شُبَهُ المُبْطِلِينَ، فَيَنْجُوَ المُكَلَّفُ فِي الآخِرَةِ ـ بِفَضْلِ اللَّهِ ـ مِنَ العَذَابِ المُتَرَتِّبِ عَلَى الكُفْرِ وَسُوءِ الاعْتِقَادِ.

❁❁ ❁❁ ❁❁

= والوحدة والقدرة والإرادة وغيرها، وأحوال الجسم والعرَض من الحدوث والافتقار والتركب من الأجزاء وقبول الفناء، ونحو ذلك مما هو عقيدة إسلامية أو وسيلة إليها. (راجع شرح المقاصد ج١/ص١٠)



وُجُوبُ مَعْرِفَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

لَمَّا فَرَغَ المُؤَلِّفُ مِنَ المُقَدِّمَةِ شَرَعَ فِي المَقْصُودِ بِالذَّاتِ فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ)** مِنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ، وَأَمَّا المَلَائِكَةُ فَلَيْسُوا بِمُكَلَّفِينَ لِأَنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ إِرْسَالَ تَشْرِيفٍ، لَا إِرْسَالَ تَكْلِيفٍ عَلَى الرَّاجِحِ.

وَالمُكَلَّفُ مِنَ الإِنْسِ: هُوَ البَالِغُ العَاقِلُ، ذَكَراً كَانَ أَوْ أُنْثَى، حُرّاً كَانَ أَوْ عَبْداً، وَأَمَّا الجِنُّ فَمُكَلَّفُونَ مِنْ حَيْثُ خِلْقَتُهُمْ.

وَقَوْلُهُ: **(شَرْعًا)** مُرْتَبِطٌ بِقَوْلِهِ «وَيَجِبُ»، لَا بِقَوْلِهِ: «مُكَلَّفٍ»، وَالمَعْنَى: وَيَجِبُ بِالشَّرْعِ لَا بِالعَقْلِ عَلَى مُكَلَّفٍ **(أَنْ يَعْرِفَ مَا يَجِبُ)** مِنَ الصِّفَاتِ **(فِي حَقِّ مَوْلَانَا)** «فِي» بِمَعْنَى اللَّامِ، وَ«حَقِّ» بِمَعْنَى الذَّاتِ، أَيْ: لِذَاتٍ هِيَ مَوْلَانَا **(جَلَّ)** أَيْ تَنَزَّهَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، **(وَعَزَّ)** أَيْ اتَّصَفَ بِمَا يَلِيقُ بِهِ، **(وَ)** أَنْ يَعْرِفَ **(مَا يَسْتَحِيلُ)** فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ، **(وَ)** أَنْ يَعْرِفَ **(مَا يَجُوزُ)** فِي حَقِّهِ جَلَّ وَعَلَا.

(وَكَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي حَقِّ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) أَيْ: وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَعْرِفَ فِي حَقِّ الرُّسُلِ مِثْلَ ذَلِكَ



المَذْكُورِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى مِنَ الوَاجِبِ وَالمُسْتَحِيلِ وَالجَائِزِ، وُجُوباً مِثْلَ الوُجُوبِ السَّابِقِ فِي كَوْنِهِ بِالشَّرْعِ لَا بِالعَقْلِ.

وَإِنَّمَا قَالَ المُصَنِّفُ «يَعْرِفَ» وَلَمْ يَقُلْ «يَجْزِمَ» إِشَارَةً إِلَى أَنَّ المَطْلُوبَ فِي عَقَائِدِ الإِيمَانِ المَعْرِفَةُ وَهِيَ الجَزْمُ المُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ عَنْ دَلِيلٍ[1].

فَخَرَجَ عَنِ الجَزْمِ الظَّنُّ وَهْوَ الاحْتِمَالُ الرَّاجِحُ، وَالشَّكُّ وُهْوَ الاحْتِمَالُ المُسَاوِي، وَالوَهْمُ وَهْوَ الاحْتِمَالُ المَرْجُوحُ، فَلَا يَكْفِي وَاحِدٌ مِنْهَا فِي العَقَائِدِ بِالإِجْمَاعِ.

وَخَرَجَ بِـ«المُطَابِق لِلْوَاقِعِ» الجَزْمُ الغَيْرُ المُطَابِقِ لَهُ، وَيُسَمَّى الاعْتِقَاد

(١) ومن أدلة وجوب معرفة الله ﷻ من القرآن قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤]، وقوله: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٠] فأمر تعالى بالعلم، لا بالتقليد بلا دليل، وقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وهذا وإن كان ظاهره الخصوص فمعناه العموم، وهو كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء: ٧٨]، ومن الأدلة أيضا قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩] فاقتضت الآية أن كل ما عدى العلم هو من قبيل العمى، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] وحسبك هذا الوعيد دليلا على إيجاب العلم، وقوله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرة معرفة الحق بدليله، فمن لم يكن على بصيرة في عقيدته لم يكن متبعاً للنبي ﷺ. وأما الأدلة من السُّنة فكثيرة أيضا، فمنها قوله ﷺ: «من رأيته وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه بشِّره بالجنة»، فاشترط اليقين، وهو بمعنى العلم. وقوله ﷺ: «لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»، فشرط عدم الشك، وهو إشارة إلى حصول العلم واليقين. وقوله ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة» فشرط العلمَ.

الفَاسِد، كَاعْتِقَادِ قِدَمِ العَالَمِ، أَوْ تَعَدُّدِ الإِلَهِ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جِسْمٌ، وَصَاحِبُ هَذَا الاعْتِقَادِ مُجْمَعٌ عَلَى كُفْرِهِ.

وَخَرَجَ بِقَوْلِنَا: «عَنْ دَلِيلٍ» التَّقْلِيدُ، وَهْوَ الجَزْمُ بِالعَقَائِدِ المُطَابِقُ النَّاشِئُ عَنِ اتِّبَاعِ قَوْلِ الغَيْرِ مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَى دَلِيلٍ، وَيُسَمَّى صَاحِبُهُ مُقَلِّداً.

وَاخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي إِيمَانِهِ، وَالمُعْتَمَدُ أَنَّهُ إِنْ كَانَتْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى النَّظَرِ المُوصِلِ إِلَى المَعْرِفَةِ كَانَ مُؤْمِناً عَاصِياً فَقَطْ، وَإِيمَانُهُ مُنْجٍ لَهُ مِنَ الخُلُودِ فِي النَّارِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى النَّظَرِ كَانَ مُؤْمِناً غَيْرَ عَاصٍ. وَقِيلَ: إِنَّ المُقَلِّدَ غَيْرُ عَاصٍ مُطْلَقاً، وَقِيلَ: إِنَّهُ كَافِرٌ مُطْلَقاً[1].

تَنْبِيهٌ

النَّظَرُ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ المُكَلَّفُ عَنِ التَّقْلِيدِ إِلَى المَعْرِفَةِ هُوَ النَّظَرُ عَلَى طَرِيقِ العَامَّةِ، وَهْوَ النَّظَرُ الإِجْمَالِيُّ، كَمَا أَجَابَ بِهِ الأَعْرَابِيُّ الَّذِي سَأَلَهُ الأَصْمَعِيُّ بِقَوْلِهِ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «البَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى البَعِيرِ، وَآثَارُ الأَقْدَامِ تَدُلُّ عَلَى المَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبُحُورٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ، أَلَا تَدُلُّ عَلَى اللَّطِيفِ الخَبِيرِ؟!».

وَلَا يُشْتَرَطُ النَّظَرُ عَلَى طَرِيقِ المُتَكَلِّمِينَ وَهْوَ النَّظَرُ التَّفْصِيلِيُّ بِتَحْرِيرِ

(١) لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بِكُفْرِ المُقَلِّدِ تَقْلِيداً صَحِيحاً، وَإِنَّمَا قَالَ بِهِ بَعْضُ المُعْتَزِلَةِ، وَقَدْ نَقَلَ السَّيْفُ الآمِدِيُّ عن أَبِي هَاشِمِ الجُبَّائِيِّ المُعْتَزِلِيِّ قَولَهُ: «مَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ تَعَالَى بِالدَّلِيلِ فَهْوَ كَافِرٌ»، ثُمَّ ردّه بِقَوْلِهِ: «وَأَصْحَابُنَا مُجمِعُونَ عَلَى خِلَافِهِ». (أبكار الأفكار في أصول الدين ج١/ص١٦٣ ـ ١٦٤).

الأَدِلَّةِ وَتَرْتِيبِهَا وَدَفْعِ الشُّبَهِ الوَارِدَةِ عَلَيْهَا[(١)].

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّظَرَ وَسِيلَةٌ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّـهِ وَرُسُلِهِ بِالصِّفَاتِ الَّتِي نَصَبَ عَلَيْهَا الآيَاتِ، وَالمَعْرِفَةُ وَسِيلَةٌ إِلَى الإِيمَانِ الشَّرْعِيِّ[(٢)] وَهْوَ التَّصْدِيقُ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا عُلِمَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ.

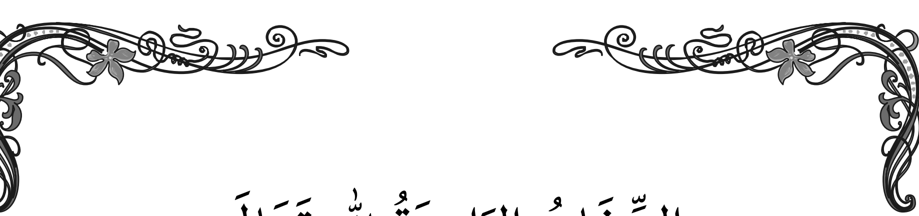
وَالمُرَادُ بِالتَّصْدِيقِ بِذَلِكَ الامْتِثَالُ البَاطِنِيُّ، وَهْوَ إِذْعَانُ النَّفْسِ وَقَبُولُهَا وَقَوْلُهَا: آمَنْتُ بِذَلِكَ وَرَضِيتُهُ، المُعَبَّرُ عَنْهُ بِحَدِيثِ النَّفْسِ، وَاللَّهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) سُئِلَ الإِمَامُ السَّنُوسِيُّ هَلْ يُشْتَرَطُ فِي الإِيمَانِ أَنْ يَعْرِفَ المُكَلَّفُ مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي ذُكِرَ فِي العَقِيدَةِ الصُّغْرَى أَمْ لَا؟ فَأَجَابَ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُشْتَرَطُ إِلَّا فِي كَمَالِ الإِيمَانِ، وَإِنَّمَا يُشْتَرَطُ فِي صِحَّةِ الإِيمَانِ مَعْرِفَةُ المَعْنَى عَلَى الإِجْمَالِ عَلَى وَجْهٍ يَتَضَمَّنُ التَّفْصِيلَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الغَالِبَ عَلَى المُؤْمِنِينَ عَامَّتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ، إِذْ كُلُّ أَحَدٍ يَعْرِفُ أَنَّ الإِلَهَ هُوَ الخَالِقُ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، وَالرَّازِقُ وَلَيْسَ بِمَرْزُوقٍ، وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى غِنَاهُ جَلَّ وَعَزَّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَافْتِقَارُ كُلِّ مَا سِوَاهُ إِلَيْهِ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّ الإِلَهَ لَا يُصَلَّى إِلَّا لَهُ، وَلَا يُصَامُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُحَجُّ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُعْبَدُ سِوَاهُ، وَيَعْرِفُونَ افْتِقَارَ كُلِّ مَا سِوَاهُ إِلَيْهِ، وَهْوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: إِنَّ الإِلَهَ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَلَا يَسْتَحِقُّهَا سِوَاهُ. (الدر الثمين والمورد المعين على الضرورة من علوم الدين لميارة، ج١/ص ٥٥)

(٢) قال العَلَّامَةُ المَارِغْنِيُّ في تعريف الإِيمَان الشَّرْعِيّ: «هُوَ تَصْدِيقُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالقَلْبِ فِي كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ وَعُلِمَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، أَيْ: اشْتَهَرَ بَيْنَ أَهْلِ الإِسْلَامِ حَتَّى صَارَ العِلْمُ بِهِ يُشَابِهُ العِلْمَ الحَاصِلَ بِالضَّرُورَةِ، كَوَحْدَةِ الصَّانِعِ جَلَّ وَعَزَّ، وَوُجُوبِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ. وَالمُرَادُ بِتَصْدِيقِهِ فِي ذَلِكَ: الانْقِيَادُ البَاطِنِيُّ لَهُ، وَهُوَ إِذْعَانُ النَّفْسِ ـ أَيْ قَبُولُهَا وَقَوْلُهَا: آمَنْتُ بِذَلِكَ وَرَضِيتُ بِهِ المُعَبَّرُ عَنْهُ بِحَدِيثِ النَّفْسِ. وَلَيْسَ المُرَادُ بِتَصْدِيقِهِ فِي ذَلِكَ مُجَرَّدَ وُقُوعِ نِسْبَةِ الصِّدْقِ إِلَيْهِ فِي القَلْبِ مِنْ غَيْرِ إِذْعَانٍ بَاطِنِيٍّ لَهُ حَتَّى يَلْزَمَ الحُكْمُ بِإِيمَانِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْرِفُونَ صِدْقَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْقَادُوا لِذَلِكَ وَلَمْ يُذْعِنُوا لَهُ، بَلْ تَكَبَّرُوا وَعَانَدُوا، فَهُمْ كُفَّارٌ قَطْعاً». (بغية المريد في شرح جوهرة التوحيد، ص ١٦)





الصِّفَاتُ الوَاجِبَةُ للهِ تَعَالَى وَمِنْهَا النَّفْسِيَّةُ وَالسَّلْبِيَّةُ

ثُمَّ شَرَعَ المُصَنِّفُ فِي بَيَانِ مَا يَجِبُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَهْوَ القِسْمُ الأَوَّلُ مِمَّا يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهُ، فَقَالَ: **(فَمِمَّا يَجِبُ لِمَوْلَانَا جَلَّ وعَزَّ)** «مِنْ» فِي قَوْلِهِ هُنَا «فَمِمَّا» وَفِي قَوْلِهِ الآتِي «وَمِمَّا يَسْتَحِيلُ» تَبْعِيضِيَّةٌ.

وَإِنَّمَا أَتَى بِهَا إِشَارَةً إِلَى عَدَمِ انْحِصَارِ مَا يَجِبُ لِلَّهِ فِيمَا ذَكَرَهُ مِنَ العِشْرِينَ صِفَة، وَعَدَمِ انْحِصَارِ مَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى فِيمَا ذَكَرَهُ مِنْ أَضْدَادِهَا لِأَنَّ كَمَالَاتِهِ تَعَالَى لَا تَتَنَاهَى فَكَذَا أَضْدَادُهَا، لَكِنَّ مَا قَامَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ أَوْ نَقْلِيٌّ مِنَ الكَمَالَاتِ ـ وَهْوَ العِشْرُونَ صِفَة الآتِيَةُ ـ كُلِّفْنَا بِمَعْرِفَتِهِ وَمَعْرِفَةِ أَضْدَادِهِ تَفْصِيلًا، وَمَا لَمْ يَقُمْ عَلَيْهِ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ وَلَا نَقْلِيٌّ لَمْ نُكَلَّفْ بِمَعْرِفَتِهِ وَلَا بِمَعْرِفَةِ أَضْدَادِهِ تَفْصِيلًا، بَلْ إِجْمَالًا لِعَدَمِ مَا يَدُلُّ عَلَى تَعْيِينِهِ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدُ أَنَّ لِلَّهِ كَمَالَاتٍ لَا تَتَنَاهَى، وَأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَضْدَادُهَا.

وَإِنَّمَا لَمْ يَأْتِ المُصَنِّفُ بِـ«مِنْ» التَّبْعِيضِيَّةِ فِي قَوْلِهِ الآتِي: «وَأَمَّا الجَائِزُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى» إِشَارَةً إِلَى انْحِصَارِ الجَائِزِ فِيمَا سَيَذْكُرُهُ.

وَقَوْلُهُ: «فَمِمَّا يَجِبُ» خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، وَالمُبْتَدَأُ هُوَ قَوْلُهُ: **(عِشْرُونَ صِفَةً)**



وَاحِدَةٌ نَفْسِيَّةٌ، وَخَمْسٌ سَلْبِيَّةٌ، وَسَبْعٌ مَعَانٍ، وَسَبْعٌ مَعْنَوِيَّةٌ.

فَالصِّفَةُ الأُولَى مِنَ العِشْرِينَ الوَاجِبَةِ لِمَوْلَانَا جَلَّ ذِكْرُهُ: الوُجُودُ، وَقَدْ ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ: **(وَهْيَ)** أَيْ العِشْرُونَ صِفَةً **(الوُجُودُ)** وَمَا سَيُذْكَرُ بَعْدَهُ.

وَمَعْنَى الوُجُود[1]: الحُصُولُ وَالثُّبُوتُ فِي الخَارِجِ بِحَيْثُ يَصِحُّ أَنْ يُرَى المُتَّصِفُ بِهِ، بِضَمِّ اليَاءِ مِنْ يَرَى. وَيُقَابِلُ الوُجُودَ العَدَمُ، وَالمُتَّصِفُ بِالوُجُودِ يُقَالُ لَهُ مَوْجُودٌ، وَيُقَابِلُهُ المَعْدُومُ.

وَوُجُودُ اللَّهِ ﷻ لَيْسَ كَوُجُودِ الحَوَادِثِ لِأَنَّ وُجُودَ اللَّهِ ذَاتِيٌّ لَهُ، أَيْ لَيْسَ بِتَأْثِيرِ مُؤَثِّرٍ وَفِعْلِ فَاعِلٍ، وَوُجُودُ الحَوَادِثِ بِتَأْثِيرِ اللَّهِ وَفِعْلِهِ لِأَنَّهُ تَعَالَى كَانَ وَحْدَهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ كَمَا وَرَدَ فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ[2]، ثُمَّ أَوْجَدَ - جَلَّ جَلَالُهُ - الحَوَادِثَ، فَوُجُودُهَا غَيْرُ ذَاتِيٍّ لَهَا، بَلْ هُوَ طَارِئٌ عَلَيْهَا وَعَارِضٌ لَهَا، وَلِكَوْنِ وُجُودِهِ تَعَالَى ذَاتِيّاً لَمْ يَقْبَلْ سُبْحَانَهُ العَدَمَ فِي الأَزَلِ وَلَا يَقْبَلُهُ فِي الأَبَدِ.

---

(١) تصور حقيقة الوجود بديهي عند أكثر العلماء، وقد يقال بترادف مع الثبوت والتحقق، ويقال في تعريفه على جهة البيان: هو ما تكون به الذات ثابتة ومتحققة في حد ذاتها، أي أن وجودها ليس باعتبار معتبر ولا بفرضِ فارض، بل لو قطع النظر عن كل فرضٍ واعتبارٍ كانت موجودة في نفس الأمر، أي في الخارج عن الذهن.

(٢) لفظ الحديث كما أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]: «**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ**». قال الحافظ ابن حجر: فيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره تعالى، لا الماء ولا العرش ولا غيرهما لأن كل ذلك غير الله تعالى. (فتح الباري ج٦/ص ٣٣٣) وقال الإمام أبو القاسم الأنصاري تلميذ إمام الحرمين بعد إيراد هذا الحديث الجليل: «فيما قاله رسول الله ﷺ إثباتُ حدَثِ العالَم، والعلم بوجود الإله بلا جهة ولا غيرٍ ولا فلَكٍ ولا نفسٍ. وفيه أيضا إثبات الصفات الأزلية التي لا يَصلح الخلق دونها. (الغنية في الكلام، ج١/٢٤٥)

وَالأَزَلُ: هُوَ اسْتِمْرَارُ الوُجُودِ فِي أَزْمِنَةٍ مُقَدَّرَةٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ فِي جَانِبِ المَاضِي، وَيُقَابِلُهُ الأَبَدُ وَهْوَ اسْتِمْرَارُ الوُجُودِ فِي أَزْمِنَةٍ مُقَدَّرَةٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ فِي جَانِبِ المُسْتَقْبَلِ، وَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِـ«مَا لَا يَزَالُ»[١].

(وَ) الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ العِشْرِينَ الوَاجِبَةِ لِمَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ: **(القِدَمُ)** وَهْوَ عَدَمُ الأَوَّلِيَّةِ لِلْوُجُودِ[٢]، فَمَعْنَى: اللَّهُ قَدِيمٌ: اللَّهُ لَا أَوَّلَ لِوُجُودِهِ، أَيْ لَيْسَ لِوُجُودِهِ ابْتِدَاءٌ، فَهْوَ سُبْحَانَهُ مَوْجُودٌ لَمْ يَسْبِقِ العَدَمُ وُجُودَهُ.

وَمَا تَقَدَّمَ هُوَ مَعْنَى القِدَمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ذَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَمَّا مَعْنَاهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الحَادِثِ فَهْوَ طُولُ المُدَّةِ، وَمِنْهُ قَوْلُنَا: هَذَا بِنَاءٌ قَدِيمٌ، وَهَذَا ثَوْبٌ قَدِيمٌ.

(وَ) الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ مِنَ العِشْرِينَ الوَاجِبَةِ لِمَوْلَانَا ﷻ: **(البَقَاءُ)** وَهْوَ عَدَمُ الآخِرِيَّةِ لِلْوُجُودِ، فَمَعْنَى اللَّهُ بَاقٍ: اللَّهُ لَا آخِرَ لِوُجُودِهِ، أَيْ لَيْسَ لِوُجُودِهِ

---

(١) هذان التعريفان لـ«الأزل» ولـ«ما لا يزال» ذكرهما الشريف الجرجاني في تعريفاته (ص ٧٤) وأحسن من ذلك أن يقال في تفسير «الأزل»: هو نَفْيُ الأوَّلية. و«ما لا يزال»: هو ما له أوّل، وهو ضد الأزل. (راجع كتاب الوسيلة للإمام العقباني، ص ٣٩)

(٢) حقيقة القِدَمِ الواجب لله ﷻ هو نَفْيُ العدم السابق على الوجود، أو كما قال الإمام السنوسي في شرح مقدماته: هو عبارة عن سَلْبِ العدَمِ في الأزل. (شرح المقدمات، ص ١٣٧) وليس هو صفة موجودةً كالقدرة، بل هو صفة سلبية بمعنى أنها سلبت عن ذات الله ﷻ وصفاته أمورا لا تليق به مثل العدم السابق على الوجود، وسلبت عنه افتتاح الوجود، وسلبت عنه أولية للوجود. وليس قِدَمُه تعالى مسبوقًا بزمان؛ لأنّ الزمان حادثٌ، وقد كانَ اللهُ ولا شيء غيرُه كما قال ﷺ، وقال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ**﴾ [الحديد: ٣]، فأوّليته لم يَسْبِقها عدَمٌ، وكذلك آخريته لا انقضاء لها، وهذا معنى البقاء الآتي ذكره.



انْقِضَاءٌ وَانْتِهَاءٌ[1].

فَهُوَ تَبَارَكَ مَوْجُودٌ لَا يَلْحَقُ العَدَمُ وُجُودَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [الحديد: ٣] أَيْ اللَّـهُ سُبْحَانَهُ الأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِلَا بِدَايَةٍ، وَالآخِرُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ بِلَا نِهَايَةٍ، فَالأَوَّلُ فِي الآيَةِ يَدُلُّ عَلَى القِدَمِ، وَالآخِرُ يَدُلُّ عَلَى البَقَاءِ، وَكِلَاهُمَا يَسْتَلْزِمُ وُجُوبَ وُجُودِهِ تَعَالَى.

وَمَا تَقَدَّمَ هُوَ مَعْنَى البَقَاءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ذَاتِ اللَّـهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَمَّا مَعْنَاهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الحَادِثِ فَهْوَ اسْتِمْرَارُ الوُجُودِ مَعَ جَوَازِ لُحُوقِ العَدَمِ.

(وَ) الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ مِنَ العِشْرِينَ الوَاجِبَةِ للَّـهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: **(مُخَالَفَتُهُ تَعَالَى لِلْحَوَادِثِ)** جَمْعُ حَادِثٍ: وَهْوَ المَوْجُودُ بَعْدَ العَدَمِ.

وَمَعْنَى مُخَالَفَتِهِ تَعَالَى لِلْحَوَادِثِ: عَدَمُ مُمَاثَلَتِهِ لَهَا فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالأَفْعَالِ، وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ عَدَمُ مُمَاثَلَةِ الحَوَادِثِ لَهُ تَعَالَى فِيمَا ذُكِرَ، فَلَا مُمَاثَلَةَ بَيْنَ اللَّـهِ تَعَالَى وَبَيْنَ الحَوَادِثِ وَلَوْ فِي وَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ؛ قَالَ اللَّـهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورَى: ١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإِخْلَاص: ٤]، أَيْ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مُكَافِئاً، أَيْ مُمَاثِلًا لِلَّـهِ.

فَإِذَا وَجَدْتَ فِي كَلَامِ اللَّهِ أَوْ كَلَامِ رَسُولِهِ مَا يُوهِمَ المُمَاثَلَةَ فَلَا تَعْتَقِدْ

(١) حقيقة البقاء الواجب لله ﷻ هو كما قال الشيخ المارغني، ويفسر أيضا بأنه سلب العدم اللاحق للوجود، وسلب الآخرية للوجود، وسلب الانقضاء للوجود، وسلب العدم فيما لا يزال، وكل هذه العبارات بمعنى واحد. (راجع شرح المقدمات للإمام السنوسي، ص ١٣٧)

ظَاهِرَهُ لِإِجْمَاعِ العُلَمَاءِ عَلَى تَأْوِيلِهِ[١] ، أَيْ صَرْفِهِ عَنْ ظَاهِرِهِ[٢] .

(وَ) الصِّفَةُ الخَامِسَةُ مِنَ العِشْرِينَ الوَاجِبَةِ لِمَوْلَانَا جَلَّ ذِكْرُهُ: **(قِيَامُهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ)** وَفَسَّرَ المُصَنِّفُ القِيَامَ بِالنَّفْسِ لِبَيَانِ المُرَادِ بِهِ هُنَا بِقَوْلِهِ: **(أَيْ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى مَحَلٍّ وَلَا مُخَصِّصٍ)** فَالمُرَادُ بِقِيَامِهِ تَعَالَى بِنَفْسِهِ أَمْرَانِ سَلْبِيَّانِ:

* **الأَوَّلُ**: سَلْبُ افْتِقَارِهِ إِلَى مَحَلٍّ ، أَيْ ذَاتٍ يُوجَدُ فِيهَا كَمَا تُوجَدُ الصِّفَةُ فِي المَوْصُوفِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِصِفَةٍ ، بَلْ هُوَ ذَاتٌ مَوْصُوفَةٌ بِصِفَاتِ الكَمَالِ .

* **الثَّانِي**: سَلْبُ افْتِقَارِهِ إِلَى مُخَصِّصٍ ، أَيْ مُوجِدٍ وَفَاعِلٍ يُخَصِّصُهُ

---

(١) من أدق معاني التأويل أنه توجيهُ لفظ متوجِّه إلى معانٍ مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة. (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ج٣/ص٤٢٥) وهذا التوجيه لا يقع إلا بناء على أدلة وقرائن عقلية أو نقلية، فمثال التأويل قول الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]: «العليُّ، الفعيل، من قولك: علا يَعلُو علوّاً، إذا ارتفَعَ، فهو عالٍ وعليٌّ، **والعليُّ: ذو العُلُوِّ والارتفاع على خَلْقِه بقُدرَتِه**». (جامع البيان، ج٤/ص٥٤٤) فقد وجه الإمام الطبري لفظ العلو الذي يحتمل علوّ الجهة الحسية ويحتمل العلو بالقدرة إلى هذا المعنى الثاني لاستحالة الأول عقلا لأن كل ذي جهة حسية فهو محدودٌ مفتقر إلى مخصِّص، وهذا من أمارات المخلوقات، واستحالته نقلا لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورَى: ١١]، فلو كان تعالى في جهة ومتحيزاً لكان له أمثال كثيرة.

(٢) يعني صرفه عن الظاهر المؤدي لتشبيه الله ﷻ بخَلْقِه، وهذا ما عناه الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ**﴾ [الأعراف: ٥٤] فقال: «**والظاهرُ المتبادِرُ إلى أذهان المشبِّهين منفيٌّ عن الله؛ فإنّ الله لا يشبهُهُ شيء مِن خَلْقِه**» (تفسير بن كثير، ج٦/٣١٩) وهذا الظاهر المتبادر الذي نفاه ابن كثير هو الجلوس وما في معناه من الاستقرار الحسي على الجسم المسمى بالعرش والعلوّ والارتفاع الحسيين كذلك عليه وما يلزم كل ذلك من التحيّز والتحديد الذي يؤدي إلى تشبيه الله بخلقه في الافتقار إلى مخصِّص، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.



بِالوُجُودِ بَدَلًا عَنِ العَدَمِ لِأَنَّ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى المُخَصِّصِ مَنْ يَقْبَلُ العَدَمَ، وَاللَّـهُ سُبْحَانَهُ لَا يَقْبَلُهُ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ.

وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ المُصَنِّفُ فِي تَفْسِيرِ قِيَامِهِ تَعَالَى بِنَفْسِهِ عَلَى سَلْبِ افْتِقَارِهِ إِلَى المَحَلِّ وَالمُخَصِّصِ لِاسْتِلْزَامِهِ سَلْبَ الافْتِقَارِ إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الوَالِدِ وَالوَلَدِ وَالصَّاحِبَةِ وَالوَزِيرِ وَالمُعِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَوَجْهُ الاسْتِلْزَامِ أَنَّ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى المَحَلِّ وَالمُخَصِّصِ لَا يَكُونُ إِلَّا حَادِثاً، وَالحَادِثُ يَفْتَقِرُ إِلَى الوَالِدِ وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ، فَإِذَا سَلَبْنَا عَنْهُ الافْتِقَارَ إِلَى المَحَلِّ وَالمُخَصِّصِ لَزِمَ سَلْبُ الحُدُوثِ، وَسَلْبُهُ يَسْتَلْزِمُ سَلْبَ سَائِرِ الافْتِقَارَاتِ.

فَكَأَنَّ المُصَنِّفَ قَالَ: المُرَادُ بِقِيَامِهِ تَعَالَى بِنَفْسِهِ عَدَمُ افْتِقَارِهِ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ القِيَامُ بِالنَّفْسِ عِبَارَةً عَنِ الغِنَى المُطْلَقِ، كَمَا عَبَّرَ بِهِ بَعْضُهُمْ عِوَضَهُ، وَهْوَ الاسْتِغْنَاءُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّـهِ تَعَالَى؛ قَالَ اللَّـهُ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وَقَالَ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

(وَ) الصِّفَةُ السَّادِسَةُ مِنَ العِشْرِينَ (**الوَحْدَانِيَّةُ**) بِفَتْحِ الوَاوِ وَتَشْدِيدِ اليَاءِ، وَفَسَّرَهَا لِخَفَاءِ مَعْنَاهَا بِقَوْلِهِ: (**أَيْ لَا ثَانِيَ لَهُ**) يَعْنِي لِمَوْلَانَا جَلَّ ذِكْرُهُ (**فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ**) وَهَذَا تَفْسِيرٌ لِلْوَاحِدِ لَا لِلْوَحْدَانِيَّةِ، لَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ تَفْسِيرُهَا وَهْوَ نَفْيُ الاثْنَيْنِيَّةِ فِي ذَاتِهِ تَعَالَى وَفِي صِفَاتِهِ وَفِي أَفْعَالِهِ.

وَاقْتَصَرَ المُؤَلِّفُ عَلَى نَفْيِ الثَّانِي لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِهِ نَفْيُ غَيْرِهِ مِنَ العَدَدِ، إِذْ لَا يَتَأَتَّى الثَّالِثُ فَمَا فَوْقَهُ إِلَّا بَعْدَ تَحَقُّقِ الثَّانِي.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا فِي أَفْعَالِهِ» المُرَادُ بِأَفْعَالِهِ تَعَالَى جَمِيعُ المُمْكِنَاتِ، فَتَدْخُلُ الذَّوَاتُ وَالصِّفَاتُ وَالأَفْعَالُ الاخْتِيَارِيَّةُ وَغَيْرُ الاخْتِيَارِيَّةِ، فَكُلُّهَا أَفْعَالُهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِيجَادِهَا وَإِعْدَامِهَا بَعْدَ وُجُودِهَا.

وَعُلِمَ مِنَ التَّفْسِيرِ المَذْكُورِ أَنَّ أَقْسَامَ الوَحْدَانِيَّةِ ثَلَاثَةٌ:

- وَحْدَانِيَّةٌ فِي الذَّاتِ.

- وَوَحْدَانِيَّةٌ فِي الصِّفَاتِ.

- وَوَحْدَانِيَّةٌ فِي الأَفْعَالِ.

فَمَعْنَى الوَحْدَانِيَّةِ فِي الذَّاتِ أَمْرَانِ:

* أَحَدُهُمَا: عَدَمُ تَرَكُّبِ ذَاتِهِ تَعَالَى مِنْ أَجْزَاء.

* وَالثَّانِي: عَدَمُ وُجُودِ مُمَاثِلٍ لَهُ فِي ذَاتِهِ.

وَمَعْنَى الوَحْدَانِيَّةِ فِي الصِّفَاتِ أَمْرَانِ أَيْضاً:

* أَحَدُهُمَا: عَدَمُ تَعَدُّدِ صِفَاتِهِ تَعَالَى مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، فَلَيْسَ لَهُ قُدْرَتَانِ فَأَكْثَر، وَلَا إِرَادَتَانِ فَأَكْثَر، وَلَا عِلْمَانِ فَأَكْثَر، إِلَى آخِرِ الصِّفَاتِ.

* وَالثَّانِي: عَدَمُ ثُبُوتِ صِفَةٍ لِغَيْرِهِ تُمَاثِلُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ.

وَمَعْنَى الوَحْدَانِيَّةِ فِي الأَفْعَالِ أَمْرٌ وَاحِدٌ وَهْوَ عَدَمُ وُجُودِ مُؤَثِّرٍ مَعَهُ فِي



شَيْءٍ مِنْهَا، لَا بِالاسْتِقْلَالِ وَلَا بِالْمُشَارَكَةِ لَهُ تَعَالَى[1]، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُنْفَرِدُ بِالتَّأْثِيرِ فِي جَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ، أَيْ الْمُنْفَرِدُ بِإِيجَادِهَا وَإِعْدَامِهَا لِوُجُوبِ تَعَلُّقِ قُدْرَتِهِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ.

وَأَمَّا تَعَدُّدُ أَفْعَالِهِ تَعَالَى فَهْوَ ثَابِتٌ لَا يَصِحُّ نَفْيُهُ لِأَنَّ أَفْعَالَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَثِيرَةٌ مِنْ خَلْقٍ وَرَزْقٍ وَإِغْنَاءٍ وَإِفْقَارٍ وَإِعْزَازٍ وَإِذْلَالٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَجُمْلَةُ الأُمُورِ المَنْفِيَّةِ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُطْلَقِ الوَحْدَانِيَّةِ خَمْسَةٌ، وَفِي القُرْآنِ العَزِيزِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، مِنْهَا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١][2].

---

(١) وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

(٢) وجدت في نهاية بعض المخطوطات نقلا عن القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني رحمه الله ولعله من بعض كتبه المفقودة: «أصول الكفر ثمانية: الكثرة، والعدد، والنقص، والتقليل، والعلة، والمعلول، والنظير، والشبيه. وهذا كله منفيٌّ في سورة الإخلاص؛ فـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نفيٌ للكثرة والعدد، فنفي الكثرة نفي كونه أكثر من واحد؛ إذ ليس في الوجود إلا الواحد لأنه واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، ونفي العدد نفي أن يكون هنالك ثانٍ أو ثلاثة كما قالت النصارى إن الله ثالث عيسى وأمه. ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ نفي للنقص والتقليل؛ نفي أن يكون له جوف كسائر الخلق، فإن التجويف هي الحاجة إلى الطعام، وهي من صفة الخلق وذلك نقص، ونفي التقليل بمعنى نفي أن يكون قليلًا كالجوهر الفرد لأنه لا يقدر على شيء. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ نفي للعلة والمعلول. والعلة في اصطلاح المتكلمين كون الشيء سببا في وجود شيء آخر، فالوالد سبب في وجود الولد، والماء سبب في وجود الخلق؛ قال تعالى:=

(فَهَذِهِ) المُتَقَدِّمَةُ **(سِتُّ صِفَاتٍ)** مِنَ العِشْرِينَ الوَاجِبَةِ لِمَوْلَانَا جَلَّ وَعَلَا، **(الأُولَى نَفْسِيَّةٌ وَهْيَ الوُجُودُ)** وَالصِّفَةُ النَّفْسِيَّةُ هِيَ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ الذَّاتُ فِي الخَارِجِ بِدُونِهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الوُجُودَ كَذَلِكَ، فَهْوَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى النَّفْسِ بِمَعْنَى الذَّاتِ، وَإِنَّمَا نُسِبَتْ إِلَيْهَا لِمُلَازَمَتِهَا لَهَا، بِخِلَافِ المَعْنَوِيَّةِ الآتِيَةِ فَإِنَّهَا مُلَازِمَةٌ لِلْمَعَانِي وَلِذَا نُسِبَتْ إِلَيْهَا كَمَا سَيَأْتِي.

(وَالخَمْسَةُ) الَّتِي هِيَ القِدَمُ، وَالبَقَاءُ، وَالمُخَالَفَةُ لِلْحَوَادِثِ، وَالقِيَامُ بِالنَّفْسِ، وَالوَحْدَانِيَّةُ، المَذْكُورَاتُ **(بَعْدَهَا)** أَيْ بَعْدَ الصِّفَةِ الأُولَى النَّفْسِيَّةِ **(سَلْبِيَّةٌ)** نِسْبَةً إِلَى السَّلْبِ بِمَعْنَى النَّفْيِ، وَإِنَّمَا نُسِبَتْ إِلَيْهِ لِأَنَّ مَعْنَى كُلٍّ مِنْهَا سَلْبُ أَمْرٍ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ ﷻ كَمَا عُلِمَ مِمَّا شَرَحْنَاهُ بِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى المُوَفِّقُ.

*** *** ***

= ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فالعلة: الوالد، والمعلول: الولد. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفي للنظير والشبيه، بمعنى: لم يكن من يناظره في الملك بأن يكون إلهًا مثله، ونفي الشبيه نفي أن يكون في الخلق من يشبهه سبحانه؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]».







صِفَاتُ المَعَانِي السَّبْعَةِ
وَحُدُودُهَا وَمُتَعَلَّقَاتُهَا الأَصْلِيَّةُ

(**ثُمَّ يَجِبُ لَهُ تَعَالَى سَبْعُ صِفَاتٍ**) مِنَ العِشْرِينَ صِفَة (**تُسَمَّى صِفَاتُ المَعَانِي**) لِأَنَّ كُلًّا مِنْهَا صِفَةٌ مَوْجُودَةٌ، وَكُلُّ صِفَةٍ مَوْجُودَةٍ تُسَمَّى فِي اصْطِلَاحِ المُتَكَلِّمِينَ صِفَةُ مَعْنىً، سَوَاءٌ كَانَتْ قَدِيمَةً كَقُدْرَتِهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ، أَمْ حَادِثَةً كَبَيَاضِ الجِرْمِ وَسَوَادِهِ.

فَالصِّفَةُ الأُولَى مِنْ صِفَاتِ المَعَانِي هِيَ المَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: (**وَهْيِ**) أَيْ السَّبْعُ صِفَاتٍ الَّتِي تُسَمَّى صِفَاتُ المَعَانِي (**القُدْرَةُ**) وَهْيَ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى، يَتَأَتَّى بِهَا إِيجَادُ كُلِّ مُـمْكِنٍ وَإِعْدَامُهُ عَلَى وَفْقِ الإِرَادَةِ. وَمَعْنَى «يَتَأَتَّى بِهَا» يَتَيَسَّرُ بِهَا.

وَالمُمْكِنُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الكَلَامِ: كُلُّ مَا حَكَمَ العَقْلُ بِاسْتِوَاءِ وُجُودِهِ وَعَدَمِهِ، وَيُسَمَّى جَائِزاً. وَالمُمْكِنُ أَعَمُّ مِنَ الحَادِثِ لِأَنَّهُ يَصْدُقُ بِالمُمْكِنِ المَعْدُومِ وَبِالمُمْكِنِ المَوْجُودِ بَعْدَ العَدَمِ.

وَمَعْنَى إِيجَادُ المُمْكِنِ: إِخْرَاجُهُ مِنَ العَدَمِ إِلَى الوُجُودِ، وَمَعْنَى إِعْدَامُهُ: إِخْرَاجُهُ مِنَ الوُجُودِ إِلَى العَدَمِ.

وَقَوْلُنَا: «عَلَى وَفْقِ الإِرَادَةِ» مَعْنَاهُ أَنَّ إِيجَادَ اللَّـهِ تَعَالَى لِلْمُمْكِنِ وَإِعْدَامَهُ لَهُ عَلَى وَفْقِ تَعَلُّقِ إِرَادَتِهِ بِهِ لِكَوْنِهِ سُبْحَانَهُ لَا يُوجِدُ أَوْ يُعْدِمُ بِقُدْرَتِهِ إِلَّا مَا أَرَادَ وُجُودَهُ أَوْ عَدَمَهُ مِنَ المُمْكِنَاتِ. وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ تَعَلُّقَ القُدْرَةِ فَرْعٌ عَنْ تَعَلُّقِ الإِرَادَةِ، أَيْ تَابِعٌ لَهُ وَمُتَأَخِّرٌ عَنْهُ فِي التَّعَقُّلِ.

(وَ) الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ صِفَاتِ المَعَانِي: **(الإِرَادَةُ)** وَتُرَادِفُهَا المَشِيئَةُ، وَهِيَ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى، يَتَأَتَّى بِهَا تَخْصِيصُ كُلِّ مُمْكِنٍ بِبَعْضِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ عَلَى وَفْقِ العِلْمِ(١).

وَالَّذِي يَجُوزُ عَلَى المُمْكِنِ أُمُورٌ مُتَقَابِلَةٌ أَيْ مُتَنَافِيَةٌ، لَا يَجْتَمِعُ وَاحِدٌ مِنْهَا مَعَ مُقَابِلِهِ، وَهِيَ الوُجُودُ وَمُقَابِلُهُ العَدَمُ، وَالصِّفَةُ المَخْصُوصَةُ كَالبَيَاضِ وَمُقَابِلُهَا سَائِرُ الصِّفَاتِ كَالسَّوَادِ، وَالمِقْدَارُ المَخْصُوصُ كَالطُّولِ وَمُقَابِلُهُ سَائِرُ المَقَادِيرِ كَالقِصَرِ، وَالجِهَةُ المَخْصُوصَةُ وَمُقَابِلُهَا سَائِرُ الجِهَاتِ، وَالزَّمَانُ المَخْصُوصُ وَمُقَابِلُهُ سَائِرُ الأَزْمِنَةِ، وَالمَكَانُ المَخْصُوصُ وَمُقَابِلُهُ سَائِرُ الأَمْكِنَةِ.

---

(١) مما تمسك أهل السنة في إثبات صفة الإرادة لله ﷻ أن تخصيص بعض الأضداد بالوقوع دون بعض وفي بعض الأوقات دون بعض مع استواء نسبة الذات العلية إلى الكل لابد أن يكون لصفة شأنها التخصيص لامتناع التخصيص بلا مخصِّص، ولابد أن تكون قائمة بالذات العلية لامتناع احتياج الله ﷻ في فاعليته إلى أمر منفصل عن ذاته، وتلك الصفة هي المسماة بالإرادة، وهو معنى واضح عند العقل، مغاير للعلم والقدرة وسائر الصفات، شأنه التخصيص والترجيح لأحد طرفي المقدور من الفعل والترك على الآخر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وَقَالَ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]. (راجع شرح المقاصد للعلامة التفتازاني، ج٢/ص٩٤)

وَهَذِهِ الأُمُورُ كُلُّهَا جَائِزَةٌ فِي حَقِّ كُلِّ مُـمْكِنٍ عَلَى السَّوَاءِ، وَتَخْصِيصُهُ بِبَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ ـ أَيْ تَرْجِيحُ وُقُوعِ بَعْضِهَا لَهُ بَدَلًا عَنْ مُقَابِلِهِ ـ إِنَّمَا هِيَ بِإِرَادَةِ اللَّـهِ تَعَالَى، فَزَيْدٌ الَّذِي أَوْجَدَهُ اللَّـهُ أَبْيَضَ طَوِيلًا فِي جِهَةِ المَشْرِقِ زَمَنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ بِمَكَّةَ المُشَرَّفَةَ كَانَ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يُبْقِيَهُ اللَّـهُ مَعْدُوماً وَأَنْ يُوجِدَهُ عَلَى مُقَابِلِ مَا وُجِدَ عَلَيْهِ وَفِي مُقَابِلِ مَا وُجِدَ فِيهِ، لَكِنْ لَمَّا خَصَّصَتْهُ إِرَادَةُ اللَّـهِ بِذَلِكَ وُجِدَ كَذَلِكَ، وَهَكَذَا غَيْرُهُ مِنَ الحَوَادِثِ.

وَقَوْلُنَا: «عَلَى وَفْقِ العِلْمِ» مَعْنَاهُ أَنَّ تَخْصِيصَ اللَّـهِ لِلْمُمْكِنِ عَلَى وَفْقِ تَعَلُّقِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِهِ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لَا يُخَصِّصُ بِإِرَادَتِهِ إِلَّا مَا عَلِمَ مِنَ المُمْكِنَاتِ، خَيْراً كَانَ أَوْ شَرّاً، فَكُلُّ مُـمْكِنٍ عَلِمَ اللَّـهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَكُونُ أَوْ لَا يَكُونُ فَذَلِكَ مُرَادُهُ، وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ تَعَلُّقَ الإِرَادَةِ فَرْعٌ عَنْ تَعَلُّقِ العِلْمِ، أَيْ تَابِعٌ لَهُ وَمُتَأَخِّرٌ عَنْهُ فِي التَّعَقُّلِ.

وَلَمَّا كَانَتِ القُدْرَةُ وَالإِرَادَةُ إِنَّمَا تَتَعَلَّقَانِ بِالمُمْكِنَاتِ وَصَفَهُمَا المُصَنِّفُ بِقَوْلِهِ: **(المُتَعَلِّقَتَانِ بِجَمِيعِ المُمْكِنَاتِ)** أَيْ الجَائِزَاتِ، وَالصِّفَةُ المُتَعَلِّقَةُ هِيَ الَّتِي تَقْتَضِي ـ أَيْ تَسْتَلْزِمُ ـ أَمْراً زَائِداً عَلَى القِيَامِ بِمَحَلِّهَا، وَيُسَمَّى ذَلِكَ الأَمْرُ «مُتَعَلَّقَهَا» بِفَتْحِ اللَّامِ.

وَالقُدْرَةُ وَالإِرَادَةُ مِنَ الصِّفَاتِ المُتَعَلِّقَةِ، وَمُتَعَلَّقُهُمَا وَاحِدٌ وَهُوَ المُمْكِنَاتُ، وَتَعَلُّقُهُمَا بِهَا تَعَلُّقُ تَأْثِيرٍ، غَيْرَ أَنَّ التَّأْثِيرَ بِالقُدْرَةِ فِي وُجُودِ المُمْكِنِ أَوْ عَدَمِهِ، وَالتَّأْثِيرُ بِالإِرَادَةِ فِي تَخْصِيصِ المُمْكِنِ بِبَعْضِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ.

وَخَرَجَ بِـ«المُمْكِنَات» الوَاجِبَاتُ وَالمُسْتَحِيلَاتُ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَلَّقَ

بِهِمَا القُدْرَةُ وَالإِرَادَةُ لِأَنَّ تَعَلُّقَهُمَا بِالوَاجِبَاتِ إِنْ كَانَ لِعَدَمِهَا فَعَدَمُهَا مُسْتَحِيلٌ ؛ إِذْ هِيَ لَا تَقْبَلُ العَدَمَ، وَإِنْ كَانَ لِوُجُودِهَا فَهْوَ مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الحَاصِلِ، وَتَعَلُّقُهُمَا بِالمُسْتَحِيلَاتِ إِنْ كَانَ لِوُجُودِهَا فَهْوَ مُسْتَحِيلٌ لِأَنَّهَا لَا تَقْبَلُ الوُجُودَ، وَإِنْ كَانَ لِعَدَمِهَا فَهْوَ مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الحَاصِلِ أَيْضاً.

لَا يُقَالُ: «يَلْزَمُ عَلَى عَدَمِ تَعَلُّقِهِمَا بِالوَاجِبَاتِ وَالمُسْتَحِيلَاتِ نِسْبَةُ العَجْزِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِقُصُورِ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ عَنِ التَّعَلُّقِ بِهِمَا» لِأَنَّا نَقُولُ: لَا عَجْزَ وَلَا قُصُورَ وَإِنْ تَوَهَّمَهُمَا بَعْضُ الأَغْبِيَاءِ مِنَ المُبْتَدِعَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ العَجْزَ وَالقُصُورَ إِنَّمَا يَلْزَمَانِ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ القُدْرَةُ وَالإِرَادَةُ وَلَمْ تَتَعَلَّقَا بِهِ، أَمَّا مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَلَّقَا بِهِ فَلَا يَلْزَمُ فِيهِ ذَلِكَ أَصْلًا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الوَاجِبَاتِ وَالمُسْتَحِيلَاتِ لَا يُمْكِنُ تَعَلُّقُ القُدْرَةِ وَالإِرَادَةِ بِهِمَا لِمَا عَلِمْتَ.

(وَ) الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ صِفَاتِ المَعَانِي **(العِلْمُ)** وَهْوَ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى، مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِ الأُمُورِ عَلَى وَجْهِ الإِحَاطَةِ بِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ سَبْقِ خَفَاءٍ.

وَلِتَعَلُّقِ العِلْمِ بِجَمِيعِ الأُمُورِ وَصَفَهُ المُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ: **(المُتَعَلِّقُ بِجَمِيعِ الوَاجِبَاتِ وَالجَائِزَاتِ وَالمُسْتَحِيلَاتِ)** تَعَلُّقَ انْكِشَافٍ وَاتِّضَاحٍ، بِمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الأُمُورُ مُنْكَشِفَةٌ بِصِفَةِ العِلْمِ لِذَاتِهِ تَعَالَى وَمُتَّضِحَةٌ لَهَا أَزَلًا وَأَبَداً بِلَا تَأَمُّلٍ وَلَا اسْتِدْلَالٍ اتِّضَاحاً تَامّاً، فَالوَاجِبَاتُ كَذَاتِهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ، فَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهِ ذَاتَهُ وَصِفَاتَهُ الَّتِي مِنْهَا العِلْمُ، وَالجَائِزَات كَذَوَاتِ المَخْلُوقَاتِ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا، وَالمُسْتَحِيلَات كَالشَّرِيكِ وَالوَلَدِ وَالصَّاحِبَةِ، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ.



(وَ) الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ صِفَاتِ المَعَانِي **(الحَيَاةُ)** وَهِيَ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى تَقْتَضِي صِحَّةَ اتِّصَافِهِ بِالعِلْمِ وَغَيْرِهِ مِنَ الصِّفَاتِ.

وَحَيَاتُهُ جَلَّ وَعَلَا لَيْسَتْ كَحَيَاتِنَا لِكَوْنِ حَيَاتِهِ لَيْسَتْ بِسَبَبِ الرُّوحِ، وَحَيَاتُنَا بِسَبَبِهَا.

(وَهِيَ) أَيْ الحَيَاةُ **(لَا تَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ)** أَيْ لَا تَقْتَضِي أَمْراً زَائِداً عَلَى القِيَامِ بِمَحَلِّهَا، بِخِلَافِ غَيْرِهَا مِنْ صِفَاتِ المَعَانِي فَإِنَّهُ يَقْتَضِي أَمْراً زَائِداً عَلَى القِيَامِ بِمَحَلِّهِ، فَالقُدْرَةُ تَقْتَضِي مَقْدُوراً يَتَأَتَّى بِهَا إِيجَادُهُ وَإِعْدَامُهُ، وَالإِرَادَةُ تَقْتَضِي مُرَاداً يَتَأَتَّى بِهَا تَخْصِيصُهُ، وَالعِلْمُ يَقْتَضِي مَعْلُوماً يَتَّضِحُ بِهِ، وَالسَّمْعُ يَقْتَضِي مَسْمُوعاً يُسْمَعُ بِهِ، وَالبَصَرُ يَقْتَضِي مُبْصَراً يُبْصَرُ بِهِ، وَالكَلَامُ يَقْتَضِي مَعْنىً يَدُلُّ عَلَيْهِ.

(وَ) الصِّفَةُ الخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ مِنْ صِفَاتِ المَعَانِي **(السَّمْعُ وَالبَصَرُ)** وَهُمَا صِفَتَانِ قَدِيمَتَانِ قَائِمَتَانِ بِذَاتِهِ تَعَالَى، تَتَعَلَّقَانِ بِكُلِّ مَوْجُودٍ عَلَى وَجْهِ الإِحَاطَةِ بِهِ، تَعَلُّقاً زَائِداً عَلَى تَعَلُّقِ العِلْمِ.

هَذَا مَعْنَاهُمَا فِي حَقِّ اللَّهِ ﷻ، وَأَمَّا مَعْنَاهُمَا فِي حَقِّ الحَادِثِ فَالسَّمْعُ: قُوَّةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ فِي الأُذُنَيْنِ، وَالبَصَرُ: قُوَّةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ فِي العَيْنَيْنِ.

وَلِتَعَلُّقِ سَمْعِهِ تَعَالَى وَبَصَرِهِ بِكُلِّ مَوْجُودٍ وَصَفَهُمَا المُصَنِّفُ بِقَوْلِهِ: **(المُتَعَلِّقَانِ بِجَمِيعِ المَوْجُودَاتِ)** تَعَلُّقَ انْكِشَافٍ وَاتِّضَاحٍ، بِمَعْنَى أَنَّ جَمِيعَ المَوْجُودَاتِ مُنْكَشِفَةٌ لَهُ تَعَالَى بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، وَمُتَّضِحَةٌ لَهُ أَزَلًا وَأَبَداً اتِّضَاحاً تَامّاً[(١)].

---

(١) السمع الأزلي كما قال الإمام السنوسي: «هو صفة ينكشف بها كل موجود على ما هو به=



وَيَجِبُ اعْتِقَادُ أَنَّ الانْكِشَافَ بِالسَّمْعِ غَيْرُ الانْكِشَافِ بِالبَصَرِ، وَأَنَّ الانْكِشَافَ بِكُلٍّ مِنْهُمَا غَيْرُ الانْكِشَافِ بِالعِلْمِ، وَلِكُلِّ انْكِشَافٍ مِنْهَا حَقِيقَةٌ يُفَوَّضُ عِلْمُهَا إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَخَرَجَ بِالمَوْجُودَاتِ الأُمُورُ الغَيْرُ الوُجُودِيَّةِ فَلَا يَتَعَلَّقُ بِهَا سَمْعُ اللَّهِ وَبَصَرُهُ، وَدَخَلَ فِي المَوْجُودَاتِ القَدِيمُ وَالحَادِثُ، فَيَتَعَلَّقُ سَمْعُهُ تَعَالَى وَبَصَرُهُ بِكُلٍّ مِنْهَا فَيَسْمَعُ سُبْحَانَهُ وَيَرَى فِي الأَزَلِ ذَاتَهُ العَلِيَّةَ وَجَمِيعَ صِفَاتِهِ الوُجُودِيَّة

= انكشافا يُبايِنُ سواه ضرورةً، والبصر مثله». (شرح المقدمات، ص ١٤٦) ومقصوده أن الانكشاف الأزلي الحاصل بصفة السمع غيرُ الانكشاف الأزلي الحاصل بصفة العلم، والبصر كذلك لأنهما صفتان زائدتان على العلم لورود الأدلة السمعية بإثباتهما. ويشتركان مع العلم في أزلية الكشف واستحالة حدوثه.

وعبارة الإمام السنوسي عن تعلقهما «بِجَمِيعِ المَوْجُودَاتِ» فيه ضرب من التجوّز، ذلك أن سمع الله ﷻ وبصره يتعلقان أزلا بذاته العلية وصفاته الوجودية، وهي موجودة حقيقة، ويتعلقان أزلا أيضا بالممكنات التي علم الله أنها ستوجد، وتسميتها بالموجودات مجاز من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه لأنها كانت في الأزل معدومة وتصير في ما لا يزال موجودةً، والمصحِّحُ لتعلق السمع والبصر بهذه الممكنات التي ستوجد هو الوجود العلمي، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٥]، فقد جعل ﷻ الوجود العلمي مصححاً للرؤية، ولا شك أن للممكنات التي ستوجد تعيُّناً في دائرة العلم الإلهي قبل وجودها في الخارج، فهي مرئية ومسموعة له ﷻ من هذه الحيثية، والدليل على ذلك وجوب عموم تعلق الصفات بكل ما يَصحُّ أن تتعلق به أزلا، وإذا ثبت صحة تعلق صفتي السمع والبصر بالموجود العلمي فلو اختصتا ببعض ما تصلحا للتعلق به دون البعض الآخر مع صلاحيتهما للتعلق بالجميع لافتقرتا إلى مخصِّص، وذلك يلزم منه حدوثهما لأن كل مخصَّصٍ محدَثٌ، وحدوث صفات الله ﷻ محال، وأيضا لو لم يتعلق سمعه وبصره تعالى بما صح أن يتعلقا به أزلا لكان ذلك منعاً لشيء عُلِمَت صحتُه، ويكون المانع قائماً بالذات العلية، والمانع إذا ضادَّ الصفة لزم عدمها لاستحالة الجمع بين الضدين، ويلزم من ذلك عدم الصفة القديمة الأزلية، وعدم القديم محال.

الَّتِي مِنْهَا سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ، وَيَسْمَعُ وَيَرَى مَعَ ذَلِكَ فِيمَا لَا يَزَالُ ذَوَاتَ الكَائِنَاتِ كُلِّهَا وَجَمِيعَ صِفَاتِهَا الوُجُودِيَّةِ كَيْفَمَا كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا، فَسَمْعُهُ تَعَالَى وَبَصَرُهُ لَيْسَا كَسَمْعِنَا وَبَصَرِنَا لِأَنَّ سَمْعَنَا إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ عَادَةً بِبَعْضِ المَوْجُودَاتِ وَهْوَ الأَصْوَاتُ بِشَرَطِ عَدَمِ البُعْدِ جِدّاً وَعَدَمِ السِّرِّ جِدّاً، وَبَصَرُنَا إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ عَادَةً بِبَعْضِ المَوْجُودَاتِ وَهْوَ الأَجْسَامُ وَأَلْوَانُهَا وَحَرَكَاتُهَا وَسَكَنَاتُهَا بِشَرَطِ أَنْ يَكُونَ المَرْئِيُّ فِي جِهَةِ الأَمَامِ وَأَنْ لَا يَكُونَ بَعِيداً جِدّاً وَلَا قَرِيبًا جِدّاً.

(وَ) الصِّفَةُ السَّابِعَةُ مِنْ صِفَاتِ المَعَانِي **(الكَلَامُ)** وَهْوَ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى، لَيْسَتْ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ[1]، مُنَزَّهَةٌ عَنِ السِّرِّ، وَالجَهْرِ، وَالتَّقْدِيمِ، وَالتَّأْخِيرِ، وَالإِعْرَابِ، وَاللَّحْنِ، وَسَائِرِ صِفَاتِ كَلَامِ المَخْلُوقَاتِ، دَالَّةٌ عَلَى جَمِيعِ الأُمُورِ.

وَلَيْسَتْ الكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ ـ كَالقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ـ مِنَ الكَلَامِ القَدِيمِ لِأَنَّهَا أَلْفَاظٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ حُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ وَهْيِ حَادِثَةٌ.

---

(١) كلام الله القائم بذاته يتنزه عن الحروف والأصوات وما يلازمها من السكوت، وَلِذَا قَالَ الإِمَامُ الجَلِيلُ أَبُو جَعْفَر الطَّبِرِيّ فِي وَصْفِ اللَّهِ ﷻ: «**هُوَ المُتَكَلِّمُ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ السُّكُوتُ**». (التبصير في معالم الدين، ص ١٢٨) فكلامه تعالى القائم بذاته لا يجوز أن يطرأ عليه سكوت لأنه لو جاز أن يسكت عن كلامه لجاز أن يتصف كلامُه بالعدم، وذلك يوجب حدوثه لأن السكوت إن كان قبل وجود الكلام لزم سبق العدم عليه، وذلك ينفي قِدَمَهُ ويُثبِتُ حدوثَه، وإن كان السكوت بعد وجود الكلام فقد طرأ عليه العدم، وهو ينفي بقاءَه، وإذا انتفى البقاء انتفى القِدَمُ لِما تقرر أن كلما ثبت قِدَمُه استحال عدَمُه، وإذا انتفى القِدَم لزم ضده وهو الحدوث، وإذا لزم من السكوت حدوث الكلام لزم حدوث الذات لأن المتصف بالحادث حادِثٌ، والله تعالى ثبتَ قِدَمُهُ واستحال عدَمُه، فكلامُه قديم كذاته، منزه عن جميع أمارات الحدوث ومنها السكوت.

نَعَمْ، مَدْلُولُ تِلْكَ الأَلْفَاظِ ـ أَيْ المَعَانِي الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا أَلْفَاظُ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ ـ مِنْ مَدْلُولِ الكَلَامِ القَدِيمِ، مَثَلًا إِذَا سَمِعْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] فَهِمْنَا مِنْهُ النَّهْيَ عَنْ قُرْبَانِ الزِّنَى، وَلَوْ أُزِيلَ عَنَّا الحِجَابُ وَسَمِعْنَا الكَلَامَ القَدِيمَ لَفَهِمْنَا مِنْهُ ذَلِكَ المَعْنَى أَيْضاً.

فَأَلْفَاظُ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ دَالَّةٌ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الكَلَامُ القَدِيمُ، أَيْ مُشَارِكَةٌ لَهُ فِي مَدْلُولِهِ، لَكِنْ لَا فِي كُلِّهِ، بَلْ فِي بَعْضِهِ، إِذِ الكَلَامُ القَدِيمُ دَالٌّ عَلَى مَا لَا يَتَنَاهَى مِنَ الوَاجِبَاتِ وَالجَائِزَاتِ وَالمُسْتَحِيلَاتِ، وَتِلْكَ الأَلْفَاظُ تَرْجَمَةٌ عَنْ بَعْضِ مَدْلُولِهِ، وَلِذَا اخْتَلَفَتْ بِاخْتِلَافِ الأَلْسِنَةِ وَاللُّغَاتِ، فَالأَلْفَاظُ المُنَزَّلَةُ بِالعَرَبِيَّةِ قُرْآنٌ، وَبِالعِبْرَانِيَّةِ تَوْرَاةٌ، وَبِالسِّرْيَانِيَّةِ إِنْجِيلٌ وَزَبُورٌ.

وَفِي القُرْآنِ العَزِيزِ آيَاتٌ دَلَّتْ عَلَى اتِّصَافِهِ عَزَّ وَجَلَّ بِصِفَاتِ المَعَانِي، مِنْهَا قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

تَنْبِيهَانِ

* **الأَوَّلُ**: كَمَا يُسَمَّى الكَلَامُ القَدِيمُ بِكَلَامِ اللَّهِ تُسَمَّى الكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ بِكَلَامِ اللَّهِ، إِمَّا لِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى بَعْضِ مَدْلُولِهِ المُتَرْجَمِ بِهَا عَنْهُ فَقِيلَ لَهَا كَلَامُ اللَّهِ، كَمَا يُقَالُ لِلْكَلَامِ المُتَرْجَمِ بِهِ عَنْ كَلَامِ السُّلْطَانِ مَثَلًا: هَذَا كَلَامُ السُّلْطَانِ، وَكَمَا يُقَالُ لِلْكَلَامِ المَحْكِيِّ فِي القُرْآنِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ وَأُمَمِهِمْ الأَعْجَمِيِّينَ: هَذَا كَلَامُهُمْ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ عَيْنَ كَلَامِهِمْ، بَلْ هُوَ تَرْجَمَةٌ عَنْهُ، وَإِمَّا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ تِلْكَ الأَلْفَاظَ وَأَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ، فَهِيَ كَلَامُ اللَّهِ بِمَعْنَى أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ وَلَيْسَتْ مِنْ تَأْلِيفِ الخَلْقِ.



* **التَّنْبِيهُ الثَّانِي**: لَا يَـجُوزُ أَنْ يُقَالَ: «كَلَامُ اللَّـهِ مَخْلُوقٌ أَوْ حَادِثٌ» وَيُقْصَدُ بِكَلَامِ اللَّـهِ أَلْفَاظُ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ؛ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ مِنْ ذَلِكَ حُدُوثُ الكَلَامِ القَدِيمِ.

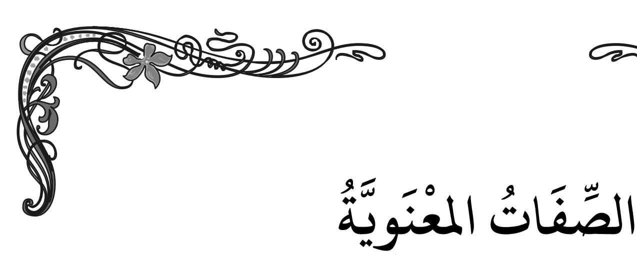
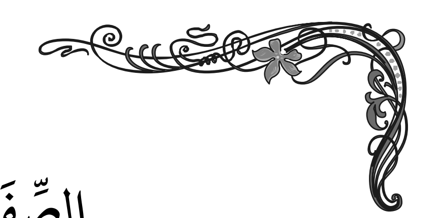
وَكَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: «القُرْآنُ مَخْلُوقٌ أَوْ حَادِثٌ» لِأَنَّ القُرْآنَ يُطْلَقُ عَلَى اللَّفْظِ المُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْإِعْجَازِ، وَعَلَى صِفَةِ الكَلَامِ القَائِمَةِ بِذَاتِ اللَّـهِ تَعَالَى، فَرُبَّمَا يُتَوَهَّمُ مِنْ إِطْلَاقِ أَنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ أَوْ حَادِثٌ حُدُوثُ الصِّفَةِ القَائِمَةِ بِذَاتِهِ تَعَالَى. نَعَمْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ فِي مَقَامِ التَّعْلِيمِ[1].

وَقَوْلُ المُصَنِّفِ: **(الَّذِي لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ)** نَعْتٌ لِلْكَلَامِ، رَدَّ بِهِ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَهُ تَعَالَى بِحُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ.

(وَيَتَعَلَّقُ) أَيْ الكَلَامُ **(بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ العِلْمُ مِنَ المُتَعَلَّقَاتِ)** بِفَتْحِ اللَّامِ، وَهْيَ الوَاجِبَاتُ وَالجَائِزَاتُ وَالمُسْتَحِيلَاتُ، فَالكَلَامُ مُسَاوٍ لِلْعِلْمِ فِي المُتَعَلَّقِ ـ بِفَتْحِ اللَّامِ ـ، لَكِنَّهُ مُخَالِفٌ لَهُ فِي التَّعَلُّقِ حَيْثُ إِنَّ تَعَلُّقَ العِلْمِ بِالوَاجِبَاتِ وَالجَائِزَاتِ وَالمُسْتَحِيلَاتِ تَعَلُّقُ انْكِشَافٍ كَمَا عَلِمْتَ، وَتَعَلُّقُ الكَلَامِ بِهِ تَعَلُّقُ دَلَالَةٍ بِمَعْنَى أَنَّ كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ دَالٌّ أَزَلًا وَأَبَداً عَلَى جَمِيعِ مَعْلُومَاتِهِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

---

(١) لأن اللائق بمقام التعليم هو التفصيل الذي يزيل كل اشتباه ويرفع كل توهم، فإن المدرّس يقرر للطالب وجه استحالة حدوث الكلام القديم القائم بذات الله عز وجل لأن صفات الله القائمة بذاته منزهة عن الحدوث كما تنزهت ذاته العلية عن ذلك، ويقرر له وجه استحالة قدم الكلام المركب من الحروف والأصوات المتعاقبة التي يسبق بعضها بعضها لأن ذلك ينافي القِدَم والأزلية.

الصِّفَاتُ المعْنَوِيَّةُ

وَالخِلَافُ فِي مَدْلُولِهَا وَعَدِّهَا مَعَ الاتِّفَاقِ عَلَى وُجُوبِهَا للهِ

(ثُمَّ) يَجِبُ لَهُ تَعَالَى **(سَبْعُ صِفَاتٍ)** وَهِيَ تَمَامُ العِشْرِينَ الوَاجِبَةِ لَهُ جَلَّ وَعَزَّ **(تُسَمَّى صِفَاتٍ مَعْنَوِيَّةً)** وَأَحْوَالًا مَعْنَوِيَّةً **(وَهِيَ مُلَازِمَةٌ)** أَيْ لَازِمَةٌ **(لِلسَّبْعِ الأُولَى)** الَّتِي هِيَ صِفَاتُ المَعَانِي، وَلِلُزُومِهَا لَهَا نُسِبَتْ إِلَيْهَا فَقِيلَ فِيهَا «مَعْنَوِيَّة» بِيَاءٍ مُشَدَّدَةٍ، نِسْبَةً إِلَى المُعْنَى، مُفْرَدِ المَعَانِي.

(وَهِيَ) أَيْ السَّبْعُ صِفَاتٍ المُسَمَّاةُ صِفَاتٍ مَعْنَوِيَّةً **(كَوْنُهُ تَعَالَى قَادِراً، وَمُرِيداً، وَعَالِماً، وَحَيّاً، وَسَمِيعاً، وَبَصِيراً، وَمُتَكَلِّماً)** فَكَوْنُهُ تَعَالَى قَادِراً لَازِمٌ لِلْقُدْرَةِ القَائِمَةِ بِذَاتِهِ تَعَالَى، وَكَوْنُهُ مُرِيداً لَازِمٌ لِلْإِرَادَةِ القَائِمَةِ بِذَاتِهِ تَعَالَى، وَهَكَذَا الخَمْسَةُ البَاقِيَةُ.

وَوَجْهُ لُزُومِ هَذِهِ الأَكْوَانِ السَّبْعَةِ لِلْمَعَانِي أَنَّ كُلًّا مِنَ المَعَانِي صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ، وَكُلُّ صِفَةٍ وُجُودِيَّةٍ إِذَا قَامَتْ بِمَوْصُوفٍ قَدِيمٍ أَوْ حَادِثٍ لَزِمَ أَنْ يَكْتَسِبَ مِنْهَا حَالًا لَا تَثْبُتُ لَهُ عِنْدَ عَدَمِ تِلْكَ الصِّفَةِ مِنْهُ، فَمَنْ قَامَتْ بِهِ القُدْرَةُ لَزِمَ أَنْ يَكْتَسِبَ مِنْهَا حَالًا وَهِيَ أَنْ يَكُونَ قَادِراً عَلَى مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ تِلْكَ القُدْرَةُ، وَيُعَبَّرُ عَنْ هَذِهِ الحَالِ بِكَوْنِهِ قَادِراً وَبِالقَادِرِيَّةِ، وَمَنْ قَامَ بِهِ العِلْمُ لَزِمَ أَنْ يَكْتَسِبَ مِنْهُ حَالًا وَهِيَ أَنْ يَكُونَ عَالِماً بِمَا تَعَلَّقَ بِهِ ذَلِكَ العِلْمُ وَمُطَّلِعاً عَلَيْهِ، وَيُعَبَّرُ عَنْ

هَذِهِ الحَالِ بِكَوْنِهِ عَالِماً وَبِالعَالِمِيَّةِ، وَقِسْ البَاقِي.

وَالحَالُ المَذْكُورَةُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ فِي الخَارِجِ عَنِ الذِّهْنِ تَقُومُ بِمَوْجُودٍ وَلَيْسَتْ مَوْجُودَةً بِالاسْتِقْلَالِ وَلَا مَعْدُومَةً عَدَماً صِرْفاً، بَلْ هِيَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ المَوْجُودِ وَالمَعْدُومِ[1]، أَيْ أَنَّهَا لَمْ تَبْلُغْ دَرَجَةَ المَوْجُودِ وَلَمْ تَنْحَطَّ إِلَى دَرَجَةِ المَعْدُومِ، وَلِعَدَمِ بُلُوغِهَا دَرَجَةَ المَوْجُودِ لَا تُـمْكِنُ رُؤْيَتُهَا.

تَنْبِيهَانِ

* **الأَوَّلُ**: لَمْ يَتَّفِقْ المُتَكَلِّمُونَ عَلَى ثُبُوتِ الحَالِ المَذْكُورَةِ، بَلِ اخْتَلَفُوا فَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ إِلَى ثُبُوتِهَا، وَقَالُوا: إِنَّ مَدْلُولَ الأَكْوَانِ السَّبْعَةِ أَيْ مَعْنَاهَا مِنْ بَابِ الحَالِ، فَمَدْلُولُ كَوْنِهِ قَادِراً عِنْدَهُمْ حَالٌ قَائِمَةٌ بِالذَّاتِ العَلِيَّةِ، زَائِدَةٌ عَلَى قِيَامِ القُدْرَةِ بِهَا، وَهْيَ مَدْلُولُ القَادِرِيَّةِ عِنْدَهُمْ، وَمَدْلُولُ كَوْنِهِ مُرِيداً حَالٌ

---

(١) الحَالُ عِنْدَ مَنْ أَثْبَتَهَا: هِيَ صِفَةٌ لِلْمَوْجُودِ، لَا تَكُونُ مَوْجُودَةً وَلَا مَعْدُومَةً. وَاحْتَرَزُوا بِقَوْلِهِمْ «لِلْمَوْجُودِ» عَنْ صِفَاتِ المَعْدُومِ، فَإِنَّهَا تَكُونُ مَعْدُومَةً، لَا حَالًا. وَبِقَوْلِهِمْ «لَا تَكُونُ مَوْجُودَةً» عَنِ الصِّفَاتِ الوُجُودِيَّةِ مِثْل العِلْمِ وَالقُدْرَةِ. وَبِقَوْلِهِمْ «وَلَا مَعْدُومَةً» عَنْ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ. فَعِنْدَ مُثْبِتِي الأَحْوَالِ قِيَامُ العِلْمِ بِالذَّاتِ يَسْتَلْزِمُ لَهَا حُكْماً وَهُوَ العَالِمِيَّةُ، فَالعَالِمِيَّةُ عِنْدَهُمْ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى قِيَامِ العِلْمِ بِالذَّاتِ، ثَابِتٌ مُلَازِمٌ لِلْعِلْمِ.
وَمَنْ نَفَى الحَالَ قَالَ: العَالِمِيَّةُ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِيَامِ العِلْمِ بِالذَّاتِ لَا غَيْرَ، وَالحَالُ لَيْسَتْ سِوَى اعْتِبَارَاتٍ ذِهْنِيَّة، وَلَيْسَتْ وَاسِطَةً بَيْنَ الوُجُودِ وَالعَدَمِ كَمَا يَقُولُ مَنْ يُثْبِتُهَا، فَإِنَّ كُلَّ مَا يُشِيرُ العَقْلُ إِلَيْهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ تَحَقُّقٌ بِوَجْهٍ مَا مِنَ الوُجُوهِ أَوْ لَا يَكُونُ، وَالأَوَّلُ هُوَ المَوْجُودُ، وَالثَّانِي هُوَ المَعْدُومُ. وَالوُجُودُ يُرَادِفُ الثُّبُوتَ، وَالعَدَمُ يُرَادِفُ النَّفْيَ، فَكَمَا أَنَّ المَنْفِيَّ لَيْسَ بِثَابِتٍ وَلَا مَوْجُودٍ فَكَذَا المَعْدُومُ، وَكَمَا أَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الثَّابِتِ وَالمَنْفِيِّ فَكَذَا بَيْنَ المَوْجُودِ وَالمَعْدُومِ. وَهَذَا القَوْلُ هُوَ الَّذِي رَجَّحَهُ العَلَّامَةُ المَارغْنِيُّ كما سيأتي.

قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى زَائِدَةٌ عَلَى قِيَامِ الإِرَادَةِ بِهَا، وَهَكَذَا بَاقِي الأَكْوَانِ.

وَذَهَبَ الإِمَامُ الأَشْعَرِيُّ[1] وَالمُحَقِّقُونَ إِلَى نَفْيِ الحَالِ، وَقَالُوا: إِنَّ ثُبُوتَهَا مِنَ المُحَالِ، وَأَنَّ مَدْلُولَ الأَكْوَانِ السَّبْعَةِ هُوَ قِيَامُ صِفَاتِ المَعَانِي بِالذَّاتِ العَلِيَّةِ، لَا صِفَات زَائِدَة عَلَيْهِ، فَمَدْلُولُ كَوْنِهِ قَادِراً عِنْدَهُمْ هُوَ نَفْسُ قِيَامِ القُدْرَةِ بِالذَّاتِ، وَهْوَ مَدْلُولُ القَادِرِيَّةِ عِنْدَهُمْ أَيْضاً، وَمَدْلُولُ كَوْنِهِ عَالِماً هُوَ نَفْسُ قِيَامِ العِلْمِ بِالذَّاتِ، وَهْوَ مَدْلُولُ العَالِمِيَّةِ عِنْدَهُمْ أَيْضاً، وَهَكَذَا بَاقِي الأَكْوَانِ.

وَعَلَى المَذْهَبِ الأَوَّلِ تُعَدُّ الأَكْوَانُ السَّبْعَةُ مِنَ الصِّفَاتِ لِأَنَّ مَدْلُولَاتِهَا عَلَيْهِ أَحْوَالٌ، وَالأَحْوَالُ صِفَاتٌ قَائِمَةٌ بِالذَّاتِ زَائِدَةٌ عَلَى قِيَامِ صِفَاتِ المَعَانِي بِهَا. وَقَدْ مَشَى المُصَنِّفُ فِي هَذِهِ العَقِيدَةِ عَلَى هَذَا المَذْهَبِ، وَلِذَا عَدَّ فِيهَا تِلْكَ الأَكْوَانَ مِنَ الصِّفَاتِ.

وَأَمَّا عَلَى المَذْهَبِ الثَّانِي فَلَا تُعَدُّ الأَكْوَانُ السَّبْعَةُ مِنَ الصِّفَاتِ لِأَنَّ مَدْلُولَهَا ـ الَّذِي هُوَ قِيَامُ صِفَاتِ المَعَانِي بِالذَّاتِ ـ لَيْسَ فِي الحَقِيقَةِ مِنَ الصِّفَاتِ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ اعْتِبَارِيٌّ[2]، أَيْ أَمْرٌ ثَابِتٌ فِي ذِهْنِ المُعْتَبِرِ لَا فِي الخَارِجِ

(١) هُوَ إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ: عَلِيّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنُ إِسْحَاقَ، أَبُو الحَسَنِ الأَشْعَرِيّ (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ)

(٢) سُئِل الإمام السنوسي عن معنى قول العلماء: الصفة المعنوية هي وجه واعتبار فأجاب بقوله: معنى قولنا الصفات المعنوية وجه واعتبار التنبيه على نفي الحال، وأن ما يتخيل من ثبوت الحال في الخارج ليس بصحيح، وإنما هو وجه يعتبره الذهن، لا أمر وجودي، فالعلم مثلا إذا قام بمحل فله أوجه يعتبرها الذهن، فإن اعتبره من حيث حقيقته فهو صفة معنى وجودية، وإن اعتبره من حيث صار محله عالماً فهو المعنى الذي يعبرون عنه بالعالمية، وليس له ثبوت في الخارج، وإنما هو وجه اعتبره العقل من أوجه العلم، وإن اعتبر العقل العلم من حيث انكشاف المعلوم به سمي هذا الوجه تعلقا، وإن اعتبره=

عَنْهُ، وَقَدْ مَشَى المُصَنِّفُ فِي «صُغْرَى الصُّغْرَى» عَلَى هَذَا المَذْهَبِ، وَهْوَ الأَصَحُّ، وَلِهَذَا أَسْقَطَ فِيهَا تِلْكَ الأَكْوَانَ مِنَ الصِّفَاتِ وَاقْتَصَرَ عَلَى ثَلَاثَ عَشْرَةَ صِفَةٍ.

ـ **التَّنْبِيهُ الثَّانِي**: عُلِمَ مِمَّا قَرَّرْنَاهُ قَبْلُ أَنَّ الخِلَافَ بَيْنَ المُتَكَلِّمِينَ إِنَّمَا هُوَ فِي مَدْلُولِ الأَكْوَانِ السَّبْعَةِ هَلْ هُوَ مِنَ الأَحْوَالِ أَوْ مِنَ الأُمُورِ الاعْتِبَارِيَّةِ، وَأَمَّا وُجُوبُ تِلْكَ الأَكْوَانِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَيْهِ كُلُّهُمْ، وَإِنْكَارُهُ كُفْرٌ كَمَا صَرَّحُوا بِهِ، فَتَدَبَّرْ وَلَا تَغْتَرَّ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

** ** **

= العقل من حيث وجوده في محل سمي هذا الوجه قياماً، فرجعت الأحوال كلها في هذا القدر إلى وجوه يعتبرها العقل للأمور الوجودية. (راجع الدر الثمين والمورد المعين على الضرورة من علوم الدين لميارة، ج١/ص ٢٨)



المُسْتَحِيلَاتُ عَلَى اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ

جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

لَمَّا فَرَغَ المُؤَلِّفُ مِنْ بَيَانِ مَا يَجِبُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، شَرَعَ فِي بَيَانِ مَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ، وَهْوَ القِسْمُ الثَّانِي مِـمَّا يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهُ فَقَالَ: (**وَمِـمَّا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى عِشْرُونَ صِفَةً، وَهْيَ أَضْدَادُ العِشْرِينَ الأُولَى**) الوَاجِبَةِ لَهُ.

وَالأَضْدَادُ جَمْعُ ضِدٍّ، وَهْوَ فِي اللُّغَةِ الأَمْرُ المُنَافِي لِغَيْرِهِ، سَوَاءٌ كَانَ وُجُودِيّاً أَوْ عَدَمِيّاً، وَفِي الاصْطِلَاحِ: الأَمْرُ الوُجُودِيُّ الَّذِي يُقَابِلُ أَمْراً وُجُودِيّاً آخَرَ، وَلَا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُهُ مَعَهُ، وَقَدْ يَرْتَفِعُ هُوَ وَمُقَابِلُهُ، وَذَلِكَ كَالبَيَاضِ وَالسَّوَادِ فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَمْرٌ وُجُودِيٌّ يُقَابِلُ الآخَرَ وَلَا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُهُمَا فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ، وَقَدْ يَرْتَفِعَانِ عَنِ المَحَلِّ الوَاحِدِ بِأَنْ يَكُونَ لَا أَبْيَضَ وَلَا أَسْوَدَ، بَلْ أَحْمَرَ مَثَلًا.

وَمُرَادُ الشَّيْخِ بِالضِّدِّ هُنَا الضِّدُّ بِالمَعْنَى اللُّغَوِيِّ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى كُلُّ مَا يُنَافِي الصِّفَاتِ الأُولَى، لَا الضِّدُّ بِالمَعْنَى الاصْطِلَاحِيِّ لِكَوْنِ الصِّفَاتِ العِشْرِينَ المُسْتَحِيلَةَ لَيْسَتْ كُلُّهَا أَضْدَاداً اصْطِلَاحِيَّةً.

وَقَدْ رَتَّبَ العِشْرِينَ المُسْتَحِيلَةَ عَلَى تَرْتِيبِ العِشْرِينَ الوَاجِبَةِ فَقَالَ:



(وَهِيَ: العَدَمُ) وَهْوَ ضِدُّ الوُجُودِ.

(وَالحُدُوثُ) وَهْوَ ضِدُّ القِدَمِ.

(وَطُرُوُّ العَدَمِ) وَهْوَ ضِدُّ البَقَاءِ، وَمَعْنَى طُرُوِّ العَدَمِ: حُصُولُهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيُسَمَّى الفَنَاءُ.

(وَالمُمَاثَلَةُ لِلْحَوَادِثِ) وَهِيَ ضِدُّ المُخَالَفَةِ لِلْحَوَادِثِ، وَصَوَّرَ المُؤَلِّفُ المُمَاثَلَةَ لِلْحَوَادِثِ بِعَشْرِ صُوَرٍ فَقَالَ:

١ ـ **(بِأَنْ يَكُونَ)** تَعَالَى **(جِرْماً، أَيْ تَأْخُذ ذَاتُهُ العَلِيَّةُ قَدْراً مِنَ الفَرَاغِ)** فَذَاتُهُ العَلِيَّةُ لَيْسَتْ كَذَوَاتِ الحَوَادِثِ تَأْخُذُ قَدْراً مِنَ الفَرَاغِ، وَلَا يَعْلَمُ ذَاتَهُ سُبْحَانَهُ إِلَّا هُوَ.

٢ ـ **(أَوْ)** بِأَنْ **(يَكُونَ)** جَلَّ وَعَلَا **(عَرَضاً)** أَيْ **(يَقُومُ بِالجِرْمِ)** وَالعَرَضُ ـ بِفَتْحِ الرَّاءِ ـ لَا يَكُونُ إِلَّا حَادِثاً، بِخِلَاف الصِّفَةِ فَقَدْ تَكُونُ حَادِثَةً إِذَا كَانَتْ لِحَادِثٍ، وَقَدْ تَكُونُ قَدِيمَةً إِذَا كَانَتْ لِقَدِيمٍ.

٣ ـ **(أَوْ)** بِأَنْ **(يَكُونَ)** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **(فِي جِهَةٍ لِلْجِرْمِ)** فَلَيْسَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فَوْقَ جِرْمٍ مِنَ الأَجْرَامِ كَالعَرْشِ، وَلَا تَحْتَهُ، وَلَا أَمَامَهُ، وَلَا خَلْفَهُ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ شِمَالِهِ.

٤ ـ **(أَوْ)** بِأَنْ يَكُونَ **(لَهُ هُوَ)** أَيْ اللَّهُ تَعَالَى **(جِهَةٌ)** فَلَيْسَ لَهُ فَوْق وَلَا تَحْت وَلَا أَمَامَ وَلَا خَلْفَ وَلَا يَمِينَ وَلَا شِمَالَ.

٥ ـ **(أَوْ)** بِأَنْ **(يَتَقَيَّدَ)** تَعَالَى **(بِمَكَانٍ)**.



٦ ـ (أَوْ) بِأَنْ يَتَقَيَّدَ بِـ(زَمَانٍ).

المُرَادُ بِتَقَيُّدِهِ تَعَالَى بِالمَكَانِ وَالزَّمَانِ أَنْ لَا يَتَحَقَّقَ وُجُودُهُ إِلَّا فِيهِمَا، وَإِنَّمَا اسْتَحَالَ عَلَيْهِ ـ جَلَّ وَعَزَّ ـ التَّقَيُّدُ بِهِمَا لِأَنَّهُمَا حَادِثَانِ، فَلَا يَتَقَيَّدُ بِهِمَا إِلَّا الحَادِثُ مِثْلُهُمَا، وَاللَّـهُ سُبْحَانَهُ قَدِيمٌ، فَوُجُودُهُ مُتَحَقِّقٌ قَبْلَ المَكَانِ وَالزَّمَانِ، فَلَا يَتَقَيَّدُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَلِهَذَا لَا يُقَالُ: «اللَّـهُ فِي مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ» لِئَلَّا يُوهِمَ تَقَيُّدَهُ بِهِمَا. نَعَمْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: اللَّـهُ مَوْجُودٌ قَبْلَ المَكَانِ وَالزَّمَانِ، وَمَعَهُمَا، وَبَعْدَهُمَا[1].

وَيُؤْخَذُ مِنِ اسْتِحَالَةِ تَقَيُّدِهِ تَعَالَى بِالزَّمَانِ اسْتِحَالَةُ اتِّصَافِهِ بِطُولِ العُمْرِ أَوْ قِصَرِهِ.

٧ ـ (أَوْ) بِأَنْ (تَتَّصِفَ ذَاتُهُ العَلِيَّةُ بِالحَوَادِثِ) فَلَا يَتَّصِفُ سُبْحَانَهُ بِحَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ[2]، وَلَا بَيَاضٍ وَلَا سَوَادٍ، وَلَا طُولٍ وَلَا قِصَرٍ، وَلَا بِقُدْرَةٍ حَادِثَةٍ وَلَا

---

(١) وكان ذلك جائزاً لأن قبلية الله ﷻ للزمان والمكان وبعديته ومعيته لهما مجرد أمور اعتبارية لا وجود لها في الخارج، فلا استحالة في تجدد وصف الله تعالى بها، وإنما الممنوع هو اتصافه ﷻ بالحوادث الوجودية، وفي ذلك يقول العلامة قاضي الجماعة البكي التونسي: صانع العالَم يستحيل أن تَحُلَّ الحوادثُ به، والمراد هنا بالحوادث: ما له وجودٌ حقيقيٌّ مسبوقٌ بالعدم، لا المتجدِّدَ من الصفات الإضافية التي لا وجود لها، ككونه جلَّ وعلا قَبْلَ العالَم ومَعهُ وبعدَه، أو السلبية ككونه مَثلاً غير رازقٍ لزيدٍ الميِّت، ولا ما يَتبَع تعلُّقَ صفاته كالخالق والرازق، فإنّ هذا كله ليس محلَّ النزاع. وبالجملة ففَرْقٌ بين الحادث والمتجدِّد، فهو جلّ وعلا لا يتَّصِفُ بحادثٍ، ويجوز اتصافُه بالمُتجدِّد، إذ الصفات المتجدِّدَة مَحضُ اعتبارٍ وإضافةٍ، فلم يلزم من ذلك محال. وبهذا التحقيق يُعلَم مَحلُّ النزاعِ، وهو الذي حرَّرناه. (تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب، للشيخ البكي الكومي التونسي، ص ١١٨، ط١ مؤسسة المعارف ـ لبنان)

(٢) تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَئِمَّةِ أَهْلِ الحَقِّ وَالسُّنَّةِ؛ وَقَدْ=

عِلْمٍ حَادِثٍ، وَلَا بِمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

٨ ـ **(أَوْ يَتَّصِفَ)** تَعَالَى **(بِالصِّغَرِ)** بِمَعْنَى قِلَّةِ الأَجْزَاءِ.

٩ ـ **(أَوْ)** بِأَنْ يَتَّصِفَ بِـ**(الكِبَرِ)** بِمَعْنَى كَثْرَةِ الأَجْزَاءِ، فَلَيْسَ اللَّهُ ـ جَلَّ ذِكْرُهُ ـ قَلِيلَ الأَجْزَاءِ كَالآدَمِيِّ الصَّغِيرِ، وَلَا كَثِيرَ الأَجْزَاءِ كَالآدَمِيِّ الطَّوِيلِ العَرِيضِ.

وَأَمَّا الكِبَرُ بِمَعْنَى العَظَمَةِ فِي المَرْتَبَةِ وَالشَّرَفِ فَمِمَّا يَجِبُ اتِّصَافُهُ بِهِ تَعَالَى، وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

١٠ ـ **(أَوْ)** بِأَنْ **(يَتَّصِفَ بِالأَغْرَاضِ فِي الأَفْعَالِ أَوِ الأَحْكَامِ)** الأَغْرَاضُ جَمْعُ غَرَضٍ وَهْوَ الأَمْرُ البَاعِثُ أَيْ الحَامِلُ عَلَى فِعْلٍ أَوْ حُكْمٍ، وَيُسَمَّى سَبَباً بَاعِثاً وَعِلَّةً بَاعِثَةً.

مَثَلًا إِذَا قَصَدْتَ إِخْرَاجَ المَاءِ مِنَ الأَرْضِ فَحَفَرْتَهَا حَتَّى خَرَجَ المَاءُ

= نَقَلَ الإِمَامُ **ابْنُ جَرِير الطَّبَرِيُّ**: اجْتِمَاعَ المُوَحِّدِينَ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى فَسَادِ وَصْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِالحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ. (التبصير، ص ٢٠١) وَقَالَ **الإِمَامُ الخَطَّابِيُّ** فِي شَرْحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: «اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُوصَفُ بِالحَرَكَةِ؛ لِأَنَّ الحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ يَتَعَاقَبَانِ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ، وَإِنَّمَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالحَرَكَةِ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالسُّكُونِ، وَكِلَاهُمَا مِنْ أَعْرَاضِ الحَدَثِ وَأَوْصَافِ المَخْلُوقِينَ، وَاللَّهُ ﷻ مُتَعَالٍ عَنْهُمَا، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (معالم السنن، ج٤/ص ٣٣٢) وَقَالَ الإِمَامُ القَاضِي **مُحَمَّدُ بْنُ رُشْدٍ الجَدُّ**: «لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ تَعَالَى مَا يَجُوزُ عَلَى الجَوَاهِرِ وَالأَجْسَامِ مِنْ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ وَالزَّوَالِ وَالانْتِقَالِ وَالتَّغَيُّرِ وَالمَنَافِعِ وَالمَضَارِّ، وَلَا تَحْوِيهِ الأَمْكِنَةُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ الأَزْمِنَةُ». (المقدمات الممهدات، ج١/ص٢٣ طبعة دار الغرب الإسلامي)

فَالحَفْرُ فِعْلٌ، وَخُرُوجُ المَاءِ غَرَضٌ، أَيْ أَمْرٌ بَاعِثٌ لَكَ عَلَى الحَفْرِ، وَاللَّـهُ جَلَّ جَلَالَهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّصِفَ بِغَرَضٍ يَبْعَثُهُ عَلَى فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِ كَإِيجَادِهِ لِزَيْدٍ، أَوْ عَلَى حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِهِ كَإِيجَابِهِ لِلصَّلَاةِ وَتَحْرِيمِهِ لِلزِّنَى لِمَا سَيَذْكُرُهُ المُصَنِّفُ آخِرَ العَقِيدَةِ.

نَعَمْ، أَفْعَالُ اللَّـهِ وَأَحْكَامُهُ لَا تَخْلُو عَنْ حِكْمَةٍ وَإِنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا عُقُولُنَا لِأَنَّهَا لَوْ خَلَتْ عَنِ الحِكْمَةِ لَكَانَتْ عَبَثاً، وَهْوَ مُحَالٌ عَلَيْهِ تَعَالَى.

وَالحِكْمَةُ: مَا يَتَرَتَّبُ عَنِ الفِعْلِ أَوِ الحُكْمِ، وَلَا يَكُونُ بَاعِثاً عَلَيْهِ، كَالرُّكُوبِ وَالزِّينَةِ فَإِنَّهُمَا الحِكْمَةُ فِي خَلْقِ اللَّـهِ الخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ كَمَا ذَكَرَهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

وَإِنَّمَا لَمْ تَكُنْ الحِكْمَةُ بَاعِثَةً لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَعْلَمُ قَبْلَ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ الفِعْلُ وَالحُكْمُ أَنَّهَا تَتَرَتَّبُ قَطْعاً عَلَى فِعْلِهِ وَحُكْمِهِ، بِخِلَافِ صَاحِبِ الغَرَضِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ وَيَقْصِدُ مِنْ فِعْلِهِ وَحُكْمِهِ حُصُولَ غَرَضِهِ وَلَا يَعْلَمُ هَلْ يَتَرَتَّبُ غَرَضُهُ عَلَيْهِمَا أَوْ لَا يَتَرَتَّبُ.

أَلَا تَرَى إِلَى حَافِرِ الأَرْضِ لِيُخْرِجَ المَاءَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ وَيَقْصِدُ مِنْ حَفْرِهِ خُرُوجَ المَاءِ، وَلَا يَعْلَمُ هَلْ يَخْرُجُ المَاءُ أَوْ لَا يَخْرُجُ، وَاللَّـهُ تَعَالَى قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي الأَزَلِ بِأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ وَبِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا، فَلَا تَكُونُ الأُمُورُ المُتَرَتِّبَةُ عَلَى أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ حَامِلَةً لَهُ عَلَيْهِمَا وَإِلَّا كَانَتْ أَغْرَاضاً، وَهْوَ جَلَّ وَعَزَّ مُنَزَّهٌ عَنْهَا لِمَا سَيَأْتِي.

ثُمَّ ذَكَرَ المُصَنِّفُ ضِدَّ قِيَامِهِ تَعَالَى بِنَفْسِهِ فَقَالَ: **(وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ**



تَعَالَى أَنْ لَا يَكُونَ قَائِماً بِنَفْسِهِ) أَيْ بِذَاتِهِ.

وَلَمَّا فَسَّرَ فِي الصِّفَاتِ الوَاجِبَةِ لِلَّـهِ قِيَامَهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ بِأَمْرَيْنِ: سَلْبُ افْتِقَارِهِ تَعَالَى إِلَى مَحَلٍّ، وَسَلْبُ افْتِقَارِهِ إِلَى مُخَصِّصٍ، صَوَّرَ هُنَا ضِدَّ قِيَامِهِ تَعَالَى بِنَفْسِهِ بِثُبُوتِ الأَمْرَيْنِ المَذْكُورَيْنِ فَقَالَ: **(بِأَنْ يَكُونَ)** جَلَّ وَعَلَا **(صِفَةً)** أَيْ **(يَقُومُ بِمَحَلٍّ)** أَيْ ذَاتٍ، **(أَوْ)** بِأَنْ **(يَحْتَاجُ إِلَى مُخَصِّصٍ)** أَيْ فَاعِلٍ وَمُوجِدٍ.

ثُمَّ ذَكَرَ ضِدَّ الوَحْدَانِيَّةِ فَقَالَ: **(وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى أَنْ لَا يَكُونَ وَاحِداً)** وَهَذَا الضِّدُّ يَنْحَلُّ إِلَى خَمْسَةِ أُمُورٍ وَهْيَ أَضْدَادُ الأُمُورِ الخَمْسَةِ الَّتِي فَسَّرْنَا بِهَا فِيمَا تَقَدَّمَ الوَحْدَانِيَّةَ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالأَفْعَالِ.

فَضِدُّ الوَحْدَانِيَّةِ فِي الذَّاتِ أَمْرَانِ صَوَّرَهُمَا بِقَوْلِهِ: **(بِأَنْ يَكُونَ مُرَكَّباً فِي ذَاتِهِ، أَوْ يَكُونَ لَهُ مُـمَاثِلٌ فِي ذَاتِهِ)**.

وَضِدُّ الوَحْدَانِيَّةِ فِي الصِّفَاتِ أَمْرَانِ أَيْضاً ذَكَرَ أَحَدَهُمَا بِقَوْلِهِ: **(أَوْ فِي صِفَاتِهِ)** يَعْنِي أَوْ يَكُونَ لَهُ مُمَاثِلٌ فِي صِفَاتِهِ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ الأَمْرُ الثَّانِي وَهْوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ صِفَتَانِ فَأَكْثَرَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ كَقُدْرَتَيْنِ فَأَكْثَرَ.

وَضِدُّ الوَحْدَانِيَّةِ فِي الأَفْعَالِ أَمْرٌ وَاحِدٌ أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: **(أَوْ يَكُونَ مَعَهُ فِي الوُجُودِ مُؤَثِّرٌ)** أَيْ خَالِقٌ، فَهْوَ سُبْحَانَهُ المُنْفَرِدُ بِالتَّأْثِيرِ وَالخَلْقِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ البَرَاهِينُ العَقْلِيَّةُ وَالنَّقْلِيَّةُ.

وَمِنْ هَذَا يُعْلَمُ أَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لِلأَسْبَابِ العَادِيَّةِ فِي مُسَبَّبَاتِهَا، فَلَا تَأْثِيرَ لِلنَّارِ فِي الحَرْقِ، وَلَا لِلسِّكِّينِ فِي القَطْعِ، وَلَا لِلْمَاءِ فِي الرِّيِّ وَالإِنْبَاتِ، وَلَا لِنَحْوِ

ذَلِكَ مِمَّا لَا يَنْحَصِرُ، وَإِنَّمَا أَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى العَادَةَ اخْتِيَاراً مِنْهُ بِإِيجَادِ المُسَبَّبَاتِ عِنْدَ وُجُودِ أَسْبَابِهَا، أَيْ مَعَهَا لَا بِهَا، وَقَدْ يُوجَدُ السَّبَبُ دُونَ المُسَبَّبِ خَرْقاً لِلْعَادَةِ، كَالنَّارِ دُونَ الحَرْقِ، كَمَا وَقَعَ لِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيم الخَلِيل عَلَيهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ أُلْقِيَ فِي نَارٍ عَظِيمَةٍ وَلَمْ تَحْرِقْهُ، بَلْ كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلَاماً كَمَا أَخْبَرَ بِهِ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ.

هَذَا هُوَ اعْتِقَادُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الأَسْبَابِ العَادِيَّةِ، وَمُعْتَقِدُهُ هُوَ المُؤْمِنُ النَّاجِي بِفَضْلِ اللَّهِ مِنْ أَهْوَالِ الآخِرَةِ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى سُوءِ الاعْتِقَادِ.

وَكَذَا لَا تَأْثِيرَ لِلْعِبَادِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الأَحْيَاءِ فِي أَفْعَالِهِمْ، وَهْيَ قِسْمَانِ: اضْطِرَارِيَّةٌ، وَاخْتِيَارِيَّةٌ، فَالأَفْعَالُ الاضْطِرَارِيَّةُ هِيَ الَّتِي يَخْلُقُهَا اللَّهُ لِلْحَيِّ وَلَا يَكُونُ لَهُ فِيهَا اخْتِيَارٌ وَلَا قُدْرَةٌ، كَحَرَكَةِ الارْتِعَاشِ فَإِنَّ صَاحِبَهَا مُضْطَرٌّ وَمَجْبُورٌ عَلَيْهَا فِي الظَّاهِرِ أَيْ المُشَاهَدَةِ وَفِي البَاطِنِ أَيْ الحَقِيقَةِ وَالوَاقِعِ، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الخَالِقَ لِلأَفْعَالِ الاضْطِرَارِيَّةِ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ تَفَضَّلَ سُبْحَانَهُ بِإِسْقَاطِ التَّكْلِيفِ عَنِ المُضْطَرِّ.

وَأَمَّا الأَفْعَالُ الاخْتِيَارِيَّةُ فَهْيَ الَّتِي يَخْلُقُهَا اللَّهُ فِي الحَيِّ كَالعَبْدِ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا اخْتِيَارٌ، وَيَخْلُقُ اللَّهُ لَهُ مَعَهَا قُدْرَةً. وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ خَلْقَ فِعْلٍ اخْتِيَارِيٍّ فِي العَبْدِ مَثَلًا كَالقِيَامِ وَالقُعُودِ وَالمَشْيِ فَإِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يُخْطِرُهُ بِبَالِ العَبْدِ وَيَجْعَلُ لِخَلْقِهِ فِيهِ سَبَباً، وَهْوَ اخْتِيَارُهُ لِذَلِكَ الفِعْلِ، بِمَعْنَى إِرَادَتِهِ لَهُ وَمَيْلِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا اخْتَارَهُ وَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ خَلَقَهُ اللَّهُ فِيهِ وَخَلَقَ لَهُ مَعَهُ قُدْرَةً وَهْيَ صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِالفِعْلِ الاخْتِيَارِيِّ أَيْ تَرْتَبِطُ وَتَقْتَرِنُ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهَا فِيهِ تَأْثِيرٌ، فَهْيَ كَالأَسْبَابِ العَادِيَّةِ، يَخْلُقُ اللَّهُ الفِعْلَ عِنْدَهَا ـ أَيْ مَعَهَا ـ لَا بِهَا.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ تَعَلُّقِهَا بِالفِعْلِ الاخْتِيَارِيِّ تَأْثِيرُهَا فِيهِ لِأَنَّ الصِّفَةَ قَدْ تَتَعَلَّقُ وَلَا تُؤَثِّرُ كَالعِلْمِ، فَإِنَّهُ مِنَ الصِّفَاتِ المُتَعَلِّقَةِ، وَلَا تَأْثِيرَ لَهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

وَذَلِكَ التَّعَلُّقُ ـ أَعْنِي تَعَلُّقَ القُدْرَةِ الحَادِثَةِ بِالفِعْلِ الاخْتِيَارِيِّ، أَيْ ارْتِبَاطُهَا وَاقْتِرَانُهَا بِهِ ـ هُوَ المُسَمَّى بِالكَسْبِ، وَلِأَجْلِهِ يُضَافُ الفِعْلُ الاخْتِيَارِيُّ إِلَى الحَيِّ وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ، كَمَا تُضَافُ وَتُنْسَبُ إِلَيْهِ أَعْضَاؤُهُ كَرَأْسِهِ وَيَدِهِ وَرِجْلِهِ مَعَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّـهِ وَحْدَهُ.

فَالفِعْلُ الاخْتِيَارِيُّ يُنْسَبُ لِلَّـهِ خَلْقاً وَلِلْحَيِّ كَسْباً، وَيَصِحُّ نِسْبَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لِفَاعِلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِجِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، كَالدَّارِ المُسْتَأْجَرَةِ تُنْسَبُ لِمَالِكِهَا بِجِهَةِ المِلْكِ، وَلِمُسْتَأْجِرِهَا بِجِهَةِ الانْتِفَاعِ، لَكِنَّ الأَدَبَ أَنْ لَا يُنْسَبَ لِلَّـهِ تَعَالَى إِلَّا الحَسَنُ، فَيُنْسَبُ الخَيْرُ لِلَّهِ وَالشَّرُّ لِلنَّفْسِ وَإِنْ كَانَ مَنْسُوباً لِلَّـهِ خَلْقاً.

وَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي الأَفْعَالِ الاخْتِيَارِيَّةِ هُوَ مَذْهَبُ الإِمَامِ الأَشْعَرِيِّ، وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَهْوَ الحَقُّ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَتَرْكُ مَا خَالَفَهُ مِنَ المَذَاهِبِ.

وَعَلَيْهِ فَلَيْسَ لِلْحَيِّ كَالإِنْسَانِ فِي الأَفْعَالِ الاخْتِيَارِيَّةِ إِلَّا الاخْتِيَارُ فِي الظَّاهِرِ وَالكَسْبُ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: «فِي الظَّاهِرِ» لِأَنَّهُ فِي البَاطِنِ مَجْبُورٌ لِأَنَّ اللَّـهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ فِيهِ الاخْتِيَارَ كَمَا خَلَقَ فِيهِ الفِعْلَ وَالقُدْرَةَ المُقَارِنَةَ لَهُ، فَهْوَ مَجْبُورٌ فِي صُورَةِ مُخْتَارٍ، كَالقَلَمِ فِي يَدِ الكَاتِبِ.

وَقَدْ رَتَّبَ اللَّـهُ ﷻ عَلَى الاخْتِيَارِ فِي الظَّاهِرِ وَعَلَى الكَسْبِ التَّكْلِيفَ وَالثَّوَابَ وَالعِقَابَ، وَلِلَّـهُ التَّصَرُّفُ فِي خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ، لَا رَادَّ لِحُكْمِهِ وَلَا

مُعَقِّبَ لِقَضَائِهِ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ثُمَّ ذَكَرَ المُؤَلِّفُ ضِدَّ القُدْرَةِ وَهْوَ العَجْزُ فَقَالَ: (**وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى العَجْزُ عَنْ مُـمْكِنٍ مَا**) العَجْزُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ قَائِمَةٌ بِالعَاجِزِ لَا يَتَأَتَّى مَعَهَا إِيجَادٌ وَلَا إِعْدَامٌ، وَيَتَعَلَّقُ بِالمُمْكِنَاتِ كَالقُدْرَةِ.

وَ«مَا» مِنْ قَوْلِ المُصَنِّفِ «عَنْ مُـمْكِنٍ مَا» نَكِرَةٌ، صِفَةٌ لِـ«مُمْكِنٍ» دَالَّةٌ عَلَى عُمُومِهِ، وَالمَعْنَى: يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى العَجْزُ عَنْ مُـمْكِنٍ، أَيِّ مُـمْكِنٍ كَانَ، سَوَاءٌ كَانَ ذَاتاً أَوْ صِفَةً أَوْ فِعْلًا لِوُجُوبِ تَعَلُّقِ قُدْرَتِهِ بِجَمِيعِ المُمْكِنَاتِ.

ثُمَّ ذَكَرَ ضِدَّ الإِرَادَةِ وَهْوَ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ أَشَارَ إِلَى الأَوَّلِ مِنْهَا بِقَوْلِهِ: (**وَإِيجَادُ شَيْءٍ**) يَعْنِي: وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى أَنْ يُوجِدَ شَيْئاً أَوْ يُعْدِمَهُ (**مِنَ العَالَمِ**) بِفَتْحِ اللَّامِ (**مَعَ كَرَاهَتِهِ**) تَعَالَى (**لِوُجُودِهِ**) أَيْ لِوُجُودِ ذَلِكَ الشَّيْءِ أَوْ عَدَمِهِ.

وَقَوْلُهُ: (**أَيْ عَدَمِ إِرَادَتِهِ لَهُ تَعَالَى**) تَفْسِيرٌ لِلْكَرَاهَةِ، وَهْيَ بِهَذَا التَّفْسِيرِ يَسْتَحِيلُ اجْتِمَاعُهَا مَعَ الإِيجَادِ أَوِ الإِعْدَامِ، إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَقَعَ فِي مُلْكِهِ تَعَالَى مَا لَا يُرِيدُ لِوُجُوبِ عُمُومِ تَعَلُّقِ إِرَادَتِهِ بِجَمِيعِ المُمْكِنَاتِ، خَيْراً كَانَتْ أَوْ شَرّاً، طَاعَةً كَانَتْ أَوْ مَعْصِيَةً.

وَاحْتَرَزَ بِتَفْسِيرِ الكَرَاهَةِ بِعَدَمِ الإِرَادَةِ عَنِ الكَرَاهَةِ بِمَعْنَى النَّهْيِ عَنِ الفِعْلِ شَرْعاً، فَإِنَّهُ يَجُوزُ اجْتِمَاعُهَا مَعَ الإِيجَادِ، فَيُوجِدُ اللَّهُ تَعَالَى الفِعْلَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَهُ، أَيْ مَعَ نَهْيِهِ عَنْهُ، كَمَا أَضَلَّ كَثِيراً مِنَ الخَلْقِ مَعَ نَهْيِهِ لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الضَّلَالِ.

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الأَمْرِ الثَّانِي مِمَّا يُضَادُّ الإِرَادَةَ بِقَوْلِهِ: **(أَوْ مَعَ الذُّهُولِ أَوِ الغَفْلَةِ)** أَيْ: وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا إِيجَادُ شَيْءٍ مِنَ العَالَمِ مَعَ كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ ذَاهِلًا أَوْ غَافِلًا عَنْهُ. وَالذُّهُولُ: هُوَ الغَيْبَةُ عَنِ الشَّيْءِ بَعْدَ سَبْقِ العِلْمِ بِهِ. وَالغَفْلَةُ: هِيَ الغَيْبَةُ عَنِ الشَّيْءِ، سَبَقَ العِلْمُ بِهِ أَوْ لَا، وَكِلَاهُمَا مُنَافٍ لِلْإِرَادَةِ.

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الأَمْرِ الثَّالِثِ مِمَّا يُضَادُّ الإِرَادَةَ بِقَوْلِهِ: **(أَوْ بِالتَّعْلِيلِ أَوْ بِالطَّبْعِ)** يَعْنِي: وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى إِيجَادُ شَيْءٍ بِالتَّعْلِيلِ أَوْ بِالطَّبْعِ. وَالتَّعْلِيلُ عِنْدَ القَائِلِينَ بِهِ وَهُمْ الفَلَاسِفَةُ أَنْ يَنْشَأَ عَنِ الشَّيْءِ شَيْءٌ آخَرُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِرَادَةٌ وَاخْتِيَارٌ فِيهِ، بِلَا تَوَقُّفٍ عَلَى وُجُودِ شَرْطٍ وَانْتِفَاءِ مَانِعٍ، وَذَلِكَ كَحَرَكَةِ الإِصْبَعِ مَعَ حَرَكَةِ الخَاتَمِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ الأُولَى نَشَأَتْ عَنْهَا الثَّانِيَةُ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ وَلَا تَوَقُّفٍ عَلَى شَيْءٍ، وَأَنَّ الأُولَى عِلَّةٌ لِلثَّانِيَةِ بِمَعْنَى أَنَّهَا مُؤَثِّرَةٌ فِيهَا وَمُوجِدَةٌ لَهَا بِالتَّعْلِيلِ، وَالثَّانِيَةُ مَعْلُولَةٌ لَهَا، وَيَقُولُونَ ـ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ ـ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَثَّرَ فِي العَالَمِ كَتَأْثِيرِ حَرَكَةِ الإِصْبَعِ فِي حَرَكَةِ الخَاتَمِ.

وَالطَّبْعُ عِنْدَ القَائِلِينَ بِهِ وَهُمْ الطَّبَائِعِيُّونَ أَنْ يَنْشَأَ عَنِ الشَّيْءِ شَيْءٌ آخَرُ بِطَبِيعَتِهِ أَيْ حَقِيقَتِهِ وَذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِرَادَةٌ وَاخْتِيَارٌ فِيهِ، مَعَ التَّوَقُّفِ عَلَى وُجُودِ الشَّرْطِ وَانْتِفَاءِ المَانِعِ، وَذَلِكَ كَالنَّارِ فَإِنَّهَا تُؤَثِّرُ عِنْدَهُمْ فِي الحَرْقِ بِطَبِيعَتِهَا، أَيْ تُوجِدُهُ بِنَفْسِهَا مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ، لَكِنْ عِنْدَ وُجُودِ الشَّرْطِ وَهُوَ مُمَاسَّتُهَا لِلشَّيْءِ كَالحَطَبِ، وَعِنْدَ انْتِفَاءِ المَانِعِ وَهُوَ البَلَلُ.

فَالتَّعْلِيلُ وَالطَّبْعُ عِنْدَ القَائِلِينَ بِهِمَا يَشْتَرِكَانِ فِي عَدَمِ الاخْتِيَارِ، وَيَفْتَرِقَانِ فِي أَنَّ الأَوَّلَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى وُجُودِ الشَّرْطِ وَانْتِفَاءِ المَانِعِ، وَالثَّانِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِمَا.

وَالمُؤْمِنُونَ يَقُولُونَ: يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ الإِيجَادُ بِالتَّعْلِيلِ أَوِ الطَّبْعِ لِأَنَّ الإِيجَادَ بِأَحَدِهِمَا لَا إِرَادَةَ وَلَا اخْتِيَارَ مَعَهُ، وَاللَّهُ ﷻ فَاعِلٌ بِالإِرَادَةِ وَالاخْتِيَارِ كَمَا قَامَ عَلَى ذَلِكَ قَاطِعُ الدَّلِيلِ وَالبُرْهَانِ.

وَيَقُولُونَ أَيْضاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: لَا تَأْثِيرَ لِلْعِلَّةِ وَلَا لِلطَّبِيعَةِ فِي شَيْءٍ أَصْلًا، بَلِ التَّأْثِيرُ لِلَّهِ وَحْدَهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَهْوَ الخَالِقُ لِحَرَكَةِ الإِصْبَعِ وَلِحَرَكَةِ الخَاتَمِ وَلِلنَّارِ وَالحَرْقِ وَأَمْثَالِهَا. وَقَدْ رَدَّ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى القَائِلِينَ بِالتَّعْلِيلِ وَالطَّبْعِ، وَصَرَّحُوا بِكُفْرِهِمْ.

تَنْبِيهٌ

وَقَعَ فِي كَلَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ التَّعْبِيرُ بِالتَّعْلِيلِ، لَكِنْ لَيْسَ مُرَادُهُمْ بِهِ التَّعْلِيلَ الَّذِي قَالَتْ بِهِ الفَلَاسِفَةُ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُمْ بِهِ التَّلَازُمُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ عَقْلًا أَوْ شَرْعاً أَوْ عَادَةً، فَلَا تَغْتَرَّ بِظَوَاهِرِ العِبَارَاتِ.

ثُمَّ ذَكَرَ ضِدَّ العِلْمِ وَهْوَ أَمْرَانِ، أَشَارَ إِلَى الأَوَّلِ بِقَوْلِهِ: **(وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى الجَهْلُ)** بِقِسْمَيْهِ البَسِيطُ وَالمُرَكَّبُ، فَالجَهْلُ البَسِيطُ هُوَ عَدَمُ العِلْمِ بِالشَّيْءِ، وَالجَهْلُ المُرَكَّبُ هُوَ اعْتِقَادُ الشَّيْءِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الوَاقِعِ، وَسُمِّيَ مُرَكَّباً لِاسْتِلْزَامِهِ لِجَهْلَيْنِ: الجَهْلُ بِالشَّيْءِ، أَيْ عَدَمُ إِدْرَاكِهِ، وَالجَهْلُ بِأَنَّهُ جَاهِلٌ.

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الأَمْرِ الثَّانِي بِقَوْلِهِ: **(وَمَا فِي مَعْنَاهُ)** أَيْ الجَهْلِ، وَالمُرَادُ بِمَا فِي مَعْنَاهُ كُلُّ مَا شَارَكَهُ فِي مُنَافَاتِهِ لِلْعِلْمِ كَالظَّنِّ وَالشَّكِّ وَالوَهْمِ وَالنِّسْيَانِ وَالنَّوْمِ.

وَقَوْلُهُ: (**بِمَعْلُومٍ مَا**) مُتَعَلِّقٌ بِـ«الجَهْل» ، وَ«مَا» نَكِرَةٌ ، صِفَةٌ لِـ«مَعْلُومٍ» مُفِيدَةٌ لِعُمُومِهِ ، وَالمَعْنَى: الجَهْلُ بِمَعْلُومٍ أَيِّ مَعْلُومٍ كَانَ ، كَثِيراً أَوْ قَلِيلاً .

(**وَ**) كَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى (**المَوْتُ**) وَهْوَ ضِدُّ الحَيَاةِ ، وَالمَوْتُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ قَائِمَةٌ بِالمَيِّتِ ، تُمْكِنُ رُؤْيَتُهَا ، تَمْنَعُ اتِّصَافَهُ بِالإِدْرَاكِ .

(**وَالصَّمَمُ**) وَهْوَ ضِدُّ السَّمْعِ ، (**وَالعَمَى**) وَهْوَ ضِدُّ البَصَرِ .

وَالصَّمَمُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ: صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ تَمْنَعُ مِنَ السَّمْعِ .

وَالعَمَى عِنْدَهُمْ: صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ تَمْنَعُ مِنَ الإِبْصَارِ .

وَهَذَا مَعْنَاهُمَا فِي حَقِّ الحَوَادِثِ ، وَالمُرَادُ بِهِمَا هُنَا: مَا يُنَافِي سَمْعَهُ تَعَالَى وَبَصَرَهُ ، وَهْوَ أَمْرَانِ:

* أَحَدُهُمَا: وُجُودُ الصَّمَمِ أَوِ العَمَى بِالمَعْنَى المُتَقَدِّمِ .

* وَالثَّانِي: غَيْبَةُ بَعْضِ المَوْجُودَاتِ عَنِ السَّمْعِ وَالبَصَرِ القَدِيمَيْنِ .

أَمَّا مُنَافَاةُ الأَمْرِ الأَوَّلِ لَهُمَا فَظَاهِرَةٌ ، وَأَمَّا مُنَافَاةُ الأَمْرِ الثَّانِي لَهُمَا فَلِمَا سَبَقَ مِنْ وُجُوبِ تَعَلُّقِ سَمْعِهِ تَعَالَى وَبَصَرِهِ بِجَمِيعِ المَوْجُودَاتِ .

(**وَالبَكَمُ**) وَهْوَ ضِدُّ الكَلَامِ ، وَيُسَمَّى الخَرَسُ بِفَتْحِ الرَّاءِ ، وَهْوَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ: صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ تَمْنَعُ مِنَ الكَلَامِ .

وَالبَكَمُ بِهَذَا المَعْنَى إِنَّمَا يُضَادُّ كَلَامَ الحَوَادِثِ الَّذِي هُوَ الكَلَامُ اللَّفْظِيُّ ، وَأَمَّا كَلَامُ اللَّهِ ـ جَلَّ ذِكْرُهُ ـ فَنَفْسِيٌّ ، أَيْ قَائِمٌ بِنَفْسِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ ، فَالَّذِي يُضَادُّ البَكَمَ النَّفْسِيَّ هُوَ تَرْكُ الكَلَامِ النَّفْسِيِّ عَجْزاً ، وَيُضَادُّهُ أَيْضاً كَوْنُهُ بِالحُرُوفِ



وَالأَصْوَاتِ لِأَنَّ الكَلَامَ إِذَا كَانَ بِالحُرُوفِ وَالأَصْوَاتِ كَانَ حَادِثاً، وَالحَادِثُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِحَادِثٍ، وَكَلَامُهُ تَعَالَى قَدِيمٌ لَا يَقُومُ إِلَّا بِقَدِيمٍ وَهْوَ ذَاتُهُ العَلِيَّةُ.

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَضْدَادَ الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ وَالمَعَانِي، أَشَارَ إِلَى أَضْدَادِ المَعْنَوِيَّةِ فَقَالَ: **(وَأَضْدَادُ الصِّفَاتِ المَعْنَوِيَّةِ وَاضِحَةٌ مِنْ هَذِهِ)** أَيْ مِنْ أَضْدَادِ صِفَاتِ المَعَانِي لِأَنَّكَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ ضِدَّ القُدْرَةِ العَجْزُ، عَلِمْتَ أَنَّ ضِدَّ كَوْنِهِ قَادِراً كَوْنُهُ عَاجِزاً، وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ ضِدَّ الإِرَادَةِ الكَرَاهَة، عَلِمْتَ أَنَّ ضِدَّ كَوْنِهِ مُرِيداً كَوْنُهُ كَارِهاً، وَهَكَذَا بَاقِي الأَكْوَانِ، وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.

** ** **



المُمْكِنَاتُ فِي حَقِّ اللهِ الجَلِيلِ
جَلَّ ذِكْرُهُ وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُهُ

لَمَّا فَرَغَ المُصَنِّفُ مِنْ بَيَانِ مَا يَجِبُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا يَسْتَحِيلُ، شَرَعَ فِي بَيَانِ مَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ، وَهْوَ القِسْمُ الثَّالِثُ مِـمَّا يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهُ، فَقَالَ: **(وَأَمَّا الجَائِزُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى فَـ)** هْوَ **(فِعْلُ كُلِّ مُـمْكِنٍ أَوْ تَرْكُهُ)**.

المُمْكِنُ عِنْدَ عُلَمَاءِ هَذَا الفَنِّ: كُلُّ مَا حَكَمَ العَقْلُ بِاسْتِوَاءِ وُجُودِهِ وَعَدَمِهِ، وَيُسَمَّى جَائِزاً.

وَمَعْنَى فِعْلُ المُمْكِنِ: إِيجَادُ اللَّـهِ لَهُ، وَمَعْنَى تَرْكُهُ: إِبْقَاؤُهُ فِي العَدَمِ، وَكُلُّ مُـمْكِنٍ يَجُوزُ عَقْلًا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِعْلُهُ أَوْ تَرْكُهُ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ عَقْلًا فِعْلُ شَيْءٍ مِنْهُ، وَلَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ عَقْلًا تَرْكُ شَيْءٍ مِنْهُ، بَلْ يَفْعَلُ مِنْهُ مَا شَاءَ وَيَتْرُكُ مَا شَاءَ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَيُسَمَّى كُلُّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِ تَعَالَى شَأْناً لَهُ، قَالَ اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن: ٢٩]، وَالمُرَادُ: كُلَّ وَقْتٍ هُوَ ـ أَيْ الرَّبُّ تَعَالَى ـ فِي شَأْنٍ، أَيْ أَمْرٍ يُظْهِرُهُ عَلَى وَفْقِ مَا قَدَّرَهُ وَأَرَادَهُ فِي الأَزَلِ مِنْ إِيجَادٍ أَوْ إِعْدَامٍ وَإِعْزَازٍ وَإِذْلَالٍ وَإِغْنَاءٍ وَإِفْقَارٍ وَإِعْطَاءِ سَائِلٍ وَإِجَابَةِ دَاعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُؤُونِهِ جَلَّ وَعَلَا.

تَنْبِيهَانِ

* **الأَوَّلُ**: قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِ المُمْكِنَاتِ الوُجُوبُ لِإِخْبَارِ الشَّرْعِ بِوُقُوعِهِ، وَيُسَمَّى وَاجِباً عَرَضِيّاً، وَوَاجِباً لِغَيْرِهِ. وَقَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِهَا الاسْتِحَالَةُ لِإِخْبَارِ الشَّرْعِ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ، وَيُسَمَّى مُسْتَحِيلًا عَرَضِيّاً وَمُسْتَحِيلًا لِغَيْرِهِ، فَالأَوَّلُ كَدُخُولِ الطَّائِعِ الجَنَّةَ، وَالثَّانِي كَدُخُولِ الكَافِرِ الجَنَّةَ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مِنَ المُمْكِنِ عَقْلًا بِالنَّظَرِ لِذَاتِهِ، لَكِنْ صَارَ الأَوَّلُ وَاجِباً شَرْعاً، وَالثَّانِي مُسْتَحِيلًا شَرْعاً لِمَا ذَكَرْنَا. وَمَا قَدَّمَهُ المُؤَلِّفُ أَوَّلَ العَقِيدَةِ مِنْ تَعْرِيفِ الوَاجِبِ وَالمُسْتَحِيلِ إِنَّمَا هُوَ لِلذَّاتِيَّيْنِ، وَأَمَّا العَرَضِيَّانِ فَهُمَا مِنْ قِسْمِ المُمْكِنِ.

* **التَّنْبِيهُ الثَّانِي**: الإِيجَادُ وَالإِعْدَامُ وَغَيْرُهُمَا مِمَّا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى تُسَمَّى بِصِفَاتِ الأَفْعَالِ، أَيْ صِفَاتٌ هِيَ أَفْعَالُ اللَّهِ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّعَلُّقَاتِ التَّنْجِيزِيَّةِ، أَيْ التَّعَلُّقَاتِ بِالفِعْلِ لِلْقُدْرَةِ، كَإِيجَادِ زَيْدٍ بِالفِعْلِ وَإِعْدَامِ عَمْرٍو بِالفِعْلِ.

وَكُلُّهَا حَادِثَةٌ لِأَنَّهَا جَائِزَةٌ، وَكُلُّ جَائِزٍ حَادِثٌ، فَصِفَاتُ الأَفْعَالِ حَادِثَةٌ، وَلَيْسَتْ مِنَ الصِّفَاتِ القَائِمَةِ بِذَاتِهِ تَعَالَى حَتَّى يَلْزَمَ قِيَامُ الحَوَادِثِ بِذَاتِهِ، وَهُوَ مُحَالٌ[1]، وَإِنَّمَا عَدُّوهَا مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى لِأَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ قُدْرَتِهِ، فَهِيَ أَثَرٌ لَهَا،

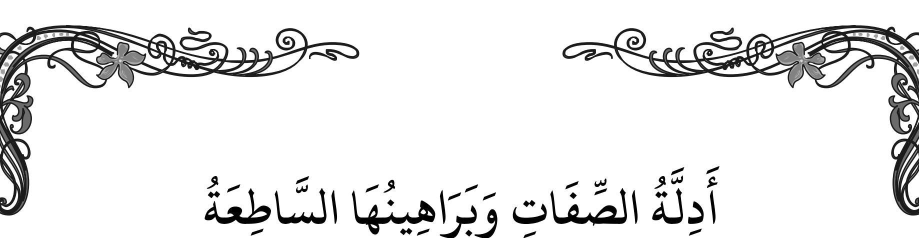
(١) قال الإمام الفخر الرازي في «المسائل الخمسون» مستدلا على استحالة اتصاف الله تعالى بصفات وجودية حادثة: «تلك الصفة الحادثة في ذات الله ﷻ هي إمّا من صفات الكمال أوْ لا، فإن كانت من صفات الكمال فإنه يقال: قبل حدوث تلك الصفة كانت الذات خالية عن صفة الكمال، وخلو ذات الله عن صفة الكمال محال. وإن لم تكن تلك الصفة من صفات الكمال امتنع قيامها بذات الباري لأنّ العقلاء أجمعوا على أنّ جميع صفات=

لَا لِكَوْنِهَا قَائِمَةً بِذَاتِهِ تَعَالَى؛ إِذْ هِيَ جَائِزَةٌ كَمَا عَلِمْتَ، وَالجَائِزُ لَا يَقُومُ بِذَاتِهِ تَعَالَى.

وَلِأَنَّ الَّذِي يَقُومُ بِذَاتِهِ مِنَ الصِّفَاتِ مَا كَانَ لَهُ تَحَقُّقٌ فِي الخَارِجِ عَنِ الذِّهْنِ، وَصِفَاتُ الأَفْعَالِ لَيْسَتْ كَذَلِكَ حَيْثُ إِنَّهَا إِضَافَاتٌ ـ أَيْ تَعَلُّقَاتٌ ـ بَيْنَ القُدْرَةِ وَمَقْدُورِهَا، وَالإِضَافَاتُ أُمُورٌ اعْتِبَارِيَّةٌ لَا ثُبُوتَ لَهَا فِي الخَارِجِ، وَلِهَذَا لَا يُطْلَقُ عَلَى صِفَاتِ الأَفْعَالِ الحُدُوثُ بِمَعْنَى الوُجُودِ بَعْدَ العَدَمِ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَيْهَا الحُدُوثُ بِمَعْنَى التَّجَدُّدِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا مُتَجَدِّدَةٌ فِيمَا لَا يَزَالُ.

**   **   **

= الحق لابد أن تكون من صفات الكمال. فثبت أنّ قيام الحوادث بذات الباري محال. (ص ٤٣، ٤٤)



أَدِلَّةُ الصِّفَاتِ وَبَرَاهِينُهَا السَّاطِعَةُ وَبُرْهَانُ الوُجُودِ فَاتِحَتُهَا الجَامِعَةُ

لَمَّا فَرَغَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ بَيَانِ الصِّفَاتِ الوَاجِبَةِ لِلَّهِ وَالمُسْتَحِيلَةِ عَلَيْهِ وَالجَائِزَةِ فِي حَقِّهِ، شَرَعَ يَذْكُرُ بَرَاهِينَهَا ـ أَيْ أَدِلَّتَهَا ـ لِيَخْرُجَ بِهَا المُكَلَّفُ عَنِ التَّقْلِيدِ المُخْتَلَفِ فِي إِيمَانِ صَاحِبِهِ إِلَى المَعْرِفَةِ المُتَّفَقِ عَلَى إِيمَانِ صَاحِبِهَا.

وَقَدْ رَتَّبَ البَرَاهِينَ عَلَى تَرْتِيبِ الصِّفَاتِ السَّابِقِ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِبُرْهَانِ الوُجُودِ فَقَالَ: (**أَمَّا بُرْهَانُ وُجُودِهِ تَعَالَى فَحُدُوثُ العَالَمِ**).

الحُدُوثُ: هُوَ الوُجُودُ بَعْدَ العَدَمِ.

وَالعَالَمُ بِفَتْحِ اللَّامِ: كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مُنْحَصِرٌ فِي الأَجْرَامِ وَالأَعْرَاضِ.

وَالأَجْرَامُ: الذَّوَاتُ(١).

وَالأَعْرَاضُ: الصِّفَاتُ القَائِمَةُ بِالأَجْرَامِ(١).

(١) وَالمَقْصُودُ هُنَا ذَوَاتٌ مَخْصُوصَةٌ وَهِيَ الَّتِي تُعَمِّرُ قَدْراً مِنَ الفَرَاغِ بِحَيْثُ تَمْنَعُ غَيْرَهَا أَنْ يَحُلَّ فِيهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ مَعْنَى الجِرْمِ وَهُوَ كُلُّ مَا شَغَلَ حَيِّزاً وَعَمَّرَ قَدْراً مَخْصُوصاً مِنَ الفَرَاغِ، فَالجِرْمُ مُرَادِفٌ لِلْمُتَحَيِّزِ، وَمِنْ خَوَاصِّهِ اللَّازِمَةِ لِذَاتِهِ أَنْ يَكُونَ مفتقراً مَحْدُوداً بِحَدٍّ وَمَخْصُوصاً بِقَدْرٍ مُعَيَّنٍ.

وَإِذَا أَرَدْتَ تَرْكِيبَ هَذَا البُرْهَانَ عَلَى صُورَةِ قِيَاسٍ مَنْطِقِيٍّ فَقُلْ:

العَالَمُ حَادِثٌ

وَكُلُّ حَادِثٍ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ

يَنْتُجُ: العَالَمُ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ.

أَيْ: مُوجِدٍ وَصَانِعٍ، وَهُوَ الَّذِي وَرَدَ عَنِ الأَنْبِيَاءِ أَنَّ اسْمَهُ «اللَّهُ».

فَقَوْلُكَ: «العَالَمُ حَادِثٌ» مُقَدِّمَةٌ صُغْرَى أَشَارَ إِلَيْهَا الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ: «حُدُوثُ العَالَمِ».

وَقَوْلُكَ: «وَكُلُّ حَادِثٍ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ» مُقَدِّمَةٌ كُبْرَى حَذَفَهَا المُؤَلِّفُ لِلْعِلْمِ بِهَا مِنْ دَلِيلِهَا الَّذِي ذَكَرَهُ بَعْدُ.

وَقَدْ اسْتَدَلَّ عَلَى الصُّغْرَى بِدَلِيلَيْنِ، وَعَلَى الكُبْرَى المَحْذُوفَةِ بِدَلِيلٍ وَاحِدٍ، وَقَدَّمَ دَلِيلَ الكُبْرَى لِقِلَّةِ الكَلَامِ عَلَيْهِ، فَقَالَ قُدِّسَ سِرُّهُ: (**لأنَّه لَوْ**[٢] **لَمْ**

---

(١) قَالَ العَلَّامَةُ الشَّرِيفُ الجُرْجَانِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى كتاب «المَوَاقِف»: العَرَضُ عِنْدَنَا: مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِمُتَحَيِّزٍ، وَهَذَا هُوَ المُخْتَارُ فِي تَعْرِيفِهِ لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهُ الأَعْدَامُ وَالسُّلُوبُ إِذْ لَيْسَتْ مَوْجُودَةً، وَخَرَجَتْ الجَوَاهِرُ إِذْ هِيَ غَيْرُ قَائِمَةٍ بِمُتَحَيِّزٍ، وَخَرَجَ أَيْضاً ذَاتُ اللَّهِ ﷻ وَصِفَاتُهُ لِأَنَّ ذَاتَهُ ﷻ لَيْسَتْ مُتَحَيِّزَةً، فَصِفَاتُهُ لَيْسَتْ أَعْرَاضاً قَائِمَةً بِمُتَحَيِّزٍ. (راجع شرح المواقف، ج١/ص٤٨٠)

(٢) «لو» حرف شرط يربط التالي بالمقدَّم، على حد قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] لأن المقصود منها الاستدلال بنفي الفساد على نفي التعدد، فقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يسمى شرطاً ومقدَّماً وملزوماً، وقوله: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ يسمَّى جزاءً وتالِياً ولازماً، والمجموع يسمى قضية شرطية، وهي هنا متصلة لزومية=

يَكُنْ لَهُ مُحْدِثٌ) بِكَسْرِ الدَّالِ **(بَلْ حَدَثَ بِنَفْسِهِ)** مَعَ أَنَّ الوُجُودَ وَالعَدَمَ وَبَاقِي الأُمُورِ المُتَقَابِلَةِ مُتَسَاوِيَةٌ فِي حَقِّهِ، **(لَزِمَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الأَمْرَيْنِ المُتَسَاوِيَيْنِ)** فِي حَقِّهِ كَالوُجُودِ **(مُسَاوِياً لِصَاحِبِهِ)** كَالعَدَمِ **(رَاجِحاً عَلَيْهِ بِلَا سَبَبٍ، وَهُوَ مُحَالٌ)** لِمَا فِيهِ مِنْ اجْتِمَاعِ الضِّدَّيْنِ وَهُمَا المُسَاوَاةُ وَالرُّجْحَانُ.

وَنَظِيرُ ذَلِكَ مِيزَانٌ تَسَاوَتْ كَفَّتَاهُ وَرَجَحَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى بِلَا سَبَبٍ، فَرُجْحَانُ إِحْدَى الكَفَّتَيْنِ عَلَى الأُخْرَى مَعَ فَرْضِ تَسَاوِيهِمَا لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُرَجِّحٍ؛ وَإِلَّا لَزِمَ المُحَالُ وَهُوَ اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ: المُسَاوَاةِ، وَالرُّجْحَانِ[1].

هَذَا حَاصِلُ تَقْرِيرِ دَلِيلِ المُقَدِّمَةِ الكُبْرَى، وَأَمَّا الصُّغْرَى وَهُوَ قَوْلُكَ:

= لتلازم جزئيها، فحرف «لو» عند المتكلمين للدلالة على أنّ العلم بانتفاء التالي عِلَّةٌ للعلم بانتفاء المقدّم ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم.

(١) حاصلُ هَذَا البُرهانِ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ العَالَمِ قَابِلٌ لِلْوُجُودِ وَالعَدَمِ مَعاً عَلَى حَدِّ السَّوَاءِ، وَقَابِلٌ لِلزَّمَنِ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ وَلِزَمَنٍ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ كَذَلِكَ، وَقَابِلٌ لِلمَكَانِ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ وَلِمَكَانٍ غَيْرِهِ كَذَلِكَ، وَقَابِلٌ لِلْمِقْدَارِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ وَلِمِقْدَارٍ دُونَهُ أَوْ أَكْبَرَ مِنْهُ كَذَلِكَ، وَقَابِلٌ لِصِفَتِهِ المَخْصُوصَةِ وَلِغَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الصِّفَاتِ كَذَلِكَ، وَقَابِلٌ لِجِهَتِهِ المَخْصُوصَةِ وَلِسَائِرِ الجِهَاتِ كَذَلِكَ، فَلَوْ تَخَصَّصَ بِوَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الأُمُورِ المُتَقَابِلَةِ بَدَلًا عَنْ مُقَابِلِهِ المُسَاوِي لَهُ لِنَفْسِهِ بِلَا مُخَصِّصٍ وَمُرَجِّحٍ لَزِمَ عَلَيْهِ اجْتِمَاعُ أَمْرَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ لِذَاتِهِمَا مَعَ رُجْحَانِ أَحَدِهِمَا عَلَى الآخَرِ بِلَا مُرَجِّحٍ، وَذَلِكَ مُحَالٌ؛ إِذْ كَوْنُ الشَّيْءِ الوَاحِدِ مُسَاوِياً لِذَاتِهِ لِشَيْءٍ آخَرَ رَاجِحاً عَلَيْهِ لِذَاتِهِ بِلَا مُرَجِّحٍ غَيْر مَعْقُولٍ لِلتَّنَافِي الحَاصِلِ بَيْنَ التَّسَاوِي وَالرُّجْحَانِ، فَإِذَنْ لَابُدَّ لِذَلِكَ الفَرْدِ مِنَ العَالَمِ مِنْ وُجُودِ مُرَجِّحٍ لِوُجُودِهِ عَلَى عَدَمِهِ المُسَاوِي لَهُ، وَلِزَمَنِهِ المَخْصُوصِ عَلَى مُقَابِلِهِ المُسَاوِي لَهُ، وَلِمَكَانِهِ المَخْصُوصِ عَلَى مُقَابِلِهِ المُسَاوِي لَهُ، وَلِمِقْدَارِهِ المَخْصُوصِ عَلَى مُقَابِلِهِ المُسَاوِي لَهُ، وَهَكَذَا إِلَى آخِرِهِ. (راجع شرح المقدمات للإمام السنوسي عند حديثه عن الممكنات المتقابلة، وهي: الوجود، والعدم، والمقادير، والصفات، والأزمنة، والأمكنة، والجهات، ص ١٣٥)

«العَالَمُ حَادِثٌ» فَتَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلَيْنِ؛ لِأَنَّ العَالَمَ حُكِمَ عَلَيْهِ فِيهَا بِالحُدُوثِ، وَالعَالَمُ أَجْرَامٌ وَأَعْرَاضٌ كَمَا عَلِمْتَ، فَتَكُونُ الصُّغْرَى فِي قُوَّةِ دَعْوَيَيْنِ، إِحْدَاهُمَا حُدُوثُ الأَجْرَامِ، وَالأُخْرَى حُدُوثُ الأَعْرَاضِ.

وَقَدْ تَعَرَّضَ المُصَنِّفُ إِلَى دَلِيلِ كُلٍّ مِنْهُمَا، فَأَشَارَ إِلَى دَلِيلِ حُدُوثِ الأَجْرَامِ بِقَوْلِهِ: **(وَدَلِيلُ حُدُوثِ العَالَمِ)** أَيْ: أَجْرَامِهِ بِدَلِيلِ ذِكْرِهِ دَلِيلَ حُدُوثِ الأَعْرَاضِ بَعْدَ ذَلِكَ **(مُلَازَمَتُهُ)** أَيْ: مُلَازَمَةُ أَجْرَامِهِ **(لِلْأَعْرَاضِ الحَادِثَةِ مِنْ حَرَكَةٍ أَوْ سُكُونٍ وَغَيْرِهِمَا، وَمُلَازِمُ الحَادِثِ حَادِثٌ)** وَهَذَا مَعْنَى الدَّلِيلِ، وَأَمَّا لَفْظُهُ عَلَى صُورَةِ القِيَاسِ المَنْطِقِيِّ فَهُوَ أَنْ تَقُولَ:

أَجْرَامُ العَالَمِ مُلَازِمَةٌ لِلْأَعْرَاضِ الحَادِثَةِ

وَكُلُّ مَا لَازَمَ الحَادِثَ فَهُوَ حَادِثٌ

يَنْتُجُ: أَجْرَامُ العَالَمِ حَادِثَةٌ

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى دَلِيلِ حُدُوثِ الأَعْرَاضِ بِقَوْلِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَدَلِيلُ حُدُوثِ الأَعْرَاضِ مُشَاهَدَةُ تَغَيُّرِهَا مِنْ عَدَمٍ إِلَى وُجُودٍ وَمِنْ وُجُودٍ إِلَى عَدَمٍ)**.

وَتَقْرِيرُ هَذَا الدَّلِيلِ عَلَى صُورَةِ القِيَاسِ المَنْطِقِيِّ أَنْ تَقُولَ:

الأَعْرَاضُ شُوهِدَ تَغَيُّرُهَا مِنْ وُجُودٍ إِلَى عَدَمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ

وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ حَادِثٌ

يَنْتُجُ: الأَعْرَاضُ حَادِثَةٌ



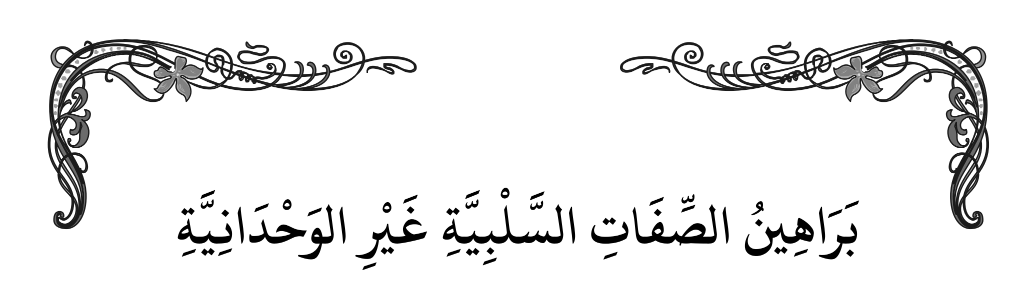
وَقَدْ ابْتَنَى حُدُوثُ العَالَمِ عَلَى سَبْعَةِ مَطَالِبَ[1] مَذْكُورَةٍ فِي المُطَوَّلَاتِ، أَلْـهَمَنَا اللَّهُ سَبِيلَ الرَّشَادِ وَالمَبَرَّاتِ.

** ** **

---

(١) أشار إليها كثير من العلماء، منهم العلامة البيجوري في قوله: اعلم أن دليل حدوث الأجرام يتوقف **على إثبات زائد عليها** وهو الأعراض، وعلى **إثبات الملازمة بينهما**، وعلى **إبطال حوادث لا أول لها**، وذلك لأن الخصم ربما يقول: لا نسلم أن هناك زائداً على الأجرام، فنبطله بالمشاهدة؛ إذ ما من عاقل وإلا ويحس أن لذاته شيئا زائداً عليها. فيقول: سلَّمنا ذلك، لكن لا نسلم الملازمة بينه وبين الأجرام، فنبطله بمشاهدة عدم الانفكاك، فيقول: سلَّمنا ذلك، لكن لا نسلم دلالته على حدوث الأجرام لاحتمال أن تكون قديمةً، وذلك الزائد حوادث لا أول لها، إذ ما من حركة إلا وقبلها حركة، وهكذا، فتكون حادثة بالشخص قديمة بالنوع، بمعنى أن نوع الحركة قديم وشخصها حادث، فنبطله بأمور، منها أنه لا وجود للنوع إلا في ضمن شخصه، فإذا كان الشخص حادثا لزم أن يكون النوع كذلك، فبطل حوادث لا أول لها.
ودليل حدوث الأعراض يتوقف على **إبطال قيام العرض بنفسه**، و**إبطال انتقاله لغيره**، و**إبطال كمونه**، و**إبطال أن القديم ينعدم**، وذلك لأن الخصم ربما يمنع أنها تتغير من عدم إلى وجود وعكسه، فالحركة بعد السكون مثلا لم تكن معدومة ثم وجدت، بل كانت موجودة قبل ذلك، فنقول له: هل كانت قائمة حينئذ بنفسها؟ أو انتقلت من محلها لمحل آخر؟ أو كمنت في محلها؟ فإن كان الأول لزم قيام العرض بنفسه وهو باطل، وإن كان الثاني فكذلك لأنه يلزم قيام العرض بنفسه في لحظة الانتقال، وإن كان الثالث لزم اجتماع الضدين وهو باطل. فيقول: سلمنا ذلك، لكن لا نسلم أنه يدل على حدوثها لاحتمال أن تكون قديمة وتتغير من عدم إلى وجود وعكسه، فنبطله بأن القديم لا ينعدم، وهذه الأمور تسمى المطالب السبعة. (حاشية على العقيدة الصغرى، ص ٣٤، ٣٥)





بَرَاهِينُ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ غَيْرِ الوَحْدَانِيَّةِ

(وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ القِدَمِ لَهُ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ قَدِيماً لَكَانَ حَادِثاً) إِذْ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا، **(فَيَفْتَقِرُ)** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **(إِلَى مُحْدِثٍ)** وَيَفْتَقِرُ مُحْدِثُهُ إِلَى مُحْدِثٍ آخَرَ لِانْعِقَادِ المُماثَلَةِ بَيْنَهُمَا وَهَكَذَا، **(فَيَلْزَمُ الدَّوْرُ)** إِنْ تَنَاهَتْ المُحْدَثُونَ، **(أَوْ التَّسَلْسُلُ)** إِنْ لَمْ تَتَنَاهَ، وَالدَّوْرُ وَالتَّسَلْسُلُ مُحَالَانِ لِمَا سَيَأْتِي قَرِيباً، فَمَا أَدَّى إِلَيْهِمَا يَكُونُ مُحَالًا.

وَحَقِيقَةُ الدَّوْرِ: تَوَقُّفُ كُلٍّ مِنَ الشَّيْئَيْنِ عَلَى الآخَرِ، كَمَا لَوْ فُرِضَ أَنَّ زَيْداً أَحْدَثَ عَمْراً، وَأَنَّ عَمْراً أَحْدَثَ زَيْداً، فَقَدْ تَوَقَّفَ كُلٌّ مِنَ الشَّيْئَيْنِ ـ وَهُمَا زَيْدٌ وَعَمْرٌو ـ عَلَى الآخَرِ؛ لِكَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا أَحْدَثَ الآخَرَ. وَيُتَصَوَّرُ أَيْضاً فِي أَكْثَرِ مِنْ شَيْئَيْنِ.

وَإِنَّمَا كَانَ الدَّوْرُ مُحَالًا لِأَنَّهُ يَلْزَمُ عَلَيْهِ تَقَدُّمُ كُلٍّ مِنَ المُحْدَثِينَ عَلَى الآخَرِ وَتَأَخُّرُهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ مُتَنَافِيَيْنِ[1]. بَلْ وَيَلْزَمُ عَلَيْهِ أَيْضاً تَقَدُّمُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى نَفْسِهِ وَتَأَخُّرُهُ عَنْهَا، وَذَلِكَ لَا يُعْقَلُ.

وَحَقِيقَةُ التَّسَلْسُلِ: تَتَابُعُ الأَشْيَاءِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي

---

(١) والدور محال لاستلزامه كون الشيء حاصلا قبل حصوله، ووجه استحالته أن القبلية تقتضي أنه معدوم، والحصول يقتضي أنه موجود، ويستحيل أن يكون الشيء الواحد معدوماً وموجوداً في آن واحد، فما أدى إليه باطل، فالدور باطل.

الزَّمَانِ المَاضِي، كَمَا لَوْ فُرِضَ أَنَّ زَيْداً أَحْدَثَهُ عَمْرٌو، وَأَنَّ عَمْراً أَحْدَثَهُ خَالِدٌ، وَأَنَّ خَالِداً أَحْدَثَهُ بَكْرٌ، وَهَكَذَا إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، فَقَدْ تَتَابَعَتْ المُحْدَثُونَ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي الزَّمَانِ المَاضِي.

وَإِنَّمَا كَانَ التَّسَلْسُلُ مُحَالًا لِأَنَّهُ يَلْزَمُ عَلَيْهِ وُجُودُ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا، وَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لِوُجُودِهِ أَوَّل كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ البَرَاهِينُ(١).

(وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ البَقَاءِ لَهُ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ أَنْ يَلْحَقَهُ العَدَمُ لَانْتَفَى عَنْهُ القِدَمُ؛ لِكَوْنِ وُجُودِهِ حِينَئِذٍ) أَيْ: حِينَ إِذْ أَمْكَنَ أَنْ يَلْحَقَهُ العَدَمُ يَصِيرُ **(جَائِزاً لَا وَاجِباً، وَالجَائِزُ لَا يَكُونُ وُجُودُهُ إِلَّا حَادِثاً كَيْفَ)** يَصِحُّ انْتِفَاءُ القِدَمِ عَنِ اللَّهِ **(وَقَدْ سَبَقَ قَرِيباً)** بِالبُرْهَانِ **(وُجُوبُ قِدَمِهِ تَعَالَى؟!)** فَيَجِبُ بَقَاؤُهُ لِأَنَّ كُلَّ مَا ثَبَتَ قِدَمُهُ اسْتَحَالَ عَدَمُهُ(٢).

---

(١) والمحالُ اللازم على تقدير دخول حوادث لا أول لها إلى الوجود: هو عدمُ وجود الحادث اليومي المحقَّقِ وجودُه، وذلك أن الحادثَ الموجود اليوم مثلا فإنه محقق الوجود بالمشاهدة، ولكن على تقدير القول بكونه مسبوقا بحوادث قبله لا أول لها يصير دخول الحادث المشاهد اليوم إلى الوجود متوقفا على فراغ دخول ما قبله من الحوادث التي لا أول لها، إذ لا تتأتي النوبة إلى الحادث الحالي إلا إذا انقضى ما قبله من الحوادث واحداً بعد واحد، وكيف تنقضي وهي لا أول لها بمعنى أنه لا تفرغ على الفرض المذكور؟! إذ فراغ ما لا يفرغ محال وتناقض ظاهر، فالمتوقف وجوده وهو حادث اليوم على المحال وهو فراغ ما لا أول له محال، لكن الحادث موجود اليوم بالمشاهدة، فالقول بحوادث لا أول لها دخلت إلى الوجود شيء بعد شيء محال، والحق أن الحادث المشاهد اليوم مسبوق بحادث أول ليس قبله شيء من الحوادث، وذلك الحادث الأول مسبوق بالعدم، أوجده الله الفاعل المختار المنفرد بالقدم والأزلية سبحانه وتعالى، وهذا معنى ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «كان الله ولا شيء غيره».

(٢) قال الإمام السنوسي في شرحه على العقيدة الكبرى: البقاء عبارة عن سلب العدم اللَّاحق=

(وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ مُخَالَفَتِهِ تَعَالَى لِلْحَوَادِثِ فَلِأَنَّهُ لَوْ مَاثَلَ شَيْئاً مِنْهَا) بِأَنْ كَانَ سُبْحَانَهُ جِرْماً أَوْ عَرَضاً أَوْ فِي جِهَةٍ لِلْجِرْمِ أَوْ مُتَقَيِّداً بِمَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ **(لَكَانَ حَادِثاً مِثْلَهَا)** حَيْثُ إِنَّ جَمِيعَ مَا ثَبَتَ لِأَحَدِ المِثْلَيْنِ يَثْبُتُ لِلْآخَرِ.

(وَذَلِكَ) أَيْ كَوْنُهُ حَادِثاً **(مُحَالٌ لِمَا عَرَفْتَ قَبْلُ مِنْ وُجُوبِ قِدَمِهِ تَعَالَى وَبَقَائِهِ)** وَأَيْضاً لَوْ مَاثَلَ تَعَالَى شَيْئاً مِنَ الحَوَادِثِ لَوَجَبَ لَهُ القِدَمُ لِأُلُوهِيَّتِهِ، وَالحُدُوثُ لِفَرْضِ مُمَاثَلَتِهِ لِلْحَوَادِثِ، وَذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ مُتَنَافِيَيْنِ ضَرُورَةً.

(وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ قِيَامِهِ تَعَالَى بِنَفْسِهِ: فَلِأَنَّهُ تَعَالَى لَوِ احْتَاجَ إِلَى مَحَلٍّ) أَيْ: ذَاتٍ يَقُومُ بِهَا **(لَكَانَ صِفَةً)** إِذْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَحَلٍّ يَقُومُ بِهِ إِلَّا الصِّفَةُ، **(وَالصِّفَةُ لَا تَتَّصِفُ بِصِفَاتِ المَعَانِي وَلَا المَعْنَوِيَّةِ)** لِمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي المُطَوَّلَاتِ **(وَمَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ يَجِبُ اتِّصَافُهُ بِهِمَا)** لِقِيَامِ البَرَاهِينِ عَلَى ذَلِكَ، **(فَـ)**مَوْلَانَا **(لَيْسَ بِصِفَةٍ)** وَإِنَّمَا هُوَ ذَاتٌ مُتَّصِفَةٌ بِالصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِهَا.

= للوجود. والدليل على وجوب هذه الصفة لله ﷻ أنّه لو قدّر لحوق العدم له ـ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ لكانت ذاته العليّة تقبل الوجودَ والعدمَ؛ لفرض اتّصافه بهما، ولا تتّصف ذاته بصفة حتى تقبلها، لكن قبوله جلّ وعلا للعدم محال؛ إذ لو قبله لكان هو والوجود بالنسبة إلى ذاته سيّان؛ إذ القبول للذات نفسي لا يتخلف فيلزم افتقار وجوده إلى موجد يرجّحه على العدم الجائز، فيكون حادثا، كيف وقد ثبت بالبرهان القطعي وجوبُ قِدمِه. فبان لك بهذا البرهان أنّ وجوب القدم يستلزم أبداً وجوبَ البقاء، وأنّ تجويز العدم اللاّحق يوجب ثبوت العدمِ السابق، فخرج لك بهذا البرهان قاعدة كليّة وهي أنّ كلّ ما ثبت قِدَمُه استحالَ عدَمُه؛ لأنّ القِدَم لا يكون أبداً إلاّ واجباً للقديم، وهذا البرهان الذي ذكرنا لوجوب البقاء مختصر وهو مع اختصاره قطعي لا شبهة في شيء من مقدّماته. (ص٧٤، ٧٥)

وَقَوْلُهُ: «لَا تَتَّصِفُ بِصِفَاتِ المَعَانِي وَلَا المَعْنَوِيَّةِ» احْتَرَزَ بِهِ عَنِ الصِّفَةِ النَّفْسِيَّةِ كَالوُجُودِ، وَالسَّلْبِيَّةِ كَالقِدَمِ وَالبَقَاءِ وَهُمَا مِنَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ.

وَلَمَّا فَسَّرَ فِي الصِّفَاتِ الوَاجِبَةِ لِلَّهِ قِيَامَهُ تَعَالى بِنَفْسِهِ بِأَمْرَيْنِ: سَلْبُ افْتِقَارِهِ إِلَى مَحَلٍّ، وَسَلْبُ افْتِقَارِهِ إِلَى مُخَصِّصٍ، بَرْهَنَ هُنَا عَلَى الأَمْرِ الأَوَّلِ بِمَا تَقَدَّمَ آنِفاً، وَعَلَى الأَمْرِ الثَّانِي بِقَوْلِهِ: **(وَلَوْ احْتَاجَ إِلَى مُخَصِّصٍ)** أَيْ فَاعِلٍ يُخَصِّصُهُ بِبَعْضِ الأُمُورِ المُتَقَابِلَةِ كَالوُجُودِ بَدَلًا عَنِ العَدَمِ **(لَكَانَ حَادِثاً، كَيْفَ)** يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ حَادِثاً **(وَقَدْ قَامَ البُرْهَانُ عَلَى وُجُوبِ قِدَمِهِ تَعَالَى وَبَقَائِهِ؟!)** فَتَنَبَّهْ وَاعْتَبِرْ لِتَزْدَادَ إِيمَاناً وَمَعْرِفَةً بِالمُقْتَدِرِ.

**   **   **





بُرْهَانُ الوَحْدَانِيَّةِ بِخُصُوصِهِ لِكَوْنِهِ عِمَادَ المُوَحِّدِينَ

(وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ الوَحْدَانِيَّةِ لَهُ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ وَاحِداً لَزِمَ أَنْ لَا يُوجَدَ شَيءٌ مِنَ العَالَمِ لِلُزُومِ عَجْزِهِ حِينَئِذٍ) أَيْ حِينَ إِذْ لَمْ يَكُنْ وَاحِداً، لَكِنَّ عَدَمَ وُجُودِ شَيْءٍ مِنَ العَالَمِ بَاطِلٌ بِالمُشَاهَدَةِ، فَبَطَلَ مَا أَدَّى إِلَيْهِ وَهْوَ عَدَمُ كَوْنِهِ وَاحِداً، وَهْوَ المَطْلُوبُ.

وَإِنَّمَا لَزِمَ مِنْ عَدَمِ كَوْنِهِ وَاحِداً عَدَمُ وُجُودِ شَيْءٍ مِنَ العَالَمِ لِأَنَّا لَوْ فَرَضْنَا إِلَهَيْنِ فِي الوُجُودِ فَإِمَّا أَنْ يَتَّفِقَا، وَإِمَّا أَنْ يَخْتَلِفَا:

ـ فَإِنِ اتَّفَقَا عَلَى إِيجَادِ مُمْكِنٍ كَحَيَوَانٍ فَلَا جَائِزَ أَنْ يُوجِدَاهُ مَعاً لِأَنَّهُ يَلْزَمُ عَلَيْهِ اجْتِمَاعُ مُؤَثِّرَيْنِ عَلَى أَثَرٍ وَاحِدٍ، وَهْوَ مُحَالٌ.

وَلَا جَائِزَ أَنْ يُوجِدَاهُ مُرَتَّباً بِأَنْ يُوجِدَهُ أَحَدُهُمَا ثُمَّ يُوجِدُهُ الآخَرُ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ عَلَيْهِ تَحْصِيلُ الحَاصِلِ وَهْوَ مُحَالٌ أَيْضاً.

وَلَا جَائِزَ أَنَّ يُوجِدَ أَحَدُهُمَا البَعْضَ وَالآخَرُ البَعْضَ لِلُزُومِ عَجْزِهِمَا حِينَئِذٍ لِكَوْنِهِ لَمَّا تَعَلَّقَتْ قُدْرَةُ أَحَدِهِمَا بِالبَعْضِ سَدَّ عَلَى الآخَرِ طَرِيقَ تَعَلُّقِ قُدْرَتِهِ بِهِ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ، وَهَذَا عَجْزٌ مُنَافٍ لِعُمُومِ تَعَلُّقِ قُدْرَةِ الإِلَهِ.

ـ وَإِنِ اخْتَلَفَا بِأَنْ أَرَادَ أَحَدُهُمَا إِيجَادَ مُمْكِنٍ وَالآخَرُ اسْتِمْرَارَ عَدَمِهِ، فَلَا



جَائِزَ أَنْ يَنْفَذَ مُرَادُهُمَا مَعاً لِأَنَّهُ يَلْزَمُ عَلَيْهِ اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ وَهْوَ مُحَالٌ.

وَلَا جَائِزَ أَنْ يَنْفَذَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الآخَرِ لِلُزُومِ عَجْزِ مَنْ لَمْ يَنْفَذْ مُرَادُهُ، وَعَجْزُهُ يُؤَدِّي إِلَى عَجْزِ الآخَرِ لِأَنَّ مَا ثَبَتَ لِأَحَدِ المِثْلَيْنِ يَثْبُتُ لِلْآخَرِ.

وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي مُمْكِنٍ وَاحِدٍ لَزِمَ فِي سَائِرِ المُمْكِنَاتِ لِعَدَمِ الفَرْقِ، فَيَلْزَمُ أَنْ لَا يُوجَدَ شَيْءٌ مِنَ العَالَمِ، وَالمُشَاهَدَةُ تُكَذِّبُهُ، وَحِينَئِذٍ يَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي الوُجُودِ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَهْوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَكَمَا يَجْرِي مَا تَقَدَّمَ عَلَى فَرْضِ وُجُودِ إِلَهَيْنِ يَجْرِي أَيْضاً عَلَى فَرْضِ وُجُودِ أَكْثَرَ مِنْهُمَا كَزَعْمِ النَّصَارَى فِي تَثْلِيثِ الأُلُوهِيَّةِ.

وَقَدْ بَرْهَنَتْ آيَةُ الأَنْبِيَاءِ عَلَى تَحْقِيقِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَبْدَعِ سَبِيلٍ وَأَقْطَعِ دَلِيلٍ وَأَبْلَغِ تَنْزِيلٍ، وَهْيَ قَوْلُ اللَّهِ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وَتَمَّتْ كَلِمَتُهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وَمِثْلُهَا آيَةُ «قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ» وَهْيَ قَوْلُهُ جَلَّ شَأْناً وَصَدَقَ قُرْآناً: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢]، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَالسَّعَادَةُ، نَسْأَلُهُ الحُسْنَى وَزِيَادَةً، إِنَّهُ الجَوَادُ الكَرِيمُ.

** ** **





بَرَاهِينُ صِفَاتِ المَعَانِي السَّبْعَةِ العَقْلِيَّةِ وَلِلْأَوَاخِرِ مَزِيدُ السَّمْعِيَّةِ

(وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ اتِّصَافِهِ تَعَالَى بِالقُدْرَةِ وَالإِرَادَةِ وَالعِلْمِ وَالحَيَاةِ فَلِأَنَّهُ لَوْ انْتَفَى شَيْءٌ مِنْهَا) عَنْ ذَاتِهِ تَعَالَى **(لَمَا وُجِدَ شَيْءٌ مِنَ الحَوَادِثِ)** لِأَنَّ إِيجَادَ كُلِّ حَادِثٍ مُتَوَقِّفٌ عَلَى اتِّصَافِ مُحْدِثِهِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الأَرْبَعِ، أَمَّا الحَيَاةُ فَلِأَنَّهَا شَرْطٌ فِي الاتِّصَافِ بِالصِّفَاتِ الثَّلَاثِ قَبْلَهَا، فَانْتِفَاؤُهَا عَنِ الذَّاتِ يَسْتَلْزِمُ انْتِفَاءَ الصِّفَاتِ الثَّلَاثِ، بَلِ انْتِفَاءَ جَمِيعِ الصِّفَاتِ.

وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي قَبْلَ الحَيَاةِ فَلِمَا تَقَرَّرَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ أَنَّ تَأْثِيرَ قُدْرَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي المُمْكِنِ مَوْقُوفٌ عَلَى إِرَادَتِهِ لَهُ، فَلَا يُوجِدُ سُبْحَانَهُ بِقُدْرَتِهِ أَوْ يُعْدِمُ بِهَا إِلَّا مَا أَرَادَ وُجُودَهُ أَوْ عَدَمَهُ، وَإِرَادَتُهُ تَعَالَى لَهُ مَوْقُوفَةٌ عَلَى العِلْمِ بِهِ لِاسْتِحَالَةِ القَصْدِ إِلَى غَيْرِ مَعْلُومٍ، فَلَوْ انْتَفَى العِلْمُ انْتَفَتِ الإِرَادَةُ، وَلَوْ انْتَفَتِ الإِرَادَةُ انْتَفَتِ القُدْرَةُ، وَلَوْ انْتَفَتِ القُدْرَةُ لَمَا وُجِدَ شَيْءٌ مِنَ الحَوَادِثِ، وَعَدَمُ وُجُودِ شَيْءٍ مِنْهَا بَاطِلٌ بِالمُشَاهَدَةِ، فَمَا أَدَّى إِلَيْهِ وَهُوَ انْتِفَاءُ شَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ الأَرْبَعِ عَنْ ذَاتِهِ تَعَالَى بَاطِلٌ، وَإِذَا بَطَلَ ذَلِكَ وَجَبَ اتِّصَافُ ذَاتِهِ العَلِيَّةِ بِالصِّفَاتِ الأَرْبَعِ وَهْوَ المَطْلُوبُ.

وَهَذَا البُرْهَانُ كَمَا تَثْبُتُ بِهِ الصِّفَاتُ الأَرْبَعُ تَثْبُتُ بِهِ مَعْنَوِيَّتُهَا الأَرْبَعُ وَهْيَ

كَوْنُهُ تَعَالَى قَادِراً وَمُرِيداً وَعَالِماً وَحَيّاً لِمُلَازَمَتِهَا لِلْمَعَانِي، وَإِذَا ثَبَتَ المَلْزُومُ ثَبَتَ اللَّازِمُ.

(وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ السَّمْعِ لَهُ تَعَالَى وَالبَصَرِ وَالكَلَامِ) فَشَرْعِيٌّ، وَيُقَالُ فِيهِ نَقْلِيٌّ وَسَمْعِيٌّ، وَيُسْتَدَلُّ عَلَى وُجُوبِهَا لَهُ تَعَالَى أَيْضاً بِالدَّلِيلِ العَقْلِيِّ، وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ المُصَنِّفِ.

أَمَّا البُرْهَانُ الشَّرْعِيُّ **(فَالكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ)** أَمَّا الكِتَابُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وَأَمَّا السُّنَّةُ ـ أَيْ الحَدِيثُ ـ فَكَقَوْلِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبَ وَإِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعاً بَصِيراً»(١) وَمَعْنَى «اِرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» أَشْفِقُوا عَلَيْهَا وَلَا تُتْعِبُوهَا بِرَفْعِ أَصْوَاتِكُمْ. وَبَاءُ «اِرْبَعُوا» مَفْتُوحَةٌ.

وَأَمَّا الإِجْمَاعُ فَقَدْ انْعَقَدَ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ بَصِيرٌ مُتَكَلِّمٌ.

إِنْ قُلْتَ: الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ بَصِيرٌ مُتَكَلِّمٌ، لَا عَلَى أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتٍ هِيَ السَّمْعُ وَالبَصَرُ وَالكَلَامُ كَمَا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ.

فَالجَوَابُ: أَنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ لَا يَفْهَمُونَ مِنْ «سَمِيعٌ» وَ«بَصِيرٌ» وَ«مُتَكَلِّمٌ» إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير.

ذَاتاً مُتَّصِفَةً بِالسَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالكَلَامِ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ وَصْفٌ لَا يُشْتَقُّ لَهُ مِنْهُ اسْمٌ، فَلَا يُقَالُ «قَائِمٌ» إِلَّا لِمَنِ اتَّصَفَ بِالقِيَامِ، وَلَا «قَاعِدٌ» إِلَّا لِمَنِ اتَّصَفَ بِالقُعُودِ، وَهَكَذَا، فَاسْتِدْلَالُ المُؤَلِّفِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ إِنَّمَا يَعْنُونَ بِهِ الاسْتِدْلَالَ بِهَا مَعَ اعْتِبَارِ مَا فَهِمَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ، لَا الاسْتِدْلَال بِهَا وَحْدَهَا.

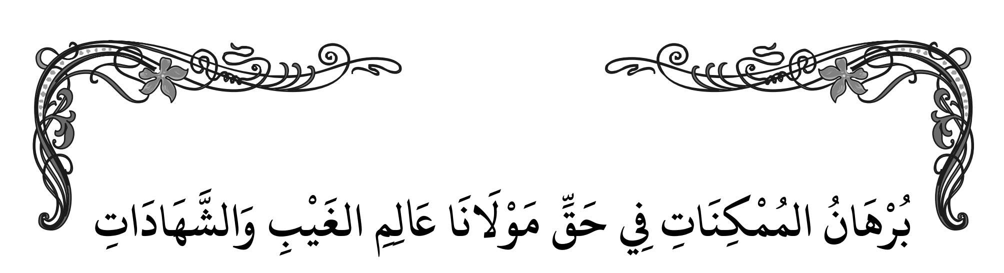
وَأَمَّا الدَّلِيلُ العَقْلِيُّ عَلَى وُجُوبِ السَّمْعِ لَهُ تَعَالَى وَالبَصَرِ وَالكَلَامِ فَهْوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: **(وَأَيْضاً لَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا لَزِمَ أَنْ يَتَّصِفَ بِأَضْدَادِهَا وَهْيِ نَقَائِصُ، وَالنَّقْصُ عَلَيْهِ تَعَالَى مُحَالٌ)** فَمَا أَدَّى إِلَيْهِ ـ وَهْوَ عَدَمُ اتِّصَافِهِ بِهَا ـ يَكُونُ مُحَالًا، فَثَبَتَ وُجُوبُ اتِّصَافِهِ بِهَا وَهْوَ المَطْلُوبُ.

وَكَمَا تَثْبُتُ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ بِالدَّلِيلَيْنِ المَذْكُورَيْنِ تَثْبُتُ بِهِمَا مَعْنَوِيَّتُهَا الثَّلَاثُ وَهْيَ كَوْنُهُ تَعَالَى سَمِيعاً وَبَصِيراً وَمُتَكَلِّماً لِمُلَازَمَتِهَا لِلْمَعَانِي.

تَنْبِيهٌ

العُمْدَةُ فِي إِثْبَاتِ السَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالكَلَامِ لَهُ تَعَالَى هُوَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ، وَأَمَّا الدَّلِيلُ العَقْلِيُّ فَضَعِيفٌ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ عَدَمُ الاتِّصَافِ بِهَا نَقْصاً فِي حَقِّنَا فَقَطْ كَعَدَمِ الزَّوْجَةِ وَعَدَمِ الوَلَدِ، فَإِنَّهُمَا نَقْصٌ فِي حَقِّنَا، لَا فِي حَقِّهِ تَعَالَى لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ وُجُوبِ الغِنَى المُطْلَقِ لَهُ جَلَّ وَعَلَا.

وَقَدْ أَشَارَ الشَّيْخُ إِلَى ضُعْفِ الدَّلِيلِ العَقْلِيِّ بِتَأْخِيرِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ مَعَ ضُعْفِهِ تَقْوِيَةً لِمَا ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ.



بُرْهَانُ المُمْكِنَاتِ فِي حَقِّ مَوْلَانَا عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَاتِ

(وَأَمَّا بُرْهَانُ كَوْنِ فِعْلِ المُمْكِنَاتِ أَوْ تَرْكِهَا جَائِزاً فِي حَقِّهِ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْ وَجَبَ عَلَيْهِ تَعَالَى شَيْءٌ مِنْهَا عَقْلًا) كَمَا قَالَتْهُ المُعْتَزِلَةُ، وَذَلِكَ كَبَعْثِ الرُّسُلِ وَإِثَابَةُ المُطِيعِ وَعِقَابِ العَاصِي، **(أَوِ اسْتَحَالَ)** عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا **(عَقْلاً)** كَمَا قَالَتْهُ المُعْتَزِلَةُ أَيْضاً، وَذَلِكَ كَتَرْكِ الأُمُورِ الثَّلَاثَةِ المَذْكُورَةِ **(لَانْقَلَبَ المُمْكِنُ وَاجِباً)** فِي الأَوَّلِ **(أَوْ مُسْتَحِيلاً)** فِي الثَّانِي.

يَعْنِي لَلَزِمَ انْقِلَابُ حَقِيقَةِ المُمْكِنِ عَقْلًا ـ وَهْيَ مَا يَصِحُّ فِي العَقْلِ وُجُودُهُ وَعَدَمُهُ ـ إِلَى حَقِيقَةِ الوَاجِبِ، وَهْيَ مَا لَا يَصِحُّ فِي العَقْلِ إِلَّا وُجُودُهُ، أَوْ إِلَى حَقِيقَةِ المُسْتَحِيلِ وَهْيَ مَا لَا يَصِحُّ فِي العَقْلِ إِلَّا عَدَمُهُ.

(وَذَلِكَ) أَيْ الانْقِلَابُ المَذْكُورُ **(لَا يُعْقَلُ)** أَيْ لَا يُصَدِّقُ بِهِ العَقْلُ وَلَا يَقْبَلُهُ لِكَوْنِهِ مُسْتَحِيلًا، وَإِذَا اسْتَحَالَ الانْقِلَابُ المَذْكُورُ بَطَلَ مَا أَدَّى إِلَيْهِ وَهْوَ وُجُوبُ شَيْءٍ مِنَ المُمْكِنَاتِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَوِ اسْتِحَالَتُهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا بَطَلَ ذَلِكَ ثَبَتَ كَوْنُ فِعْلِ المُمْكِنَاتِ أَوْ تَرْكُهَا جَائِزاً فِي حَقِّهِ تَعَالَى، وَهْوَ المَطْلُوبُ.

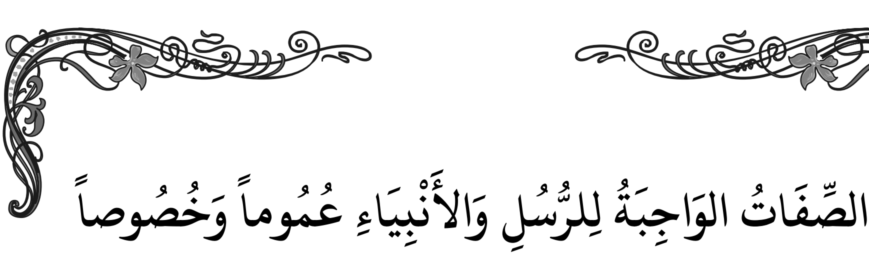
وَقَوْلُ المُصَنِّفِ «عَقْلًا» احْتَرَزَ بِهِ مِنْ صَيْرُورَةِ المُمْكِنِ وَاجِباً شَرْعاً أَوْ مُسْتَحِيلًا شَرْعاً لِأَمْرٍ عَرَضَ لَهُ، وَذَلِكَ كَدُخُولِ المُؤْمِنِ الجَنَّةَ وَدُخُولِ الكَافِرِ الجَنَّةَ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُمْكِنٌ عَقْلًا بِالنَّظَرِ لِذَاتِهِ، لَكِنْ صَارَ الأَوَّلُ وَاجِباً شَرْعاً



لِإِخْبَارِ الشَّرْعِ بِوُقُوعِهِ فَهْوَ وَاجِبٌ عَرَضِيٌّ وَوَاجِبٌ لِغَيْرِهِ، وَصَارَ الثَّانِي مُسْتَحِيلًا شَرْعاً لِإِخْبَارِ الشَّرْعِ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ، فَهْوَ مُسْتَحِيلٌ عَرَضِيٌّ وَمُسْتَحِيلٌ لِغَيْرِهِ.

وَلَا اسْتِحَالَةَ فِي صَيْرُورَةِ المُمْكِنِ وَاجِباً عَرَضِيّاً وَوَاجِباً لِغَيْرِهِ، وَلَا فِي صَيْرُورَةِ المُمْكِنِ مُسْتَحِيلًا عَرَضِيّاً وَمُسْتَحِيلًا لِغَيْرِهِ، وَإِنَّمَا الاسْتِحَالَةُ فِي صَيْرُورَةِ المُمْكِنِ وَاجِباً لِذَاتِهِ أَوْ مُسْتَحِيلًا لِذَاتِهِ، بِأَنْ تَنْقَلِبَ حَقِيقَتُهُ إِلَى حَقِيقَةِ الوَاجِبِ أَوِ المُسْتَحِيلِ، وَفِي صَيْرُورَةِ الوَاجِبِ مُمْكِناً لِذَاتِهِ أَوْ مُسْتَحِيلًا لِذَاتِهِ بِأَنْ تَنْقَلِبَ حَقِيقَتُهُ إِلَى حَقِيقَةِ المُمْكِنِ أَوِ المُسْتَحِيلِ، وَفِي صَيْرُورَةِ المُسْتَحِيلِ مُمْكِناً لِذَاتِهِ أَوْ وَاجِباً لِذَاتِهِ بِأَنْ تَنْقَلِبَ حَقِيقَتُهُ إِلَى حَقِيقَةِ المُمْكِنِ أَوِ الوَاجِبِ، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ المُرَادَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ: «قَلْبُ الحَقَائِقِ مُسْتَحِيلٌ»، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❊❊ ❊❊ ❊❊



الصِّفَاتُ الوَاجِبَةُ لِلرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ عُمُوماً وَخُصُوصاً عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

لَمَّا فَرَغَ الشَّيْخُ مِنْ ذِكْرِ العَقَائِدِ المُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ ذِكْرِ بَرَاهِينِهَا، شَرَعَ يَذْكُرُ العَقَائِدَ المُتَعَلِّقَةَ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَبَدَأَ بِمَا يَجِبُ فِي حَقِّهِمْ فَقَالَ: **(وَأَمَّا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ السَّلَامُ)** جَمْعُ «رَسُولٍ» وَهْوَ إِنْسَانٌ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ، كَانَ لَهُ كِتَابٌ أَوْ لَا، وَأَمَّا النَّبِيءُ فَهْوَ إِنْسَانٌ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ، أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ أَوْ لَا، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيءٌ، وَلَا عَكْسَ.

وَإِنَّمَا قَالَ: «وَأَمَّا الرُّسُلُ» وَلَمْ يَقُلْ «وَأَمَّا الأَنْبِيَاءُ» لِأَنَّ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي سَيَذْكُرُهَا التَّبْلِيغُ وَضِدُّهُ، وَهُمَا خَاصَّانِ بِالرُّسُلِ.

وَجَوَابُ «أَمَّا» قَوْلُهُ: **(فَيَجِبُ فِي حَقِّهِمْ)** ثَلَاثُ صِفَاتٍ:

ـ الأُولَى: **(الصِّدْقُ)**: وَهْوَ مُطَابَقَةُ الخَبَرِ لِلْوَاقِعِ، فَيَجِبُ صِدْقُهُمْ فِي دَعْوَاهُمُ الرِّسَالَةَ وَفِي الأَحْكَامِ الَّتِي بَلَّغُوهَا عَنِ اللَّـهِ تَعَالَى لِلْخَلْقِ.

وَأَمَّا صِدْقُهُمْ فِي الكَلَامِ العَادِيِّ كَـ«أَكَلْتُ كَذَا» وَ«شَرِبْتُ كَذَا» وَ«فَهِمَ زَيْدٌ» وَ«عَلِمَ عَلِيٌّ» فَهْوَ دَاخِلٌ فِي الأَمَانَةِ، إِذْ بُرْهَانُهَا الآتِي يَدُلُّ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ بُرْهَانِ الصِّدْقِ الآتِي فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِمْ فِي الأَوَّلَيْنِ فَقَطْ.

ـ (وَ) الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: **(الأَمَانَةُ)** وَعَبَّرَ بَعْضُهُمْ بَدَلَهَا بِالعِصْمَةِ، وَكِلَاهُمَا يَرْجِعُ لِمَعْنىً وَاحِدٍ وَهْوَ حِفْظُ اللَّهِ ظَوَاهِرَهُمْ وَبَوَاطِنَهُمْ مِنَ التَّلَبُّسِ بِمَنْهِيٍّ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ كَرَاهَةٍ أَوْ خِلَافِ الأَوْلَى، قَبْلَ النُّبُوءَةِ وَبَعْدَهَا، عَمْداً أَوْ سَهْواً.

ـ (وَ) الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: **(تَبْلِيغُ مَا أُمِرُوا بِتَبْلِيغِهِ لِلْخَلْقِ)** وَأَمَّا مَا أُمِرُوا بِكِتْمَانِهِ عَنِ الخَلْقِ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ كِتْمَانُهُ، وَيَجُوزُ لَهُمْ الكِتْمَانُ وَالإِفْشَاءُ فِيمَا خُيِّرُوا فِيهِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْ المُصَنِّفُ وُجُوبَ كِتْمَانِ مَا أُمِرُوا بِكِتْمَانِهِ لِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي الأَمَانَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الصِّدْقَ وَالأَمَانَةَ وَاجِبَانِ لِلرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَأَمَّا التَّبْلِيغُ فَخَاصٌّ بِالرُّسُلِ لِأَنَّ النَّبِيءَ فَقَطْ غَيْرُ مَأْمُورٍ بِالتَّبْلِيغِ. نَعَمْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُخْبِرَ بِأَنَّهُ نَبِيءٌ لِيُحْتَرَمَ وَيُعَظَّمَ.

تَنْبِيهٌ

لَمْ يَذْكُرْ المُؤَلِّفُ عَدَدَ الرُّسُلِ، إِذْ الحَقُّ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ وَعَدَدَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿**مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**﴾ [غافر: ٧٨]، وَلِأَنَّ تَعْيِينَ عَدَدِهِمْ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى إِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ أَوْ النُّبُوءَةِ لِمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فِي الوَاقِعِ أَوْ نَفْيِهَا عَمَّنْ هُوَ كَذَلِكَ فِي الوَاقِعِ، وَلِاخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ فِي عَدَدِهِمْ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الرُّسُلَ ثَلَاثُمَائَةَ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، وَرُوِيَ وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ، وَرُوِيَ وَخَمْسَةَ عَشَرَ، وَرُوِيَ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ مَائَةَ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً، وَالرُّسُلُ مِنْهُمْ، وَرُوِيَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَلِأَجْلِ مَا ذَكَرْنَا يَكْفِي المُكَلَّفَ أَنْ يُؤْمِنَ بِالرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ إِجْمَالًا بِأَنْ

يُصَدِّقَ أَنَّ لِلَّـهِ رُسُلًا وَأَنْبِيَاءَ، إِلَّا مَنْ ذُكِرَ مِنْهُمْ فِي القُرْآنِ وَهُمْ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَيَجِبُ الإِيمَانُ بِهِمْ تَفْصِيلًا بِأَنْ يُصَدِّقَ المُكَلَّفُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَيْثُ لَوْ عُرِضَ عَلَيْهِ لَمْ يُنْكِرْ نُبُوءَتَهُ وَلَا رِسَالَتَهُ وَإِنْ لَمْ يَحْفَظْ أَسْمَاءَهُمْ.

وَقَدْ نَظَمْتُ أَسْمَاءَهُمْ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ فَقُلْتُ وَبِاللَّـهِ اسْتَعَنْتُ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ غَفَرَ اللَّهُ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ:

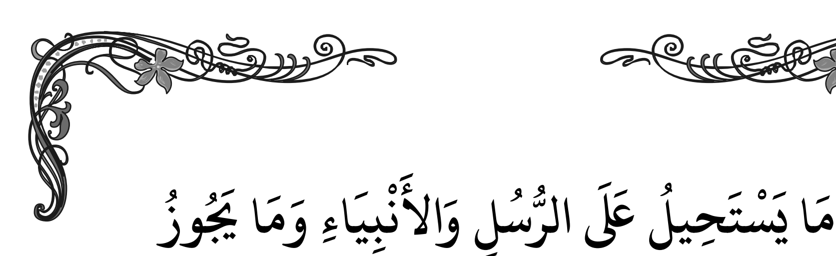
خَمْسٌ وَعِشْرُونَ مِنَ الرُّسْلِ بِهِمْ قَدْ وَجَبَ الإِيمَانُ تَفْصِيلًا عِهِمْ
وَفِي الكِتَابِ ذُكِرُوا بِدُونِ رَيْبْ هُمْ آدَمُ إِدْرِيسُ نُوحٌ وَشُعَيْبْ
ذُو الكِفْلِ إِلْيَاسُ اليَسَعْ أَيُّوبُ إِسْحَاقُ صَالِحٌ كَذَا يَعْقُوبُ
هَارُونُ لُوطٌ زَكَرِيَّا مُوسَى يُوسُفُ إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ عِيسَى
يُونُسُ إِسْمَاعِيلُ ثُمَّ هُودُ يَحْيَى سُلَيْمَانُ كَذَا دَاوُودُ
مُحَمَّدٌ خَاتِمُهُمْ وَقُلْ يَجِبْ الايمَانُ إِجْمَالًا بِغَيْرِهِمْ تُصِبْ

وَقَدْ جَمَعَتْ مِنْهُمْ آيَةُ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] بِسُورَةِ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

** ** **







مَا يَسْتَحِيلُ عَلَى الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ وَمَا يَجُوزُ قُدِّسَ مَقَامُهُمْ

ثُمَّ ذَكَرَ المُصَنِّفُ مَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّ الرُّسُلِ فَقَالَ: (**وَيَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَضْدَادُ هَذِهِ الصِّفَاتِ**) يَعْنِي مُنَافِيَاتُهَا (**وَهِيَ**) ثَلَاثَةٌ:

* الأَوَّلُ: (**الكَذِبُ**) وَهُوَ عَدَمُ مُطَابَقَةِ الخَبَرِ لِلْوَاقِعِ، فَهُوَ ضِدُّ الصِّدْقِ، فَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِمُ الكَذِبُ فِي دَعْوَاهُمُ الرِّسَالَةَ فِي الأَحْكَامِ الَّتِي بَلَّغُوهَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْخَلْقِ، وَأَمَّا الكَذِبُ فِي الكَلَامِ العَادِيِّ فَتُؤْخَذُ اسْتِحَالَتُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ ضِدِّ الأَمَانَةِ.

* (**وَ**) الضِّدُّ الثَّانِي: (**الخِيَانَةُ**) وَهِيَ ضِدُّ الأَمَانَةِ، وَصَوَّرَهَا بِقَوْلِهِ: (**بِفِعْلِ شَيْءٍ**) أَرَادَ بِالفِعْلِ التَّلَبُّسَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَالخِيَانَةُ المُصَوَّرَةُ بِالتَّلَبُّسِ بِشَيْءٍ (**مِمَّا نُهُوا عَنْهُ، نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ كَرَاهَةٍ**) فَيَشْمَلُ الفِعْلَ الظَّاهِرَ كَالزِّنَى وَشُرْبِ الخَمْرِ، وَالبَاطِنَ كَالحَسَدِ وَالاعْتِقَادِ الفَاسِدِ، وَيَشْمَلُ القَوْلَ العَادِيَّ الكَاذِبَ كَـ«جَاءَ المُعَلِّمُ» وَالحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَجِئْ.

وَأَرَادَ بِالكَرَاهَةِ مَا يَشْمَلُ خِلَافَ الأَوْلَى، فَيُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّهُ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ ـ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ مُحَرَّمٌ مُطْلَقاً.

وَمَا أَوْهَمَ مِنَ الكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ وُقُوعَ المَعْصِيَةِ مِنْهُمْ فَلَا يُعْتَقَدُ ظَاهِرُهُ لِأَنَّهُ

مُؤَوَّلٌ، أَيْ مَصْرُوفٌ عَنْ ظَاهِرِهِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ.

وَلَا يَقَعُ مِنْهُمْ مَكْرُوهٌ عَلَى وَجْهِ كَوْنِهِ مَكْرُوهاً، وَلَا خِلَافُ الأَوْلَى عَلَى وَجْهِ كَوْنِهِ خِلَافَ الأَوْلَى، وَأَمَّا عَلَى وَجْهٍ آخَرَ كَالتَّشْرِيعِ وَبَيَانِ الجَوَازِ فَيَقَعُ مِنْهُمْ صُورَةُ المَكْرُوهِ وَخِلَافُ الأَوْلَى، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَقَ وَتَوَضَّأَ مَرَّةً مَرَّةً، وَمَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، وَشَرِبَ قَائِماً، وَبَالَ قَائِماً.

وَكَذَا لَا يَقَعُ مِنْهُمْ مُبَاحٌ عَلَى وَجْهِ كَوْنِهِ مُبَاحاً، بَلْ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيعِ أَوْ التَّقَوِّي عَلَى العِبَادَاتِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَصِيرُ بِهِ المُبَاحُ قُرْبَةً، فَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ مُنْحَصِرَةٌ فِي الوَاجِبِ وَالمَنْدُوبِ فَقَطْ. كَيْفَ وَقَدْ يَتَّفِقُ ذَلِكَ لِبَعْضِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ؟! فَبِالأَوْلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِصَفْوَةِ خَلْقِ اللَّهِ.

ـ (وَ) الضِّدُّ الثَّالِثُ: **(كِتْمَانُ شَيْءٍ مِمَّا أُمِرُوا بِتَبْلِيغِهِ لِلْخَلْقِ)** وَهُوَ ضِدُّ التَّبْلِيغِ، فَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِمْ الكِتْمَانُ وَلَوْ سَهْواً لِأَنَّ السَّهْوَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ فِي الأَخْبَارِ الَّتِي بَلَّغُوهَا عَنِ اللَّهِ كَقَوْلِهِمْ: الجَنَّةُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا فِي الأَخْبَارِ العَادِيَّةِ كَـ«أَتَى سَعْدٌ»، وَيَجُوزُ عَلَيْهِمْ فِي الأَفْعَالِ، كَالسَّهْوِ فِي الصَّلَاةِ لِلتَّشْرِيعِ، أَيْ لِبَيَانِ أَحْكَامِ السَّهْوِ فِيهَا، لَكِنَّ سَهْوَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِاشْتِغَالِ قُلُوبِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا بِغَيْرِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَجُوزُ فِي حَقِّ الرُّسُلِ فَقَالَ: **(وَيَجُوزُ فِي حَقِّهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا هُوَ مِنَ الأَعْرَاضِ)** أَيْ الصِّفَاتِ الحَادِثَةِ **(البَشَرِيَّةِ)** أَيْ المَنْسُوبَةِ إِلَى البَشَرِ وَهُمْ بَنُو آدَمَ **(الَّتِي لَا تُؤَدِّي إِلَى نَقْصٍ فِي مَرَاتِبِهِمُ العَلِيَّةِ)** أَيْ مَنَازِلِهِمْ المُرْتَفِعَةِ.

ثُمَّ مَثَّلَ لِلْأَعْرَاضِ المَذْكُورَةِ بِقَوْلِهِ: **(كَالمَرَضِ)** الغَيْرِ المُنَفِّرِ **(وَنَحْوِهِ)** مِثْل الأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالنِّكَاحِ، وَالنَّوْمِ لَكِنْ بِأَعْيُنِهِمْ لَا بِقُلُوبِهِم لِمَا وَرَدَ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ تَنَامُ أَعْيُنُنَا وَلَا تَنَامُ قُلُوبُنَا»[1]، وَكَالنِّسْيَانِ لَكِنْ بَعْدَ التَّبْلِيغِ، أَوْ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرُوا بِتَبْلِيغِهِ، وَنِسْيَانُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، لَا مِنَ الشَّيْطَانِ، إِذْ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ.

وَاحْتَرَزَ بِـ«الأَعْرَاضِ» عَنْ صِفَاتِ الإِلَهِ فَلَا تَجُوزُ عَلَيْهِمْ، خِلَافاً لِلنَّصَارَى فَإِنَّهُمْ وَصَفُوا سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَا فَجَعَلُوهُ إِلَهاً.

وَاحْتَرَزَ بِـ«البَشَرِيَّةِ» عَنْ صِفَاتِ المَلَائِكَةِ فَلَا تَجُوزُ عَلَيْهِمْ، خِلَافاً لِجَهَلَةِ العَرَبِ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ الرَّسُولَ يَكُونُ مُتَّصِفاً بِصِفَاتِ المَلَائِكَةِ لَا بِصِفَاتِ البَشَرِ، فَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، فَأَدَّاهُمْ ذَلِكَ إِلَى تَكْذِيبِ نَبِيِّنَا سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، وَقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وَاحْتَرَزَ بِقَوْلِهِ: «الَّتِي لَا تُؤَدِّي إِلَى نَقْصٍ فِي مَرَاتِبِهِمْ» عَنِ الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةِ المُؤَدِّيَةِ إِلَى نَقْصٍ فِي مَرَاتِبِهِمْ فَلَا تَجُوزُ عَلَيْهِمْ كَالصَّمَمِ، وَالعَمَى، وَالبَكَمِ، وَالفَهَاهَةِ أَيْ عَدَمِ الفَصَاحَةِ، وَالبَلَادَةِ أَيْ عَدَمِ الفَطَانَةِ، وَالفَظَاظَةِ أَيْ الغِلْظَةِ، وَالحِرْفَةِ الخَسِيسَةِ، وَدَنَاءَةِ الآبَاءِ، وَالأَمْرَاضِ المُنَفِّرَةِ كَالجُذَامِ وَالبَرَصِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

---

(١) أورده ابن سعد في الطبقات الكبرى، ذكر علامات النبوة بعد نزول الوحي على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَبِمَا تَقَرَّرَ يُعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَ نَبِيءٌ قَطُّ، وَلَمْ يَمْرضْ مَرَضاً مُنَفِّراً، وَمَا وَقَعَ بِبَصَرِ سَيِّدِنَا يَعْقُوبَ إِنَّمَا هُوَ حِجَابٌ مِنْ تَوَاصُلِ الدُّمُوعِ لَا عَمىً، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ سَيِّدَنَا شُعَيْباً كَانَ ضَرِيراً، وَمَا وَقَعَ لِسَيِّدِنَا أَيُّوبَ مِنَ المَرَضِ إِنَّمَا كَانَ بَيْنَ الجِلْدِ وَالعَظْمِ وَلَمْ يكُنْ مُنَفِّراً، وَمَا اشْتَهَرَ فِي قِصَّتِهِ مِنَ الحِكَايَاتِ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ.

وَالحَذَرُ كُلُّ الحَذَرِ مِنِ اعْتِقَادِ مَا ذَكَرَهُ جَهَلَةُ المُؤَرِّخِينَ وَتَبِعَهُمْ فِيهِ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ مِمَّا تَضَمَّنَ وَصْفَ بَعْضِ رُسُلِ اللَّهِ وَأَنْبِيَاءِهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمْ، فَلَا تَغْتَرّ، وَاتَّبِعْ صَحِيحَ الأَثَر، وَادْعُ بِخَيْرٍ لِمَنْ يُحَرِّر.

** ** **

بَرَاهِينُ صِفَاتِ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ وَالجَائِزِ فِي حَقِّهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

لَمَّا أَنْهَى المُصَنِّفُ الكَلَامَ عَلَى العَقَائِدِ المُتَعَلِّقَةِ بِالرُّسُلِ، أَتْبَعَهَا بِذِكْرِ بَرَاهِينِهَا فَقَالَ: **(أَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ صِدْقِهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)** فِي دَعْوَاهُمْ الرِّسَالَةَ وَفِيمَا بَلَّغُوهُ بَعْدَهَا عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْخَلْقِ، **(فَلِأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَصْدُقُوا)** بِأَنْ كَذَبُوا وَأَخْبَرُوا بِمَا لَا يُطَابِقُ الوَاقِعُ **(لَلَزِمَ الكَذِبُ فِي خَبَرِهِ تَعَالَى)**، وَوَجْهُ اللُّزُومِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: **(لِتَصْدِيقِهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالمُعْجِزَةِ النَّازِلَةِ مَنْزِلَةَ قَوْلِهِ تَعَالَى: صَدَقَ عَبْدِي فِي كُلِّ مَا يُبَلِّغُ عَنِّي)**.

وَالمُعْجِزَةُ: أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ عَلَى وَفْقِ التَّحدِّي، مَقْرُونٌ بِدَعْوَى النُّبُوءَةِ أَوِ الرِّسَالَةِ، مَأْخُوذَةٌ مِنَ الإِعْجَازِ لِإِعْجَازِهَا الغَيْرَ عَنْ مُعَارَضَتِهَا، أَيْ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا.

وَتَكُونُ قَوْلًا كَالقُرْآنِ، وَفِعْلًا كَنَبْعِ المَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَانْشِقَاقِ القَمَرِ لَهُ، وَغَيْرَ قَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ كَعَدَمِ إِحْرَاقِ النَّارِ لِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وَكَيْفَمَا كَانَتْ المُعْجِزَةُ فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى تَصْدِيقِ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ ظَهَرَتْ عَلَى يَدِهِ لِأَنَّهَا نَازِلَةٌ مَنْزِلَةَ خَبَرٍ صَادِرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَهْوَ قَوْلُهُ: «صَدَقَ عَبْدِي

فِي كُلِّ مَا يُبَلِّغُ عَنِّي».

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ الرُّسُلُ صَادِقِينَ لَلَزِمَ الكَذِبُ فِي خَبَرِهِ تَعَالَى الَّذِي نَزَلَتْ المُعْجِزَةُ مَنْزِلَتَهُ، وَالكَذِبُ فِي خَبَرِهِ سُبْحَانَهُ مُحَالٌ، فَمَا أَدَّى إِلَيْهِ وَهْوَ عَدَمُ صِدْقِهِمْ مُحَالٌ أَيْضاً، وَإِذَا اسْتَحَالَ عَدَمُ صِدْقِهِمْ وَجَبَ صِدْقُهُمْ، وَهْوَ المَطْلُوبُ.

وَخَرَجَ بِقَوْلِنَا: «مَقْرُونٌ بِدَعْوَى النُّبُوءَةِ أَوْ الرِّسَالَةِ» الخَارِقُ لِلْعَادَةِ المُتَقَدِّمُ عَلَى دَعْوَى النُّبُوءَةِ أَوْ الرِّسَالَةِ، فَلَيْسَ بِمُعْجِزَةٍ، وَيُسَمَّى إِرْهَاصاً، أَيْ تَأْسِيساً وَتَقْوِيَةً لِلنُّبُوءَةِ أَوِ الرِّسَالَةِ، كَإِظْلَالِ الغَمَامَةِ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ البِعْثَةِ.

وَخَرَجَ بِهِ أَيْضاً الخَارِقُ لِلْعَادَةِ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَى يَدِ الوَلِيِّ، فَلَيْسَ بِمُعْجِزَةٍ لِعَدَمِ دَعْوَى النُّبُوءَةِ أَوِ الرِّسَالَةِ، وَيُسَمَّى كَرَامَةً، وَالجُمْهُورُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى جَوَازِ الكَرَامَةِ وَوُقُوعِهَا فِي حَيَاةِ الوَلِيِّ وَبَعْدَ مَوْتِهِ، وَمَنْ قَالَ بِنَفْيِهَا لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ.

(وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ الأَمَانَةِ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلِأَنَّهُمْ لَوْ خَانُوا بِفِعْلِ مُحَرَّمٍ أَوْ مَكْرُوهٍ لَانْقَلَبَ المُحَرَّمُ أَوِ المَكْرُوهُ طَاعَةً فِي حَقِّهِمْ) فَنَكُونُ نَحْنُ مَأْمُورِينَ بِفِعْلِ ذَلِكَ المُحَرَّمِ أَوْ المَكْرُوهِ **(لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنَا بِالاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ)** إِلَّا مَا ثَبَتَ اخْتِصَاصُهُمْ بِهِ كَنِكَاحِ مَا زَادَ عَلَى الأَرْبَعِ، وَإِلَّا مَا كَانَ مَنِ الأُمُورِ الجِبِلِّيَّةِ كَالقِيَامِ وَالقُعُودِ وَالمَشْيِ، **(وَلَا يَأْمُرُ تَعَالَى بِفِعْلِ مُحَرَّمٍ أَوْ مَكْرُوهٍ)** لِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وَإِنَّمَا يَأْمُرُ تَعَالَى بِالطَّاعَاتِ، فَتَبَيَّنَ بِهَذَا اسْتِحَالَةُ الخِيَانَةِ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا

اسْتَحَالَتْ الخِيَانَةُ عَلَيْهِمْ وَجَبَتْ لَهُمْ الأَمَانَةُ، وَهْوَ المَطْلُوبُ.

(وَهَذَا) أَيْ بُرْهَانُ وُجُوبِ الأَمَانَةِ لَهُمْ **(بِعَيْنِهِ هُوَ بُرْهَانُ وُجُوبِ الثَّالِثِ)** الَّذِي هُوَ التَّبْلِيغُ، وَمُرَادُهُ أَنَّهُ عَيْنُهُ فِي التَّقْرِيرِ، لَا فِي الذَّاتِ لِأَنَّهُمَا مُتَغَايِرَانِ فِيهَا.

وَتَقْرِيرُهُ بِطَرِيقِ القِيَاسِ أَنْ تَقُولَ: لَوْ خَانُوا بِكِتْمَانِ شَيْءٍ مِمَّا أُمِرُوا بِتَبْلِيغِهِ لِلْخَلْقِ لَانْقَلَبَ الكِتْمَانُ طَاعَةً فِي حَقِّهِمْ، فَنَكُونُ نَحْنُ مَأْمُورِينَ بِكِتْمَانِ بَعْضِ العِلْمِ النَّافِعِ لِأَنَّ اللَّـهَ أَمَرَنَا بِالاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلَا يَأْمُرُ تَعَالَى بِالكِتْمَانِ لِأَنَّهُ مُحَرَّمٌ، كَمَا لَا يَأْمُرُ سُبْحَانَهُ بِفِعْلِ مُحَرَّمٍ أَوْ مَكْرُوهٍ لِمَا سَلَفَ.

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا اسْتِحَالَةُ الكِتْمَانِ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا اسْتَحَالَ الكِتْمَانُ عَلَيْهِمْ وَجَبَ لَهُمْ التَّبْلِيغُ وَهْوَ المَطْلُوبُ.

(وَأَمَّا دَلِيلُ جَوَازِ الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةِ عَلَيْهِمْ فَمُشَاهَدَةُ وُقُوعِهَا بِهِمْ) يَعْنِي مُشَاهَدَةُ أَهْلِ زَمَانِهِمْ وُقُوعَهَا بِهِمْ، وَالوَاقِعُ أَقْوَى دَلِيلًا عَلَى الجَوَازِ، وَأَمَّا مَنْ بَعْدَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ فَقَدْ نُقِلَ إِلَيْهِمْ وُقُوعُهَا بِهِمْ بِالتَّوَاتُرِ.

وَ«أَلْ» فِي قَوْلِهِ: «الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةَ» لِلْعَهْدِ، وَالمَعْهُودُ: هُوَ الأَعْرَاضُ البَشَرِيَّةُ الَّتِي لَا تُؤَدِّي إِلَى نَقْصٍ فِي مَرَاتِبِهِمْ العَلِيَّةِ، إِذْ هِيَ المُتَقَدِّمَةُ فِي كَلَامِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ الفَوَائِدَ المُتَرَتِّبَةَ عَلَى وُقُوعِ الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةِ بِهِمْ فَقَالَ: **(إِمَّا لِتَعْظِيمِ أُجُورِهِمْ)** كَمَا فِي أَمْرَاضِهِمْ وَجُوعِهِمْ وَإِذَايَةِ الخَلْقِ لَهُمْ فَإِنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا تَعْظِيمُ أُجُورِهِمْ، وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ قَوْلُ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَشَدُّكُمْ بَلَاءً

الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَوْلِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ»[1] أَيْ الأَفْضَلُ فَالأَفْضَلُ، فَعَلَى قَدْرِ قُرْبِ العَبْدِ مِنْ رَبِّهِ تَقُومُ بِهِ الأَمْرَاضُ وَالمِحَنُ.

فَإِنْ قُلْتَ: اللهُ جَلَّ وَعَلَا قَادِرٌ عَلَى تَعْظِيمِ أُجُورِهِمْ بِدُونِ وُقُوعِ تِلْكَ الأَعْرَاضِ بِهِمْ.

فَالجَوَابُ: أَنَّ حِكْمَتَهُ سُبْحَانَهُ اقْتَضَتْ أَنَّ تَعْظِيمَ أُجُورِهِمْ لَا يَتَحَقَّقُ وَلَا يَزْدَادُ إِلَّا مَعَ وُقُوعِهَا بِهِمْ، وَلِأَنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، ﴿**لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾ [الأنبياء: ٢٣].

(**أَوْ لِلتَّشْرِيعِ**) يَعْنِي تَشْرِيعِ الأَحْكَامِ المُتَعَلِّقَةِ بِتِلْكَ الأَعْرَاضِ وَتَبْيِينِهَا لِنَعْلَمَهَا، وَذَلِكَ كَوُقُوعِ السَّهْوِ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ لِنَعْلَمَ أَحْكَامَ السَّهْوِ فِيهَا، وَكَوُقُوعِ المَرَضِ وَالخَوْفِ لَهُ لِنَعْلَمَ كَيْفَ تُؤَدَّى الصَّلَاةُ فِي حَالَتَيْ المَرَضِ وَالخَوْفِ.

(**أَوْ لِلتَّسَلِّي عَنِ الدُّنْيَا**) أَيْ تَسَلِّي النَّاسِ عَنْ فَقْدِ الدُّنْيَا بِمَا وَقَعَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُمْ مِنْ فَقْدِهَا. وَالتَّسَلِّي: التَّصَبُّرُ وَعَدَمُ الحُزْنِ، وَالمُرَادُ بِالدُّنْيَا هُنَا المَالُ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الرَّاحَةِ وَاللَّذَّةِ وَغَيْرِهِمَا.

---

(١) لم يرد هذا الحديث بهذا اللفظ في الصحيحين، ولكن أورد البخاري ترجمة باب في كتاب المرضى بقوله: «باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»، وذكر الحافظ ابن حجر في شرحه له تخريج الحديث من كتب السنن وتصحيح ابن ماجه له، وأقرب الألفاظ لما ذكره العلامة المارغني ما ورد في المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، محنة أبي ذر رحمه الله: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم العلماء، ثم الأمثل فالأمثل»، والطبراني في المعجم الكبير بلفظ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل».

(أَوْ لِلتَّنْبِيهِ) أَيْ تَنْبِيهِ غَيْرِهِمْ **(لِخِسَّةِ)** أَيْ حَقَارَةِ **(قَدْرِهَا)** أَيْ الدُّنْيَا **(عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى)** وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْرَضُوا عَنِ الدُّنْيَا كَإِعْرَاضِ العَاقِلِ عَنِ الجِيفَةِ وَالنَّجَاسَةِ تَنَبَّهَ لِخِسَّةِ قَدْرِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَمِنْ ثَمَّ وَرَدَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا جِيفَةٌ قَذِرَةٌ»[١]، وَقَوْلُهُ أَيْضاً: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى الكَافِرِ مِنْهَا جَرْعَةَ مَاءٍ»[٢]، فَإِعْرَاضُ الأَنْبِيَاءِ عَنْهَا وَحُصُولُهَا لِلْكَافِرِ دَلِيلٌ عَلَى خِسَّةِ قَدْرِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُ المُصَنِّفِ: **(وَعَدَمِ رِضَاهُ بِهَا دَارَ جَزَاءٍ لِأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ)** مَعْطُوفٌ عَلَى «خِسَّةِ» مِنْ قَوْلِهِ «لِخِسَّةِ قَدْرِهَا» عَطْفَ مُسَبَّبٍ عَلَى سَبَبٍ، وَالمَعْنَى: لِخِسَّةِ قَدْرِهَا عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَمْ يَرْضَهَا دَارَ جَزَاءٍ لِأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، بَلْ رَضِيَ الآخِرَةَ دَارَ جَزَاءٍ لَهُمْ لِعِظَمِ قَدْرِهَا عِنْدَهُ.

وَقَوْلُ المُؤَلِّفِ: «لَمْ يَرْضَهَا» أَيْ الدُّنْيَا، وَالمُرَادُ بِهَا هُنَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لَا مَعْنَاهَا المُتَقَدِّم كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ، فَلَفْظُ «الدُّنْيَا» ذَكَرَهُ الشَّيْخُ أَوَّلًا بِمَعْنًى وَأَعَادَ عَلَيْهِ الضَّمِيرَ بِمَعْنًى آخَرَ.

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بالسوق، داخلا من بعض العالية والناس كنفته، فمر بجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسَكَّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم». والأسكّ: مبتور الأذنين.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عَزَّ وَجَلَّ، وصححه.

وَقَوْلُهُ: **(بِاعْتِبَارِ أَحْوَالِهِمْ فِيهَا عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)** مُتَعَلِّقٌ بِكُلٍّ مِنَ التَّسَلِّي وَالتَّنْبِيهِ وَعَدَمِ رِضَاهُ عَلَى وَجْهِ التَّنَازُعِ، أَيْ: كُلٌّ مِنَ الثَّلَاثَةِ بِاعْتِبَارِ أَحْوَالِهِمْ فِيهَا، يَعْنِي بِالنَّظَرِ إِلَى أَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ مَا أَصَابَهُمْ فِيهَا مِنَ المِحَنِ وَالشَّدَائِدِ وَالأَهْوَالِ مَعَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ الخَلْقِ عِبَادَةً وَأَشَدُّهُمْ طَاعَةً وَأَعْظَمُهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٧].

** ** **





السَّمْعِيَّاتُ الوَارِدَةُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ

اِعْلَمْ أَنَّ ـ المُصَنِّفَ تَغَمَّدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ـ قَدْ اسْتَوْفَى الكَلَامَ فِي مَبْحَثَيْ الإِلَهِيَّاتِ وَالنَّبَوِيَّاتِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَبْحَثِ السَّمْعِيَّاتِ فِي هَذِهِ العَقِيدَةِ إِلَّا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بَعْدُ فِي مَبْحَثِ كَلِمَتَيْ الإِسْلَامِ عِنْدَ ذِكْرِهِ لِقَوْلِنَا: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» أَعْنِي قَوْلَهُ: «فَيَدْخُلُ فِيهِ الإِيمَانُ بِسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَاليَوْمِ الآخِرِ»، وَهِيَ أُصُولُ السَّمْعِيَّاتِ وَأَرْكَانُهَا، وَقَدْ شَرَحْنَاهَا هُنَاكَ بِمَا يُنَاسِبُ المَقَامَ.

وَمِنَ السَّمْعِيَّاتِ الوَاجِبِ اعْتِقَادُهَا شَرْعاً: الإِيمَانُ بِالقَدَرِ وَالقَضَاءِ، وَبِسُؤَالِ القَبْرِ وَنَعِيمِهِ وَعَذَابِهِ، وَبِالبَعْثِ، وَالحَشْرِ، وَالنَّشْرِ، وَالحِسَابِ، وَأَخْذِ الصُّحُفِ أَيْ الكُتُبِ، وَالمِيزَانِ، وَالصِّرَاطِ، وَحَوْضِ خَيْرِ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّـهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَبِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا المُخْتَارِ وَغَيْرِهِ مِنْ مُرْتَضَى الأَخْيَارِ، وَبِالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَوُجُودِهِمَا فِيمَا مَضَى، وَأَنَّهُمَا دَارُ خُلُودٍ لِلسَّعِيدِ وَالشَّقِيِّ، وَأَنَّ مِنْ نَعِيمِ الجِنَانِ الحُور العِين وَالوِلْدَان، وَأَنَّ أَعْظَمَ نَعِيمِهَا وَأَجَلَّهُ رُؤْيَة البَارِئِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمِنْهَا وُجُوبُ الإِيمَانِ بِالحَفَظَةِ وَالكَتَبَةِ الكِرَام مِنَ المَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ، وَبِمَلَكِ المَوْتِ سَيِّدِنَا عِزْرَائِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَقْبِضُ الأَرْوَاحَ

قَاطِبَةً، وَبِعُمُومِ المَوْتِ أَيْ فَنَاءِ كُلِّ العَالَمِ إِلَّا مَا وَرَدَ اسْتِثْنَاؤُهُ كَالعَرْشِ وَالكُرْسِيِّ وَالقَلَمِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَعَجْبِ الذَّنَبِ وَأَجْسَادِ الأَنْبِيَاءِ وَالشُّهَدَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَبِوُجُودِ إِبْلِيسَ اللَّعِينَ عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ الكَافِرِينَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَصَى وَكَفَرَ وَحَسَدَ وَكَذَبَ وَتَكَبَّرَ، وَبِوُجُودِ الجِنِّ وَهُمْ نَسْلُ إِبْلِيسَ، وَمِنْهُمْ الشَّيَاطِينُ، وَفِيهِمْ المُؤْمِنُ وَالكَافِرُ.

وَمِمَّا يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ أَفْضَلِيَّةُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَائِرِ الخَلْقِ، وَإِسْرَاؤُهُ وَمِعْرَاجُهُ بِجَسَدِهِ يَقَظَةً، وَأَفْضَلِيَّةُ صَحْبِهِ ـ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ـ عَلَى سَائِرِ الأُمَّةِ، وَبَرَاءَةِ زَوْجِهِ عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ مِمَّا رُمِيَتْ بِهِ مِنَ الإِفْكِ.

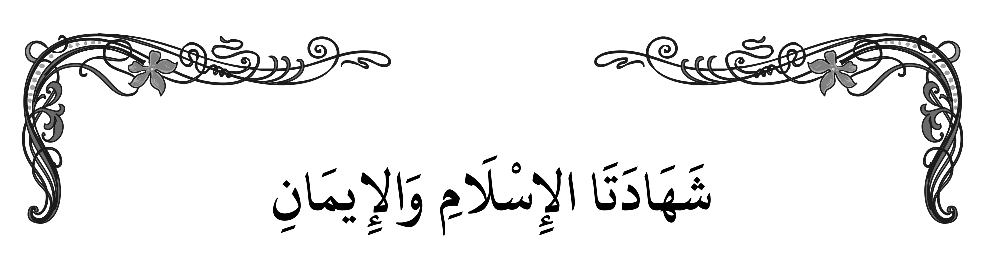
وَمِنْ ذَلِكَ نُزُولُ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قُرْبَ السَّاعَةِ، وَقَتْلِهِ الدَّجَّالَ، وَرَفْعُ القُرْآنِ، وَبَقَاءُ الأَرْوَاحِ، وَأَنَّ المَوْتَ بِالأَجَلِ، وَأَنَّ الفِسْقَ لَا يُزِيلُ الإِيمَانَ.

وَمِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ أَيْضاً حَيَاةُ الأَنْبِيَاءِ وَالشُّهَدَاءِ ـ عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ فِي قُبُورِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَثُبُوتُ المُعْجِزَةِ وَالعِصْمَةِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ، وَالكَرَامَةُ لِلْأَوْلِيَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَنَفْعُ الدُّعَاءِ.

فَهَذِهِ عِدَّةٌ مِنَ السَّمْعِيَّاتِ، وَهْيَ أَهَمُّهَا وَآكِدُهَا، يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهَا وَالإِيمَانُ بِهَا تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا، كَمَعْرِفَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرُسُلِهِ عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا هُنَا أَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ، وَأَنْهَاهَا بَعْضُهُمْ إِلَى خَمْسِينَ، وَآخَرُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَكُلُّهَا مُسْتَمَدٌّ وَمَسْمُوعٌ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الأُمَّةُ.

وَإِنْ شِئْتَ الإِحَاطَةَ بِكُلِّهَا وَبِمَعَانِيهَا مُفَصَّلَةً فَعَلَيْكَ بِالمُطَوَّلَاتِ وَبِحَاشِيَتِنَا «بُغْيَةُ المُرِيدِ لِجَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ» تَلْفِ بِهَا المُرَادَ وَتَحْظَ بِسَبِيلِ الرَّشَادِ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ العِلْمُ المُحِيطُ وَالأَمْرُ كُلُّهُ وَالمَآلُ، نَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَلَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ هُوَ كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ.

❊❊ ❊❊ ❊❊



شَهَادَتَا الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ

وَكَيْفِيَّةُ جَمْعِ مَعْنَاهُمَا لِكُلِّ مَعَانِي تِلْكَ العَقَائِدِ بِالبُرْهَانِ، خَتَمَ اللهُ لِلْجَمِيعِ بِالخَيْرِ وَالغُفْرَانِ

لَمَّا فَرَغَ المُؤَلِّفُ مِنْ ذِكْرِ مَا يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهُ مِنَ العَقَائِدِ المُتَعَلِّقَةِ بِاللَّـهِ ﷻ وَبِرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمِنْ ذِكْرِ بَرَاهِينِهَا، كَمَّلَ الفَائِدَةَ بِبَيَانِ انْدِرَاجِ تِلْكَ العَقَائِدِ كُلِّهَا تَحْتَ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي هِيَ قَوْلُنَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ»، فَقَالَ: **(وَيَجْمَعُ مَعَانِيَ هَذِهِ العَقِيدَةِ كُلِّهَا)** فـ«مَعَانِي» مَفْعُولٌ بِهِ لِـ«يَجْمَعُ»، وَفَاعِلُهَا: **(قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللَّـهِ)** عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ: مَعْنَى قَوْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ» إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّ الجَامِعَ لِلْعَقَائِدِ المُتَقَدِّمَةِ إِنَّمَا هُوَ مَعْنَى القَوْلِ المَذْكُورِ، لَا لَفْظُهُ.

وَإِعْرَابُ الكَلِمَةِ المُشَرَّفَةِ أَنْ تَقُولَ: «لَا» نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ، عَامِلَةٌ عَمَلَ «إِنَّ»، وَ«إِلَهَ» اسْمُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى الفَتْحِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ، وَخَبَرُهَا مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ «مَوْجُودٌ» أَوْ «مُحَقَّقٌ»، وَ«إِلَّا» حَرْفُ اسْتِثْنَاءٍ.

وَاسْمُ الجَلَالَةِ مَرْفُوعٌ عَلَى البَدَلِيَّةِ مِنَ الضَّمِيرِ المُسْتَتِرِ فِي الخَبَرِ المَحْذُوفِ، وَيَجُوزُ نَصْبُهُ عَلَى الاسْتِثْنَاءِ مِنَ الضَّمِيرِ المَذْكُورِ.

وَالاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ لِأَنَّهُ المُسْتَثْنَى ـ وَهْوَ «إِلَهَ» ـ يَشْمَلُ المُسْتَثْنَى وَغَيْرَهُ



المَفْرُوضَ. وَقِيلَ: مُنْقَطِعٌ لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى المُتَكَلِّمِ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ أَنْ يُلَاحِظَ أَنَّ النَّفْيَ مُنْصَبٌّ عَلَى مَا سِوَاهُ تَعَالَى، إِذْ لَوْ لَاحَظَ أَنَّ النَّفْيَ شَامِلٌ لَهُ تَعَالَى لَكَفَرَ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ المُسْتَثْنَى مِنْهُ غَيْرَ شَامِلٍ لِلْمُسْتَثْنَى، فَيَكُونُ الاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعاً.

وَقِيلَ: خَبَرُ «لَا» لَيْسَ بِمَحْذُوفٍ، بَلْ هُوَ اسْمُ الجَلَالَةِ.

وَجُمْلَةُ «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» مُرَكَّبَةٌ مِنْ مُبْتَدَإٍ وَخَبَرٍ وَمُضَافٍ إِلَيْهِ.

ثُمَّ عَلَّلَ الشَّيْخُ قَوْلَهُ «وَيَجْمَعُ مَعَانِيَ هَذِهِ العَقَائِدِ» إِلَى آخِرِهِ بِقَوْلِهِ: **(إِذْ مَعْنَى الأُلُوهِيَّةِ: اسْتِغْنَاءُ الإِلَهِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَافْتِقَارُ كُلِّ مَا عَدَاهُ إِلَيْهِ)** وَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الإِلَهِ: المُسْتَغْنِي عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ المُفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا عَدَاهُ، **(فَـ)** يَكُونُ **(مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لَا مُسْتَغْنِياً عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَمُفْتَقِراً إِلَيْهِ كُلُّ مَا عَدَاهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى)**.

وَتَفْسِيرُ الأُلُوهِيَّةِ وَ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» بِمَا ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ تَفْسِيرٌ لَهُمَا بِالمَعْنَى اللَّازِمِ لِمَعْنَاهُمَا المُطَابِقِيِّ، إِذْ مَعْنَى الأُلُوهِيَّةِ المُطَابِقِيُّ كَوْنُ الإِلَهِ مَعْبُوداً بِحَقٍّ، وَيَلْزَمُهُ المَعْنَى الَّذِي فَسَّرَ بِهِ الشَّيْخُ الأُلُوهِيَّةَ، وَمَعْنَى الإِلَهِ المُطَابِقِ هُوَ المَعْبُودُ بِحَقٍّ، فَيَكُونُ مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» المُطَابِقُ: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، وَيَلْزَمُهُ المَعْنَى الَّذِي فَسَّرَ بِهِ المُؤَلِّفُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وَإِنَّمَا اخْتَارَ الشَّيْخُ التَّفْسِيرَ بِاللَّازِمِ دُونَ التَّفْسِيرِ بِالمَعْنَى المُطَابِقِيِّ لِأَنَّ انْدِرَاجَ مَعَانِي تِلْكَ العَقَائِدِ فِي المَعْنَى اللَّازِمِ أَظْهَرُ مِنِ انْدِرَاجِهَا فِي المُطَابِقِيِّ.

(أَمَّا اسْتِغْنَاؤُهُ جَلَّ وعَزَّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ يُوجِبُ لَهُ تَعَالَى الوُجُودَ) أَيْ يَقْتَضِي وَيَسْتَلْزِمُ وُجُوبَ الوُجُودِ لَهُ الَّذِي هُوَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ كَمَا عَلِمْتَ،

(وَ) يُوجِبُ لَهُ تَعَالَى (**القِدَمَ، وَالبَقَاءَ، وَالمُخَالَفَةَ لِلْحَوَادِثِ، وَالقِيَامَ بِالنَّفْسِ**) وَهَذِهِ الأَرْبَعَةُ مِنَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ المُتَقَدِّمَةِ، (وَ) يُوجِبُ لَهُ سُبْحَانَهُ (**التَّنَزُّهَ عَنِ النَّقَائِصِ**) كُلِّهَا.

(**وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ**) أَيْ فِي وُجُوبِ تَنَزُّهِهِ عَنِ النَّقَائِصِ (**وُجُوبُ السَّمْعِ لَهُ تَعَالَى وَالبَصَرِ وَالكَلَامِ**) وَهَذِهِ الثَّلَاثُ مِنْ صِفَاتِ المَعَانِي المُتَقَدِّمَةِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ أَيْضاً لَوَازِمُهَا الثَّلَاثَةُ وَهْيَ كَوْنُهُ تَعَالَى سَمِيعاً وَبَصِيراً وَمُتَكَلِّماً، فَانْدَرَجَ فِي اسْتِغْنَائِهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ إِحْدَى عَشْرَةَ صِفَةً مِنَ الصِّفَاتِ الوَاجِبَةِ لَهُ تَعَالَى.

ثُمَّ بَيَّنَ وَجْهَ اسْتِلْزَامِ اسْتِغْنَائِهِ تَعَالَى عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ بِقَوْلِهِ: (**إِذْ لَوْ لَمْ تَجِبْ لَهُ هَذِهِ الصِّفَاتُ لَكَانَ مُحْتَاجاً إِلَى المُحْدِثِ أَوِ المَحَلِّ أَوْ مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ النَّقَائِصَ**) وَاحْتِيَاجُهُ تَعَالَى إِلَى وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ بَاطِلٌ لِمُنَافَاتِهِ لِلْاسْتِغْنَاءِ، أَمَّا احْتِيَاجُهُ إِلَى المُحْدِثِ فَعَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ لَهُ تَعَالَى الوُجُودُ وَالقِدَمُ وَالبَقَاءُ وَالمُخَالَفَةُ لِلْحَوَادِثِ وَالاسْتِغْنَاءُ عَنِ المُخَصِّصِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الأَمْرَيْنِ المُفَسَّرِ بِهِمَا فِيمَا سَلَفَ القِيَامُ بِالنَّفْسِ، وَأَمَّا احْتِيَاجُهُ إِلَى المَحَلِّ فَعَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ لَهُ الاسْتِغْنَاءُ عَنِ المَحَلِّ الَّذِي هُوَ الأَمْرُ الآخَرُ مِنَ الأَمْرَيْنِ المُفَسَّرِ بِهِمَا فِيمَا تَقَدَّمَ القِيَامُ بِالنَّفْسِ، وَأَمَّا احْتِيَاجُهُ إِلَى مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ النَّقَائِصَ فَعَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ لَهُ التَّنَزُّهُ عَنْهَا الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ وُجُوبُ السَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالكَلَامِ وَلَوَازِمُهَا الثَّلَاثَةُ.

(**وَيُؤْخَذُ مِنْهُ**) أَيْ مِنِ اسْتِغْنَائِهِ تَعَالَى عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ (**تَنَزُّهُهُ تَعَالَى عَنِ**

الأَغْرَاضِ) جَمْعُ غَرَضٍ، وَقَدْ قَدَّمْنَا مَعْنَاهُ وَمَعْنَى الحِكْمَةِ فِي شَرْحِ المُمَاثَلَةِ لِلْحَوَادِثِ، كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّ أَفْعَالَهُ سُبْحَانَهُ لَا تَخْلُو عَنْ حِكْمَةٍ وَإِنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا عُقُولُنَا.

وَأَمَّا الأَغْرَاضُ **(فِي أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ)** فَهْوَ مُتَنَزِّهٌ عَنْهَا **(وَإِلَّا)** يَتَنَزَّه عَنْهَا **(لَزِمَ افْتِقَارُهُ إِلَى مَا يُحَصِّلُ غَرَضَهُ)** مِنَ الفِعْلِ وَالتَّرْكِ، **(كَيْفَ)** يَصِحُّ افْتِقَارُهُ إِلَى مَا يُحَصِّلُ غَرَضَهُ **(وَهْوَ)** أَيْ وَالحَالُ أَنَّهُ **(جَلَّ وعَزَّ الغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ؟!)** وَإِنَّمَا نَصَّ المُصَنِّفُ هُنَا عَلَى عَقِيدَةِ تَنَزُّهِهِ تَعَالَى عَنِ الأَغْرَاضِ مَعَ انْدِرَاجِهَا تَحْتَ المُخَالَفَةِ لِلْحَوَادِثِ لِمَزِيدِ الاهْتِمَامِ بِهَا دَفْعاً لِتَوَهُّمِ عَدَمِ انْدِرَاجِهَا فِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ.

(وَيُؤْخَذُ مِنْهُ) أَيْ مِنْ اسْتِغْنَائِهِ ﷻ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ **(أَيْضاً)** أَيْ كَمَا أُخِذَ مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ **(أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ تَعَالَى فِعْلُ شَيْءٍ مِنَ المُمْكِنَاتِ عَقْلًا وَلَا تَرْكُهُ، إِذْ لَوْ وَجَبَ عَلَيْهِ تَعَالَى)** فِعْلُ **(شَيْءٍ مِنْهَا عَقْلًا)** كَمَا قَالَتْهُ المُعْتَزِلَةُ وَذَلِكَ **(كَالثَّوَابِ)** لِلْمُطِيعِ **(مَثَلًا)** أَوْ وَجَبَ عَلَيْهِ تَعَالَى تَرْكُ شَيْءٍ مِنْهَا عَقْلًا كَمَا قَالَتْهُ المُعْتَزِلَةُ أَيْضاً وَذَلِكَ كَتَرْكِ العِقَابِ لِلْمُطِيعِ **(لَكَانَ جَلَّ وعَزَّ مُفْتَقِراً إِلَى)** فِعْلِ **(ذَلِكَ الشَّيْءِ)** أَوْ تَرْكِهِ **(لِيَتَكَمَّلَ بِهِ غَرَضُهُ)** أَيْ لِيَحْصُلَ لَهُ بِهِ الكَمَالُ، **(إِذْ لَا يَجِبُ فِي حَقِّهِ جَلَّ وَعَزَّ إِلَّا مَا هُوَ كَمَالٌ لَهُ)** وَنَظِيرُ ذَلِكَ فِعْلُ الصَّلَاةِ وَتَرْكُ الزِّنَى مَثَلًا فَإِنَّهُمَا وَاجِبَانِ عَلَى المُكَلَّفِ، فَيَكُونُ مُفْتَقِراً إِلَيْهِمَا لِيَتَكَمَّلَ بِهِمَا، فَإِذَا فَعَلَ الصَّلَاةَ وَتَرَكَ الزِّنَى تَكَمَّلَ بِهِمَا. **(كَيْفَ)** يَفْتَقِرُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ لِيَتَكَمَّلَ بِهِ **(وَهْوَ الغنيُّ جَلَّ وَعَلَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ؟!)**.



تَنْبِيهٌ

اسْتُفِيدَ مِنْ قَوْلِ المُصَنِّفِ: «وَيُؤْخَذُ مِنْهُ تَنَزُّهُهُ تَعَالَى عَنِ الأَغْرَاضِ» إِلَى هُنَا عَقِيدَتَانِ: تَنَزُّهُهُ تَعَالَى عَنِ الأَغْرَاضِ، وَعَدَمُ وُجُوبِ شَيْءٍ عَلَيْهِ مِنَ المُمْكِنَاتِ فِعْلًا أَوْ تَرْكاً، وَسَتَأْتِي فِي كَلَامِهِ عَقِيدَةٌ أُخْرَى تُؤْخَذُ أَيْضاً مِنِ اسْتِغْنَائِهِ تَعَالَى عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَهْيَ نَفْيُ كَوْنِ الشَّيْءِ مُؤَثِّراً بِقُوَّةٍ أَوْدَعَهَا اللهُ فِيهِ، فَإِذَا ضُمَّتْ هَذِهِ الثَّلَاثُ إِلَى الإِحْدَى عَشْرَةَ المُتَقَدِّمَةِ صَارَتْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، وَأَضْدَادُهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ مِثْلُهَا، فَالجُمْلَةُ ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ عَقِيدَةً، كُلُّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنِ اسْتِغْنَائِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

(وَأَمَّا افْتِقَارُ كُلِّ مَا عَدَاهُ إِلَيْهِ جَلَّ وعَزَّ فَهْوَ يُوجِبُ لَهُ تَعَالَى) مَا بَقِيَ مِنْ صِفَاتِ المَعَانِي، أَعْنِي **(الحَيَاةَ وَعُمُومَ القُدْرَةِ وَالإِرَادَةِ وَالعِلْمِ)** أَيْ يَسْتَلْزِمُ وُجُوبَ الحَيَاةِ، وَوُجُوبَ القُدْرَةِ العَامَّةِ وَالإِرَادَةِ العَامَّةِ وَالعِلْمِ العَامِّ المُحِيطِ لَهُ تَعَالَى.

وَالمُرَادُ بِعُمُومِ الصِّفَاتِ الثَّلَاثِ عُمُومُ تَعَلُّقِهَا بِمَا قَدَّمَهُ المُؤَلِّفُ وَهْوَ جَمِيعُ المُمْكِنَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِلْقُدْرَةِ وَالإِرَادَةِ، وَجَمِيعُ الوَاجِبَاتِ وَالجَائِزَاتِ وَالمُسْتَحِيلَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِلْعِلْمِ، وَيُوجِبُ لَهُ أَيْضاً مَعْنَوِيَّاتِ هَذِهِ الأَرْبَعِ وَهْيَ كَوْنُهُ حَيّاً وَقَادِراً وَمُرِيداً وَعَالِماً، فَهَذِهِ ثَمَانِ عَقَائِدَ يَسْتَلْزِمُهَا افْتِقَارُ كُلِّ مَا عَدَاهُ إِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

ثُمَّ بَيَّنَ وَجْهَ اسْتِلْزَامِهِ لِوُجُوبِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الأَرْبَعِ لَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: **(إِذْ لَوْ انْتَفَى شَيْءٌ مِنْهَا لَمَا أَمْكَنَ أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ مِنَ الحَوَادِثِ)** فَلَوْ انْتَفَتْ الحَيَاةُ



انْتَفَتْ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ بَعْدَهَا لِأَنَّ الحَيَاةَ شَرطٌ فِيهَا، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ مِنَ الحَوَادِثِ، وَلَوْ انْتَفَتْ القُدْرَةُ أَوْ عُمُومُهَا لَزِمَ العَجْزُ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ مِنَ الحَوَادِثِ، وَلَوْ انْتَفَتْ الإِرَادَةُ أَوْ عُمُومُهَا لَانْتَفَتْ القُدْرَةُ لِأَنَّ تَأْثِيرَهَا مَوْقُوفٌ عَلَى الإِرَادَةِ كَمَا أَسْلَفْنَاهُ فِي البَرَاهِينِ، وَإِذَا انْتَفَتْ القُدْرَةُ لَزِمَ العَجْزُ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ مِنَ الحَوَادِثِ، وَلَوْ انْتَفَى العِلْمُ أَوْ عُمُومُهُ لَانْتَفَتْ الإِرَادَةُ لِاسْتِحَالَةِ القَصْدِ إِلَى غَيْرِ مَعْلُومٍ، وَلَوْ انْتَفَتْ الإِرَادَةُ انْتَفَتْ القُدْرَةُ لِمَا تَقَدَّمَ، فَيَلْزَمُ العَجْزُ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ مِنَ الحَوَادِثِ، (**فَلَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ شَيْءٌ**) مِنْهَا، (**كَيْفَ**) يَصِحُّ عَدَمُ افْتِقَارِ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ (**وَهُوَ الَّذِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ؟!**).

(**وَيُوجِبُ لَهُ تَعَالَى أَيْضاً**) أَيْ يَسْتَلْزِمُ الافْتِقَارُ المَذْكُورُ أَيْضاً وُجُوبَ (**الوَحْدَانِيَّة**) لَهُ تَعَالَى، وَالوَحْدَانِيَّةُ هِيَ تَمَامُ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ المُتَقَدِّمَةِ، وَوَجْهُ الاسْتِلْزَامِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: (**إِذْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ثَانٍ فِي الأُلُوهِيَّةِ لَمَا افْتَقَرَ إِلَيْهِ شَيْءٌ لِلُزُومِ عَجْزِهِمَا حِينَئِذٍ**) أَيْ حِينَ إِذْ كَانَ مَعَهُ ثَانٍ فِي الأُلُوهِيَّةِ، وَوَجْهُ عَجْزِهِمَا يُعْلَمُ مِمَّا سَلَفَ فِي بُرْهَانِ وُجُوبِ الوَحْدَانِيَّةُ لَهُ تَعَالَى، (**كَيْفَ**) يَصِحُّ عَدَمُ افْتِقَارِ شَيْءٍ إِلَيْهِ (**وَهُوَ الَّذِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ؟!**).

(**وَيُؤْخَذُ مِنْهُ**) أَيْ مِنْ افْتِقَارِ كُلِّ مَا عَدَاهُ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا (**أَيْضاً**) أَيْ كَمَا أُخِذَ مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ (**حُدُوثُ العَالَمِ**) بِفَتْحِ اللَّامِ وَهُوَ مَا سِوَى اللَّهِ (**بِأَسْرِهِ**) أَيْ بِأَجْمَعِهِ؛ (**إِذْ لَوْ كَانَ شَيْءٌ مِنْهُ قَدِيماً**) كَمَا زَعَمَتْهُ الفَلَاسِفَةُ فَإِنَّهُمْ قَالُوا بِقِدَمِ الأَفْلَاكِ وَالعَنَاصِرِ الأَرْبَعَةِ وَهِيَ التُّرَابُ وَالمَاءُ وَالهَوَاءُ وَالنَّارُ (**لَكَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ**

مُسْتَغْنِياً عَنْهُ تَعَالَى) لِقِدَمِهِ، **(كَيْفَ)** يَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ مُسْتَغْنِياً عَنْهُ تَعَالَى **(وَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَفْتَقِرَ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ؟!)**.

وَإِنَّما ذَكَرَ المُؤَلِّفُ هُنَا عَقِيدَةَ حُدُوثِ العَالَمِ بِأَسْرِهِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَعُدَّهَا مِنَ العَقَائِدِ السَّابِقَةِ لِأَنَّ اعْتِقَادَ قِدَمِ العَالَمِ أَوْ قِدَمِ شَيْءٍ مِنْهُ كُفْرٌ، فَاعْتَنَى الشَّيْخُ بِذِكْرِ أَخْذِ حُدُوثِهِ مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ لِيَعْتَقِدَ المُكَلَّفُ حُدُوثَهُ بِأَسْرِهِ لِلدَّلِيلِ الَّذِي ذَكَرَهُ.

(وَيُؤْخَذُ مِنْهُ) أَيْ مِنْ افْتِقَارِ كُلِّ مَا عَدَاهُ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا **(أَيْضاً أَن لَّا تَأْثِيرَ لِشَيْءٍ مِنَ الكَائِنَاتِ)** أَيْ ذَوَاتِ المَوْجُودَاتِ، وَالمُرَادُ بِهَا هُنَا الأَسْبَابُ العَادِيَّةُ كَالنَّارِ وَالسِّكِّينِ وَالطَّعَامِ وَالمَاءِ وَالثَّوْبِ وَنَحْوِهَا، فَلَا تَأْثِيرَ لِشَيْءٍ مِنْهَا **(فِي أَثَرٍ مَا)** أَيْ فِي أَثَرٍ، أَيِّ أَثَرٍ كَانَ، فَأَثَرُ النَّارِ الحَرْقُ، وَأَثَرُ السِّكِّينِ القَطْعُ، وَأَثَرُ الطَّعَامِ الشِّبَعُ عِنْدَ الأَكْلِ، وَأَثَرُ المَاءِ الرِّيُّ عِنْدَ الشُّرْبِ وَالنَّبَاتُ وَالطَّهَارَةُ وَالنَّظَافَةُ، وَأَثَرُ الثَّوْبِ الوِقَايَةُ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ.

وَمَعْنَى كَوْن هَذِهِ الأُمُورِ وَنَحْوِهَا آثَاراً أَنَّهَا مُسَبَّبَاتٌ عَنْ أَسْبَابِهَا، وَلَكِنْ لَا تَأْثِيرَ لِشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الأَسْبَابِ فِي شَيْءٍ مِنْ مُسَبَّبَاتِهَا **(وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ يَسْتَغْنِيَ ذَلِكَ الأَثَرُ)** أَيْ ذَلِكَ المُسَبَّبُ **(عَنْ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ، كَيْفَ)** يَسْتَغْنِي ذَلِكَ الأَثَرُ عَنْهُ سُبْحَانَهُ **(وَهْوَ الَّذِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ عُمُوماً وَعَلَى كُلِّ حَالٍ؟!)**

نُقِلَ أَنَّ المُصَنِّفَ قِيلَ لَهُ: مَا أَرَدْتَ بِقَوْلِكَ «عُمُوماً وَعَلَى كُلِّ حَالٍ»؟ فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: عُمُوماً فِي جَمِيعِ الذَّوَاتِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ. اهـ. فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَهْوَ الَّذِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الذَّوَاتِ وَالصِّفَاتِ.



(هَذَا) أَيْ أَخْذُ عَدَمِ تَأْثِيرِ شَيْءٍ مِنَ الكَائِنَاتِ فِي أَثَرٍ مَا مِنْ افْتِقَارِ كُلِّ مَا سِوَاهُ إِلَيْهِ **(إِنْ قَدَّرْتَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الكَائِنَاتِ يُؤَثِّرُ بِطَبْعِهِ)** أَيْ بِذَاتِهِ وَحَقِيقَتِهِ كَمَا يَعْتَقِدُ الطَّبَائِعِيُّونَ، وَلَا خِلَافَ فِي كُفْرِهِمْ، **(وَأَمَّا إِنْ قَدَّرْتَهُ مُؤَثِّراً بِقُوَّةٍ جَعَلَهَا اللهُ فِيهِ)** وَلَوْ نَزَعَهَا عَنْهُ لَمْ يُؤَثِّرْ **(كَمَا يَزْعُمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الجَهَلَةِ)** وَمُعْتَقِدُ هَذَا فَاسِقٌ مُبْتَدِعٌ، وَفِي كُفْرِهِ قَوْلَانِ، وَالرَّاجِحُ عَدَمُ كُفْرِهِ.

وَالمُؤْمِنُ المُحَقَّقُ الإِيمَانِ مَنْ لَمْ يُسْنِدْ لِلْكَائِنَاتِ تَأْثِيراً، لَا بِطَبْعِهَا وَلَا بِقُوَّةٍ جُعِلَتْ فِيهَا، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّـهَ تَعَالَى أَجْرَى العَادَةَ اخْتِيَاراً مِنْهُ بِأَنْ يَخْلُقَ المُسَبَّبَاتِ عِنْدَ أَسْبَابِهَا، أَيْ مَعَهَا لَا بِهَا، وَلَا بِقُوَّةٍ فِيهَا، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْجُو مُعْتَقِدُهُ بِفَضْلِ اللَّـهِ مِنْ أَهْوَالِ الآخِرَةِ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى سُوءِ الاعْتِقَادِ.

وَقَوْلُ المُؤَلِّفِ **(فَذَاكَ مُحَالٌ)** هُوَ جَوَابُ «أَمَّا»، وَاسْمُ الإِشَارَةِ عَائِدٌ عَلَى تَقْدِيرِ تَأْثِيرِ شَيْءٍ مِنَ الكَائِنَاتِ بِقُوَّةٍ جَعَلَهَا اللهُ فِيهِ. وَحَاصِلُ المَعْنَى أَنَّكَ إِنْ قَدَّرْتَ تَأْثِيرَ شَيْءٍ مِنَ الكَائِنَاتِ بِطَبْعِهِ لَزِمَ اسْتِغْنَاءُ ذَلِكَ الأَثَرِ عَنِ اللَّـهِ تَعَالَى، فَيُؤْخَذُ بُطْلَانُ هَذَا اللَّازِمِ مِنْ افْتِقَارِ كُلِّ مَا سِوَاهُ إِلَيْهِ تَعَالَى، لَا مِنْ اسْتِغْنَائِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَإِنْ قَدَّرْتَ تَأْثِيرَ شَيْءٍ مِنَ الكَائِنَاتِ بِقُوَّةٍ جَعَلَهَا اللهُ فِيهِ لَمْ يَلْزَمْ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ اسْتِغْنَاءُ الأَثَرِ عَنِ اللَّـهِ تَعَالَى، بَلْ يَكُونُ الأَثَرُ مُتَوَقِّفاً عَلَى مَشِيئَةِ اللَّـهِ وَاخْتِيَارِهِ حَتَّى يَخْلُقَ القُوَّةَ فِي سَبَبِهِ العَادِيِّ.

نَعَمْ هَذَا التَّقْدِيرُ الثَّانِي مُحَالٌ **(أَيْضاً)** أَيْ كَمَا أَنَّ التَّقْدِيرَ الأَوَّلَ مُحَالٌ **(لِأَنَّهُ يَصِيرُ حِينَئِذٍ)** أَيْ حِينَ إِذْ قَدَّرْتَهُ مُؤَثِّراً بِقُوَّةٍ جَعَلَهَا اللهُ فِيهِ يَصِيرُ **(مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ مُفْتَقِراً فِي إِيجَادِ بَعْضِ الأَفْعَالِ إِلَى وَاسِطَةٍ)** وَهِيَ تِلْكَ القُوَّةُ المَجْعُولَةُ

فِي السَّبَبِ العَادِيِّ، **(وَذَلِكَ)** أَيْ صَيْرُورَةُ مَوْلَانَا مُفْتَقِراً فِي إِيجَادِ بَعْضِ الأَفْعَالِ إِلَى وَاسِطَةٍ **(بَاطِلٌ لِمَا عَرَفْتَ مِنْ وُجُوبِ اسْتِغْنَائِهِ جَلَّ وَعَزَّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ)**.

وَإِنَّمَا صَرَّحَ الشَّيْخُ بِعَقِيدَةِ أَنْ لَا تَأْثِيرَ لِشَيْءٍ مِنَ الكَائِنَاتِ فِي أَثَرٍ مَا مَعَ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الوَحْدَانِيَّةِ لِلرَّدِّ صَرِيحاً عَلَى الطَّبَائِعِيِّينَ وَعَلَى مَنْ يَقُولُ مِنَ الجَهَلَةِ بِتَأْثِيرِ الأَسْبَابِ بِقُوَّةٍ جُعِلَتْ فِيهَا.

تَنْبِيهٌ

اسْتُفِيدَ مِنْ قَوْلِ المُؤَلِّفِ «وَيُوجِبُ لَهُ تَعَالَى أَيْضاً الوَحْدَانِيَّةَ» إِلَى هُنَا ثَلَاثُ عَقَائِدَ: الوَحْدَانِيَّةُ، وَحُدُوثُ العَالَمِ بِأَسْرِهِ، وَأَنْ لَا تَأْثِيرَ لِشَيْءٍ مِنَ الكَائِنَاتِ بِطَبْعِهِ، فَإِذَا ضُمَّتْ هَذِهِ الثَّلَاثُ إِلَى الثَّمَانِ قَبْلَهَا صَارَتْ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَأَضْدَادُهَا أَحَدَ عَشَرَ، فَالجُمْلَةُ اثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ عَقِيدَةً كُلُّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ افْتِقَارِ كُلِّ مَا عَدَاهُ إِلَيْهِ ﷻ، فَإِذَا ضُمَّتْ الاثْنَتَانِ وَالعِشْرُونَ إِلَى الثَّمَانِ وَالعِشْرِينَ عَقِيدَةً المَأْخُوذَةِ مِنْ اسْتِغْنَائِهِ جَلَّ وَعَلَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ كَانَتْ خَمْسِينَ عَقِيدَةً.

(فقَدْ بَانَ) أَيْ اتَّضَحَ **(لَكَ)** مِنَ البَيَانِ السَّابِقِ **(تضَمُّنُ)** أَيْ اسْتِلْزَامُ مَعْنَى **(قَوْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»)** لِلْعَقَائِدِ المُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ المُتَقَدِّمَةِ أَوَّلَ المَتْنِ، وَهْيَ اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ عَقِيدَةً مِنَ الخَمْسِينَ المَذْكُورَةِ هُنَا، وَتَرْجِعُ الاثْنَتَانِ وَالأَرْبَعُونَ عَقِيدَةً **(لِلْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ)** المُتَقَدِّمَةِ **(الَّتِي يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهَا فِي حَقِّ مَوْلَانَا جَلَّ وعَزَّ، وَهْيَ مَا يَجِبُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى)** مِنَ العِشْرِينَ صِفَةً، **(وَمَا يَسْتَحِيلُ)** فِي حَقِّهِ تَعَالَى مِنَ العِشْرِينَ صِفَةً أَضْدَادِ العِشْرِينِ الوَاجِبَةِ،

(وَمَا يَجُوزُ) فِي حَقِّهِ وَهْوَ فِعْلُ كُلِّ مُـمْكِنٍ أَوْ تَرْكُهُ وَضِدُّهُ، هَذِهِ هِيَ الاثْنَتَانِ وَالأَرْبَعُونَ عَقِيدَةً.

وَأَمَّا الثَّمَانِيَةُ البَاقِيَةُ مِنَ الخَمْسِينَ وَهْيَ: تَنَزُّهُهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الأَغْرَاضِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَحُدُوثِ العَالَمِ بِأَسْرِهِ، وَعَدَمُ تَأْثِيرِ شَيْءٍ بِطَبْعِهِ، وَعَدَمُ تَأْثِيرِ شَيْءٍ بِقُوَّةٍ جُعِلَتْ فِيهِ، وَأَضْدَادُهَا الأَرْبَعَةُ، فَلَمْ يُقَدِّمْهَا الشَّيْخُ أَوَّلَ المَتْنِ، وَإِنَّمَا أَدْرَجَهَا فِي مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لِمَا قَدَّمْنَاهُ.

(وَأَمَّا قَوْلُنَا: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ») فَمَعْنَاهُ التَّصْدِيقُ بِثُبُوتِ رِسَالَتِهِ **(صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)**، وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّصْدِيقَ بِهَا يَسْتَلْزِمُ التَّصْدِيقَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ تَعَالَى، **(فَيَدْخُلُ فِيهِ)** أَيْ فِي مَعْنَى قَوْلِنَا «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» بِطَرِيقِ الاسْتِلْزَامِ **(الإِيمَانُ)** أَيْ التَّصْدِيقُ **(بِسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ)** أَيْ بِبَاقِيهِمْ، وَإِنَّمَا فَسَّرْنَا سَائِرَ الأَنْبِيَاءِ بِبَاقِيهِمْ لِأَنَّ الإِيمَانَ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ هُوَ صَرِيحُ مَعْنَى قَوْلِنَا: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ»، وَأَمَّا الإِيمَانُ بِبَاقِي الأَنْبِيَاءِ **(وَ)** بِـ**(المَلَائِكَةِ وَالكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَاليَوْمِ الآخِرِ)** فَيَدْخُلُ فِي مَعْنَى قَوْلِنَا: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» بِطَرِيقِ اللُّزُومِ لَهُ.

أَمَّا الأَنْبِيَاءُ فَجَمْعُ نَبِيءٍ، وَقَدْ قَرَّرْنَا مَعْنَاهُ وَمَعْنَى الرَّسُول فِيمَا سَلَفَ، كَمَا قَرَّرْنَا أَنَّ الوَاجِبَ عَلَى المُكَلَّفِ الإِيمَانُ بِالأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ إِجْمَالًا، إِلَّا الخَمْسَةَ وَالعِشْرِينَ المُتَقَدِّمَةَ أَسْمَاؤُهُمْ فَالوَاجِبُ الإِيمَانُ بِهِمْ تَفْصِيلًا، وَحَقَّقْنَا مَعْنَى الإِيمَانِ بِهِمْ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا.

وَأَمَّا المَلَائِكَةُ فَهُمْ أَجْسَامٌ نُورَانِيَّةٌ، أَيْ مَخْلُوقَةٌ مِنَ النُّورِ، لَا يَأْكُلُونَ وَلَا

يَشْرَبُونَ وَلَا يَنَامُونَ وَلَا يَتَنَاكَحُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، لَا يَعْصُونَ اللَّـهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، قَادِرُونَ عَلَى التَّشَكُّلِ بِصُورَةٍ حَسَنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، لَا يُوصَفُونَ بِذُكُورَةٍ وَلَا أُنُوثَةٍ، فَمَنْ وَصَفَهُمْ بِالذُّكُورَةِ فَهْوَ فَاسِقٌ، وَمَنْ وَصَفَهُمْ بِالأُنُوثَةِ فَهْوَ كَافِرٌ، وَمَسْكَنُهُمْ السَّمَاوَاتُ غَالِباً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْكُنُ الأَرْضَ، وَهُمْ بَالِغُونَ فِي الكَثْرَةِ إِلَى حَدٍّ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

فَالوَاجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ الإِيمَانُ بِهِمْ إِجْمَالًا بِأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ لِلَّـهِ مَلَائِكَةً مَوْجُودِينَ، إِلَّا مَنْ وَرَدَ تَعْيِينُهُ بِاسْمِهِ الخَاصِّ أَوْ نَوْعِهِ الخَاصِّ، فَالوَاجِبُ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهُ وَالإِيمَانُ بِهِ تَفْصِيلًا، فَالأَوَّلُ عَشْرَةٌ: جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَإِسْرَافِيلُ، وَعِزْرَائِيلُ، وَرِضْوَانُ خَازِنُ الجَنَّةِ، وَمَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَمُنْكَرٌ، وَنَكِيرٌ، وَرَقِيبٌ، وَعَتِيدٌ، وَالثَّانِي الحَفَظَةُ لِلْعَبْدِ مِنْ وَقْتِ كَوْنِهِ نُطْفَةً فِي الرَّحِمِ إِلَى مَوْتِهِ، وَحَمَلَةُ العَرْشِ، وَأَعْوَانُ عِزْرَائِيلَ، وَخَزَنَةُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَجْمَعِينَ.

وَأَمَّا الكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ ـ أَيْ المُنَزَّلَةُ مِنَ السَّمَاءِ ـ فَالمُرَادُ بِهَا مَا يَشْمَلُ الصُّحُفَ، وَقَدْ اشْتَهَرَ أَنَّ عَدَدَ الصُّحُفِ وَالكُتُبِ مَائَة وَأَرْبَعَة: صُحُفُ شِيثْ سِتُّونَ، وَصُحُفُ إِبْرَاهِيمَ ثَلَاثُونَ، وَصُحُفُ مُوسَى عَشْرَةٌ قَبْلَ التَّوْرَاةِ، وَالكُتُبُ الأَرْبَعَةُ: التَّوْرَاةُ لِمُوسَى، وَالزَّبُورُ لِدَاوُدَ، وَالإِنْجِيلُ لِعِيسَى، وَالفُرْقَانُ ـ أَيْ القُرْآنُ ـ لِمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّـهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَقِيلَ عَدَدُ الصُّحُفِ وَالكُتُبِ مَائَة وَأَرْبَعَةَ عَشْرَ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالتَّحْقِيقُ الإِمْسَاكُ عَنْ حَصْرِهَا فِي عَدَدٍ لِلْاخْتِلَافِ فِيهِ، فَالوَاجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ اعْتِقَادُ أَنَّ اللَّـهَ أَنْزَلَ كُتُباً وَصُحُفاً

مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الإِجْمَالِ، إِلَّا الكُتُبُ الأَرْبَعَةُ فَالوَاجِبُ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا وَالإِيمَانُ بِهَا تَفْصِيلاً.

وَأَمَّا اليَوْمُ الآخِرُ ـ بِكَسْرِ الخَاءِ ـ فَهُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ، إِنَّمَا وُصِفَ بِالآخِرِ لِأَنَّهُ آخِرُ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَا لَيْلَ بَعْدَهُ، وَأَوَّلُهُ مِنَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ، وَقِيلَ مِنَ المَوْتِ، وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، وَقِيلَ: يَنْتَهِي بِدُخُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَدُخُولِ أَهْلِ النَّارِ النَّارَ، وَالمُرَادُ بِالنَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ نَفْخَةُ البَعْثِ، أَيْ إِحْيَاءِ الأَمْوَاتِ مِنَ القُبُورِ، وَذَلِكَ بَعْدَ المَوْتِ بِالنَّفْخَةِ الأُولَى وَهْيَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ أَيِ المَوْتِ، وَلَا يَمُوتُ بِهَا إِلَّا الكُفَّارُ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَيْهِمْ، وَأَمَّا المُؤْمِنُونَ فَيَمُوتُونَ بِرِيحٍ لَيِّنَةٍ تَهُبُّ عَلَيْهِمْ قَبْلَ النَّفْخَةِ الأُولَى، وَبَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ عاماً.

وَالمُرَادُ بِالإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَبِمَا وَرَدَ أَنَّهُ سَيَقَعُ فِيهِ مِنَ الأَهْوَالِ مَا يَطُولُ ذِكْرُهُ، وَإِنَّمَا كَانَ الإِيمَانُ بِسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكُتُبِ وَاليَوْمِ الآخِرِ دَاخِلًا فِي مَعْنَى قَوْلِنَا «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» **(لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءَ بِتَصْدِيقِ جَمِيعِ ذَلِكَ)** يَعْنِي جَاءَ بِطَلَبِ التَّصْدِيقِ بِجَمِيعِ مَا ذُكِرَ مِنَ الأُمُورِ الأَرْبَعَةِ الدَّاخِلَةِ فِي التَّصْدِيقِ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ اللَّازِمِ لِمَعْنَى قَوْلِنَا «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ».

(وَيُؤْخَذُ مِنْهُ) أَيْ مِنْ قَوْلِنَا: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» **(وُجُوبُ صِدْقِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاسْتِحَالَةُ الكَذِبِ عَلَيْهِمْ)** الَّتِي هِيَ ضِدُّ وُجُوبِ الصِّدْقِ، وَوَجْهُ أَخْذِ هَذَيْنِ مِنْهُ أَنَّ التَّصْدِيقَ بِثُبُوتِ رِسَالَتِهِ ﷺ الَّذِي هُوَ مَعْنَى قَوْلِنَا: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» يَسْتَلْزِمُ التَّصْدِيقَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ كَمَا قَدَّمْنَا

بَيَانُهُ، وَمِمَّا جَاءَ بِهِ وُجُوبُ صِدْقِ الرُّسُلِ وَاسْتِحَالَةُ الكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَكَذَا اسْتِحَالَةُ فِعْلِ المَنْهِيَّاتِ الآتِي.

(وَإِلَّا) أَيْ وَإِنْ لَمْ يَجِبْ الصِّدْقُ لَهُمْ وَيَسْتَحِلْ الكَذِبُ عَلَيْهِمْ **(لَمْ يَكُونُوا رُسُلًا أُمَنَاءَ لِمَوْلَانَا العَالِمِ بِالخَفِيَّاتِ جَلَّ وَعَزَّ)** وَالخَفِيَّاتُ هِيَ الأُمُورُ الغَوَامِضُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا، وَإِذَا كَانَ ﷻ عَالِماً بِالخَفِيَّاتِ كَانَ عَالِماً بِالجَلِيَّاتِ ـ أَيْ الأُمُورِ ـ الظَّاهِرَةِ مِنْ بَابِ أَوْلَى، فَهُوَ جَلَّ شَأْنُهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ صَدَّقَ سُبْحَانَهُ الرُّسُلَ بِإِظْهَارِ المُعْجِزَةِ عَلَى أَيْدِيهِمْ، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ وُجُوبُ صِدْقِهِمْ وَاسْتِحَالَةُ الكَذِبِ عَلَيْهِمْ

(وَ) يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِنَا: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» أَيْضاً **(اسْتِحَالَةُ فِعْلِ المَنْهِيَّاتِ كُلِّهَا)** الشَّامِلَةِ لِلْخِيَانَةِ وَالكِتْمَانِ، وَيَلْزَمُ مِنِ اسْتِحَالَةِ الخِيَانَةِ وُجُوبُ الأَمَانَةِ، وَمِنِ اسْتِحَالَةِ الكِتْمَانِ وُجُوبُ التَّبْلِيغِ، فَاسْتِحَالَةُ فِعْلِ المَنْهِيَّاتِ تَسْتَلْزِمُ وُجُوبَ الأَمَانَةِ وَوُجُوبَ التَّبْلِيغِ.

وَإِنَّمَا اسْتَحَالَ عَلَيْهِمْ فِعْلُ المَنْهِيَّاتِ كُلِّهَا **(لِأَنَّهُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُرْسِلُوا لِيُعَلِّمُوا)** بِتَشْدِيدِ اللَّامِ **(النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ)** كَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1]، **(وَأَفْعَالِهِمْ)** كَتَوَضُّئِهِ ﷺ وَغُسْلِهِ، **(وَسُكُوتِهِمْ)** كَسُكُوتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما لَمَّا قَالَ بِحَضْرَتِهِ: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ السَّمَكُ وَالجَرَادُ وَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في أول صحيحه، باب بدء الوحي.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال.



وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّـهَ تَعَالَى أَمَرَنَا بِالاقْتِدَاءِ بِهِمْ، **(فَيَلْزَمُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي جَمِيعِهَا)** أَيْ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَسُكُوتِهِمْ **(مُخَالَفَةٌ لِأَمْرِ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ)** وَإِلَّا كَانَ تَعَالَى آمِراً بِالاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي تِلْكَ الْمُخَالَفَةِ، وَهْوَ بَاطِلٌ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالطَّاعَةِ، فَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَسُكُوتِهِمْ عَلَى وَفْقِ أَمْرِ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ **(الَّذِي اخْتَارَهُمْ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَأَمِنَهُمْ عَلَى سِرِّ وَحْيِهِ)** يَعْنِي عَلَى وَحْيِهِ السِّرِّ، أَيْ الخَفِيِّ، وَالمُرَادُ بِهِ هُنَا الأَحْكَامُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ فَإِنَّهَا كَانَتْ خَفِيَّةً عَلَيْنَا وَلَمْ تَظْهَرْ لَنَا إِلَّا عَلَى أَيْدِيهِمْ.

(وَيُؤْخَذُ مِنْهُ) أَيْ مِنْ قَوْلِنَا «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» **(جَوَازُ الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةِ عَلَيْهِمْ)** لِكَوْنِ قَوْلِنَا «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» إِنَّمَا أُثْبِتَ فِيهِ لِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الرِّسَالَةَ، لَا الأُلُوهِيَّةَ، وَلَا أَنَّهُ مَلَكٌ، وَحِينَئِذٍ لَا يَمْتَنِعُ فِي حَقِّهِ إِلَّا مَا يَقْدَحُ فِي مَرْتَبَةِ الرِّسَالَةِ، وَإِخْوَانُهُ المُرْسَلُونَ مِثْلُهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الأَعْرَاضَ البَشَرِيَّةَ كَالمَرَضِ وَنَحْوِهِ لَا تَمْتَنِعُ عَلَى جَمِيعِهِمْ، بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمْ؛ **(إِذْ ذَاكَ)** أَيْ جَوَازُهَا عَلَيْهِمْ **(لَا يَقْدَحُ فِي رِسَالَتِهِمْ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ)** أَيْ مَنْزِلَتِهِمْ العَالِيَةِ السَّامِيَةِ **(عِنْدَ اللَّـهِ تَعَالَى، بَلْ ذَاكَ)** أَيْ جَوَازُ الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةِ عَلَيْهِمْ، يَعْنِي جَوَازَهَا الوُقُوعِيَّ، **(مِمَّا يَزِيدُ فِيهَا)** أَيْ فِي مَنْزِلَتِهِمْ الشَّامِخَةِ، وَالزِّيَادَةُ فِيهَا بِاعْتِبَارِ تَعْظِيمِ أَجْرِهِمْ مِنْ جِهَةِ مَا يُقَارِنُ تِلْكَ الأَعْرَاضَ مِنَ الصَّبْرِ وَغَيْرِهِ.

تَنْبِيهٌ

الإِيمَانُ بِسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ» إِلَى هُنَا سِتّ عَشْرَةَ عَقِيدَةً، مِنْهَا الثَّمَانِيَةُ المُتَعَلِّقَةُ بِالرُّسُلِ الَّتِي قَدَّمَهَا أَوَّلَ المَتْنِ، وَهْيَ وُجُوبُ صِدْقِ الرُّسُلِ، وَوُجُوبُ الأَمَانَةِ،

وَوُجُوبُ التَّبْلِيغِ لَهُمْ، وَجَوَازُ الأَعْرَاضِ البَشَرِيَّةِ عَلَيْهِمْ، وَأَضْدَادُهَا الأَرْبَعَةُ.

وَأَمَّا الثَّمَانِيَةُ البَاقِيَةُ وَهْيَ الإِيمَانُ بِسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَبِالمَلَائِكَةِ وَبِالكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَأَضْدَادُهَا الأَرْبَعَةُ فَلَمْ يَذْكُرْهَا الشَّيْخُ أَوَّلَ المَتْنِ، وَإِنَّمَا أَدْرَجَهَا فِي قَوْلِنَا «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» لِزِيَادَةِ الفَائِدَةِ، فَإِذَا ضُمَّتْ السِّتّ عَشْرَةَ عَقِيدَةً المَأْخُوذَةُ مِنْ قَوْلِنَا «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» إِلَى الخَمْسِينَ عَقِيدَةً المَأْخُوذَةِ مِنْ قَوْلِنَا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» كَانَتْ الجُمْلَةُ سِتّاً وَسِتِّينَ عَقِيدَةً.

وَقَدْ نَظَمَ تَضَمُّنَ كَلِمَتَيْ الإِسْلَامِ لِتِلْكَ العَقَائِدِ السِّتِّ وَالسِّتِّينَ شَيْخُنَا سَيِّدِي مُحَمَّدٌ المَكِّيُّ بْنُ عَزُّوز[1] رَحِمَهُ اللَّهُ وَطَيَّبَ ثَرَاهُ حَيْثُ قَالَ رَاجِزاً فِي هَذَا المَجَالِ:

«إِلَـــهَ» فِـــي قَوْلِـــكَ «لَا إِلَـــهَ» ... مِـــنْ كَلِمَـــةِ الإِسْـلَامِ خُـذْ مَعْنَاهَـا

مُسْـــتَغْنِياً عَـــنْ كُـــلِّ مَـــا سِـــوَاهُ ... مُفْتَقِـــراً إِلَيْـــهِ مَـــا عَـــدَاهُ

فَيَشْـــمَلُ اسْـــتِغْنَاؤُهُ الوُجُـــودَا ... وَذَاتَ سَـلْبٍ مَـا عَـدَا التَّوْحِيـدَا

وَالسَّـــمْعَ وَالبَصَـــرَ وَالكَلَامَـــا ... وَمَعْنَوِيَّـــةً لَهَـــا لِزَامَـــا

وَالجَـــائِزَاتِ فِعْـــلَ كُـــلِّ مُمْكِـــنِ ... وَنَفْـــيَ تَـــأْثِيرٍ بِقُـــوَّةٍ عُنِـــي

ثُـــمَّ انْتِفَـــاءَ غَـــرَضٍ وَعَـــدُّهَا ... أَرْبَـــعَ عَشْـــرَةَ وَزِيـــدَ ضِـــدُّهَا

وَتَحْـــتَ الافْتِقَـــارِ وَحْدَانِيَّـــهْ ... ثُـــمَّ المَعَـــانِي أَرْبَـــعٌ بَقِيَّـــهْ

(١) هو الشيخ: محمد المكي بن مصطفى بن محمد بن عزوز الحسني الإدريسي المالكي التونسي، كان قاضياً وفقيهاً باحثاً. ولد في مدينة نفطة بأرض الجريد في الجنوب التونسي بتاريخ ١٥ رمضان ١٢٧٠ هـ، وتعلم بتونس عن أبرز مشايخ الزيتونة كالشيخ عمر بن الشيخ وسالم بوحاجب، وولي الإفتاء بنفطة سنة ١٢٩٧ هـ ثم قضاءها. عاد إلى تونس سنة ١٣٠٩ هـ، وفي سنة ١٣١٣هـ رحل إلى الآستانة إسطنبول، فتولى بها تدريس الحديث في دار الفنون ومدرسة الواعظين، واستمر إلى أن توفي بها سنة ١٣٣٤ هـ.



وَأَرْبَــــعٌ مِـــــن لَّازِمِ المَعَـــانِي ... وَالجَـــائِزَاتُ هَاهُنَـــا اثْنَتَـــانِ
نَفْـــيٌ لِتَــأْثِيرٍ بِطَبْـــعٍ فَـــادْرِهِ ... ثُـــمَّ حُـــدُوثُ عَـــالَمٍ بِأَسْـــرِهِ
فَتِلْـــكَ إِحْـــدَى عَشْـــرَةَ وَضِـــدُّهَا ... مَـعْ سَـابِقٍ خَمْسِـينَ وَافَـى عَقْـدُهَا
وَفِـــي «مُحَمَّـــدٌ رَسُـــولُ اللهِ» ... إِيمَانُنَـــا بِكُتُـــبِ الإِلَـــهِ
وَبِالْـــمَلَائِكِ وَهُـــمْ عِبَـــادُهْ ... وَاليَـــوْمِ الآخِـــرِ الْـــوَفِي سَـــوَادُهْ
وَالأَنْبِيَـــا وَلَا تُفَـــرِّقْ بَيْـــنَهُمْ ... وَصِـــدْقِهِمْ أَمَانَـــةً تَبْلِـــيغِهِمْ
وَجَـــائِزٍ وَهْـــيَ الأَعْـــرَاضُ الَّتِـــي ... لَيْسَـتْ تُـؤَدِّي لِانْتِقَـاصِ الرُّتْبَـةِ
تِلْـــكَ ثَمَـــانٍ ثُـــمَّ ضِـــدُّهَا تُضَـــمْ ... لِمَـــا مَضَـــى سِـــتّاً وَسِـــتِّينَ وَتَـــمْ

(فَقَدْ بَانَ) أَيْ اتَّضَحَ **(لَكَ)** مِنَ التَّقْرِيرِ السَّابِقِ **(تَضَمُّنُ)** أَيْ اسْتِلْزَامُ مَعْنَى **(كَلِمَتَيْ)** أَيْ جُمْلَتَيْ **(الشَّهَادَةِ)** وَهُمَا جُمْلَةُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَجُمْلَةُ «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهُ» **(مَعَ قِلَّةِ حُرُوفِهَا)** إِذْ هِيَ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفاً بِاعْتِبَارِ الرَّسْمِ، وَأَفْرَدَ الضَّمِيرَ فِي حُرُوفِهَا مَعَ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى كَلِمَتَيْ الشَّهَادَةِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الكَلِمَتَيْنِ امْتِزَجَتَا حَتَّى صَارَتَا كَالكَلِمَةِ الوَاحِدَةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الإِيمَانَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِمَجْمُوعِهِمَا، وَلَا يُكْتَفَى بِإِحْدَاهُمَا عَنِ الأُخْرَى.

وَقَوْلُ المُصَنِّفِ: **(لِجَمِيعِ)** مُتَعَلِّقٌ بِـ«تَضَمُّنُ»، وَ«جَمِيعِ» مُضَافٌ إِلَى **(مَا يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهُ مِنْ عَقَائِدِ الإِيمَانِ)** الوَاجِبَةِ وَالجَائِزَةِ وَالمُسْتَحِيلَةِ **(فِي حَقِّهِ تَعَالَى وَفِي حَقِّ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ)**.

(وَلَعَلَّهَا لِاخْتِصَارِهَا) أَيْ قِلَّةِ حُرُوفِهَا **(مَعَ اشْتِمَالِهَا)** أَيْ اشْتِمَالِ مَعْنَاهَا **(عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ)** مِنَ العَقَائِدِ **(جَعَلَهَا الشَّرْعُ)** أَيْ الشَّارِعُ الحَكِيمُ **(تَرْجَمَةً)** أَيْ دَلِيلًا **(عَلَى مَا فِي القَلْبِ)** وَقَوْلُهُ: **(مِنَ الإِسْلَامِ)** بَيَانٌ لِـ«مَا».

وَمُقْتَضَى جَعْلِ المُؤَلِّفِ الإِسْلَامَ فِي القَلْبِ أَنَّهُ مَاشٍ عَلَى القَوْلِ بِأَنَّ الإِسْلَامَ وَالإِيمَانَ مُتَرَادِفَانِ، أَيْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَهْوَ تَصْدِيقُ النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مِمَّا عُلِمَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ.

وَالرَّاجِحُ القَوْلُ بِأَنَّهُمَا مُتَغَايِرَانِ مَعْنىً، فَالإِيمَانُ هُوَ التَّصْدِيقُ المَذْكُورُ، وَهْوَ أَمْرٌ بَاطِنِيٌّ قَائِمٌ بِالقَلْبِ، دَلِيلُهُ النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَالإِسْلَامُ هُوَ الإِذْعَانُ الظَّاهِرِيُّ، أَيْ الامْتِثَالُ لِلْعَمَلِ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا عُلِمَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالحَجِّ.

وَعَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «جَعَلَهَا الشَّرْعُ» قَوْلَهُ: **(وَلَمْ يَقْبَلْ)** أَيْ الشَّرْعُ **(مِنْ أَحَدٍ الإِيمَانَ إِلَّا بِهَا)** ظَاهِرُهُ أَنَّ النُّطْقَ بِالكَلِمَةِ المُشَرَّفَةِ شَرْطٌ لِصِحَّةِ الإِيمَانِ، وَهْوَ ضَعِيفٌ كَالقَوْلِ بِأَنَّ النُّطْقَ شَطْرٌ ـ أَيْ جُزْءٌ ـ مِنَ الإِيمَانِ.

وَالرَّاجِحُ أَنَّ الإِيمَانَ مُجَرَّدُ التَّصْدِيقِ القَلْبِيِّ(١)، وَأَمَّا النُّطْقُ بِالكَلِمَةِ المُشَرَّفَةِ فَهْوَ شَرَطٌ لِإِجْرَاءِ الأَحْكَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ، لَا لِصِحَّةِ الإِيمَانِ، وَعَلَيْهِ فَمَنْ

---

(١) لابد هنا من التنبيه على أمر مهم وهو أنه ليس مراد العلامة المارغني وأهل السنة عامة من التصديق الذي عرفوا به الإيمان الشرعي مجرّد أن يقع في القلب نسبة الصدق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان وتسليم وقبول لما وقع فيه، فذلك باطل لغة وشرعاً، وإلا لزم أن يكونوا قائلين بأنّ كل من صدّق بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك المعنى يكون مؤمناً الإيمان الشرعي الواجب، وظاهر أنه ليس كذلك؛ فإن كثيراً من الكفار كانوا عالمين بصدقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يشهد لذلك قوله الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، بل مراد العلامة المارغني وأهل السنة بالتصديق ـ الذي هو أصل الإيمان الشرعي المكلَّف به ـ الإذعانُ والقبول لما وقع في القلب، والانقياد له وسكون النفس إليه واطمئنانها به وترك العناد والتكبر. وقد نقلنا عنه ذلك في أول الكتاب عند تعريف الإيمان الشرعي من حاشيته على جوهرة التوحيد.



صَدَّقَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يَنْطِقْ بِلِسَانِهِ، لَا لِعِنَادٍ، بَلِ اتَّفَقَ لَهُ ذَلِكَ، فَهْوَ مُؤْمِنٌ نَاجٍ، لَكِنْ لَا تَجْرِي عَلَيْهِ الأَحْكَامُ الدُّنْيَوِيَّةُ كَدَفْنِهِ فِي مَقَابِرِ المُسْلِمِينَ والصَّلَاةِ عَلَيْهِ.

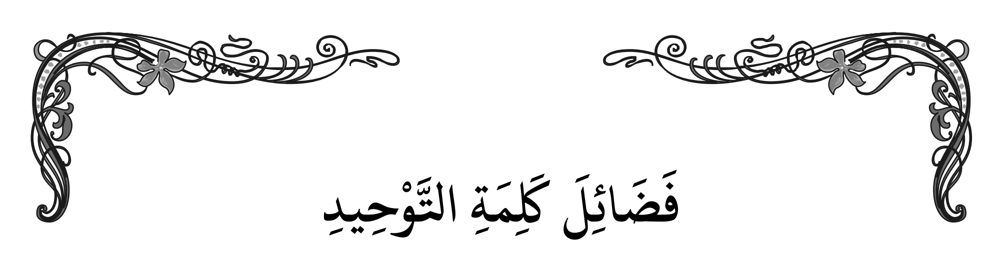
وَمَحَلُّ الخِلَافِ المَذْكُورِ فِي الكَافِرِ الأَصْلِيِّ، وَأَمَّا أَوْلَادُ المُؤْمِنِينَ فَلَيْسَ نُطْقُهُمْ بِالكَلِمَةِ المُشَرَّفَةِ شَرَطاً وَلَا شَطْراً اتِّفَاقاً، كَالَّذِي لَهُ عُذْرٌ فِي عَدَمِ النُّطْقِ بِهَا، فَيُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِالإِيمَانِ وَإِنْ لَمْ يَنْطِقُوا بِهَا أَصْلًا.

نَعَمْ، يَجِبُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ إِمَامِنَا «مَالِكٍ» رَحِمَهُ ٱللَّهُ النُّطْقُ بِهَا مَرَّةً وَاحِدَةً فِي العُمْرِ كَالحَمْدِ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَظَاهِرُهُ أَيْضاً أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي الدُّخُولِ فِي الإِيمَانِ الإِتْيَانُ بِالنَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ، وَتَقْدِيمُ الهَيْلَلَةِ عَلَى مَا بَعْدَهَا، وَهْوَ قَوْلٌ عِنْدَ المَالِكِيَّةِ، وَبِهِ قَالَ أَكْثَرُ الشَّافِعِيَّةِ، وَاشْتَرَطَ أَصْحَابُ هَذَا القَوْلِ أَيْضاً الإِتْيَانَ بِلَفْظِ «أَشْهَدُ».

وَالقَوْلُ المُعْتَمَدُ عِنْدَ المَالِكِيَّةِ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَبِهِ قَالَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ، وَهْوَ مَذْهَبُ الحَنَفِيَّةِ، وَعَلَيْهِ فَإِذَا قَالَ الكَافِرُ: «اللهُ وَاحِدٌ وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ»، أَوْ قَالَ: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ وَاللهُ وَاحِدٌ» كَفَاهُ ذَلِكَ.

وَإِنَّمَا أَتَى الشَّيْخُ بِـ«لَعَلَّ» الَّتِي لِلتَّرَجِّي وَلَمْ يَجْزِمْ بِمَا ذَكَرَهُ لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ الحِكْمَةُ فِي جَعْلِ الشَّرْعِ لَهَا تَرْجَمَةً عَلَى مَا فِي القَلْبِ مِنَ الإِيمَانِ وَفِي عَدَمِ قَبُولِ الإِيمَانِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِهَا غَيْرَ مَا ذَكَرَهُ، ثُمَّ فَرَّعَ عَلَى مَا قَدَّمَهُ فِي شَأْنِ الكَلِمَةِ المُشَرَّفَةِ مَا سَيَذْكُرُهُ فِي الخِتَامِ عَقِبَ هَذَا.



فَضَائِلَ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ

وَمَزَايَا الإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِهَا المُخْتَارِ، وَمَا فِيهَا مِنَ العَجَائِبِ وَالأَسْرَارِ
لِمَنْ أُرِيدَ بِهِ خَيْراً فِي هَذِهِ الدَّارِ وَفِي دَارِ القَرَارِ
حَتَّى يَكُونَ مِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ وَيَنَالَ مَنَازِلَ الأَبْرَارِ

قد خَتَمَ المُؤَلِّفُ مَسَائِلَ هَذِهِ العَقِيدَةِ بِالتَّحْرِيضِ عَلَى ذِكْرِ الهَيْلَلَةِ تِلَاوَةً وَتَلْقِيناً فِي جَمِيعِ الحَالَاتِ المَرْضِيَّةِ لِكَيْ يَنَالَ الذَّاكِرُ المَقَامَاتِ العَلِيَّةِ وَالمَوَاهِبَ اللَّدُنِّيَّةِ وَالأَسْرَارَ الرَّبَّانِيَّةَ حَيْثُ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ وَمَنَحَهُ رِضَاهُ: **(فَعَلَى العَاقِلِ)** يَعْنِي المُؤْمِن **(أَنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِهَا)** بَعْدَ أَنْ يَضْبِطَ لَفْظَهَا لِئَلَّا يَلْحَنَ فِيهِ، وَبَعْدَ أَنْ يَعْرِفَ مَعْنَاهَا وَلَوْ إِجْمَالاً.

وَأَقَلُّ الإِكْثَارِ مِنْهُ عِنْدَ الفُقَهَاءِ ثَلَاثمائَة فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَعِنْدَ الصُّوفِيَّةِ إِثْنَا عَشَرَ أَلْفاً، وَالإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِهَا مَنْدُوبٌ مُؤَكَّدٌ، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ اتِّفَاقاً، وَإِنَّمَا عَبَّرَ المُؤَلِّفُ بِـ«عَلَى» المُقْتَضِيَةِ لِلْوُجُوبِ لِلْحَثِّ عَلَى الإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِهَا لِمَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مِنَ الأَحَادِيثِ الكَثِيرَةِ.

فَمِنْهَا مَا رَوَاهُ إِمَامُنَا «مَالِكٌ» فِي المُوَطَّإِ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيئُونَ مِنْ قَبْلي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»[1].

(١) موطأ الإمام مالك، كتاب القرآن، باب ما جاء في الدعاء.

وَمِنْهَا مَا رُوِيَ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَمَدَّهَا هَدَمَتْ لَهُ أَرْبَعَةَ آلَاف ذَنْبٍ مِنَ الكَبَائِرِ»[١]، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الكَبَائِرِ؟ قَالَ: يُغْفَرُ لِأَهْلِهِ وَلِجِيرَانِهِ. وَمِنْهَا مَا ثَبَتَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا قَالَ العَبْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَتَتْ عَلَى صَحِيفَتِهِ فَلَا تَمُرُّ عَلَى خَطِيئَةٍ إِلَّا مَحَتْهَا حَتَّى تَجِدَ حَسَنَةً مِثْلَهَا فَتَجْلِسُ إِلَى جَنْبِهَا»[٢]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»[٣]، وَهَذَا الحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ يَسْتَطِيعُ النُّطْقَ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»[٤]، وَهَذَا الحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ النُّطْقَ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ دَخَلَ القَبْرَ بِـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» خَلَّصَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ»[٥]، وَوَرَدَ فِي بَعْضِ الآثَارِ أَنَّ مَنْ قَالَهَا سَبْعِينَ أَلْفَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ فِدَاءً مِنَ النَّارِ.

وَقَدْ جَرَى عَمَلُ النَّاسِ شَرْقاً وَغَرْباً بِالافْتِدَاءِ مِنَ النَّارِ بِالسَّبْعِينَ أَلْفاً اسْتِنَاداً لِلْأَثَرِ المَذْكُورِ، فَلْيَفْتَدِ بِهَا الإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ[٦] بِأُجْرَةٍ وَبِغَيْرِهَا فِي

(١) أَوْرَدَهُ التَّقِيُّ الهِنْدِيُّ فِي كَنْزِ العُمَّالِ بِرَقم ٢٠١.

(٢) قَالَ العِرَاقِيُّ فِي تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الإِحْيَاءِ لِلْغَزَالِيِّ: أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ. (ج٢/ص٨٠)

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب في التلقين.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة.

(٥) أخرجه النسائي في السنن الكبرى للنسائي، كتاب عمل اليوم والليلة، ما يقول عند الموت.

(٦) وكيفية الفداء بالكلمة المشرفة أن يذكرها الذاكر سبعين ألف مرّة ثم يقول: اللهمّ إنّ هذه=

يَوْمٍ أَوْ أَيَّامٍ، مَعَ حُسْنِ الظَّنِّ بِمَوْلَانَا الجَوَادِ الكَرِيمِ العَفُوِّ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ جَلَّ ذِكْرُهُ وَعَظُمَ أَمْرُهُ.

وَمَزَايَا كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ وَفَضَائِلُهَا كَادَتْ أَنْ لَا تُحْصَى، وَمِنْ ثَمَّ خُصَّتْ بِالتَّأْلِيفِ مِنْ عِدَّةٍ أَوْجُهٍ مِنْ حَيْثُ المَعَانِي وَالإِعْرَابُ وَالفَضَائِلُ وَالخَوَاصُّ مِنْ عُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ وَالحَقِيقَةِ وَعُلَمَاءِ التَّصَوُّفِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ.

تَنْبِيهٌ

الأَفْضَلُ لِلْكَافِرِ إِذَا أَرَادَ الدُّخُولَ فِي الإِسْلَامِ أَنْ لَا يَمُدَّ الأَلِفَ مِنْ «لَا» فِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَى المَدِّ الطَّبِيعِيِّ وَهْوَ مِقْدَارُ النُّطْقِ بِحَرَكَتَيْنِ لِيَنْتَقِلَ لِلْإِيمَانِ فَوْراً، بِخِلَافِ المُؤْمِنِ فَإِنَّ الأَفْضَلَ لَهُ المَدُّ، أَيْ الزِّيَادَةُ عَلَى المَدِّ الطَّبِيعِيِّ، إِلَّا أَنْ يَأْمُرَهُ شَيْخُهُ بِطَرِيقَةٍ فَيَتَّبِعُهَا.

وَقَوْلُ المُصَنِّفِ: **(مُسْتَحْضِراً)** حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ المُسْتَتِرِ فِي «يُكْثِرُ» العَائِدِ عَلَى العَاقِلِ، وَالمَعْنَى: فَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِهَا فِي حَالِ كَوْنِهِ مُسْتَحْضِراً أَيْ مُلَاحِظاً **(لِمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ عَقَائِدِ الإِيمَانِ)** المُتَقَدِّمَةِ وَلَوْ إِجْمَالًا بِأَنْ يُلَاحِظَ عِنْدَ ذِكْرِهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، أَوْ: لَا مُسْتَغْنِياً عَنْ كُلِّ

= السبعين ألفا نويتُ بها فداء نفسي من النّار. أمّا إذا أراد أن يفدي بها والديه مثلا فيذكر على كل واحد منهما العدد الخاص أي سبعين ألفا و يقول: اللهمّ إنّي وهبت ثواب هذه السبعين ألفا لوالدي أو والدتي فداءً من النّار. وهذا كسائر الدعاء لابد فيه من توفر الشروط كالإيمان والإخلاص وحسن الظن بالله تعالى، وانتفاء الموانع بأن لا يكون المقصود بالفداء ممن وجبت له النار كالذين ماتوا على الكفر، وبالله التوفيق.



مَا سِوَاهُ وَمُفْتَقِراً إِلَيْهِ كُلُّ مَا عَدَاهُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يُلَاحِظُ انْدِرَاجَ العَقَائِدِ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا ـ أَعْنِي اسْتِحْضَارَ مَعْنَاهَا عِنْدَ الذِّكْرِ وَلَوْ إِجْمَالًا ـ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الإِثَابَةُ لِأَنَّهُ شَرَطُ كَمَالٍ، بِخِلَافِ فَهْمِ مَعْنَاهَا قَبْلَ الذِّكْرِ، فَإِنَّ الإِثَابَةَ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ، فَإِذَا ذَكَرَهَا وَلَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهَا فَلا ثَوَابَ لَهُ أَصْلًا.

وَقَوْلُهُ: **(حَتَّى تَمْتَزِجَ مَعَ مَعْنَاهَا بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ)** غَايَةٌ فِي الإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِهَا، وَالمُرَادُ بِالامْتِزَاجِ هُنَا شِدَّةُ التَّمَكُّنِ، فَإِذَا أَكْثَرَ المُؤْمِنُ مِنْ ذِكْرِهَا وَدَاوَمَ عَلَيْهِ تَمَكَّنَتْ مِنْهُ ظَاهِراً وَبَاطِناً أَشَدَّ التَّمَكُّنِ بِحَيْثُ إِذَا تَرَكَ ذِكْرَهَا جَرَى عَلَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، وَلِهَذَا حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ لِسَانَهُ كَانَ يُهَلِّلُ حَالَةَ نَوْمِهِ، وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَهُمْ قُطِعَ رَأْسُهُ فَسُمِعَ تَهْلِيلُ دَمِهِ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ «الله» دَائِماً، فَتَوَاجَدَ فَأَصَابَ رَأْسَهُ حَجَرٌ فَجَشَّهُ[1] فَسَالَ دَمُهُ عَلَى الأَرْضِ فَكَتَبَ «الله الله».

فَإِذَا امْتَزَجَتْ الكَلِمَةُ المُشَرَّفَةُ بِلَحْمِ ذَاكِرِهَا وَدَمِهِ **(فَإِنَّهُ يَرَى لَهَا مِنَ الأَسْرَارِ وَالعَجَائِبِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ)** أَيْ تَحْتَ عَدَدٍ مَحْصُورٍ، وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنِ المُبَالَغَةِ فِي الكَثْرَةِ، وَأَرَادَ بِالأَسْرَارِ صَفَاءَ القَلْبِ وَالتَّجَلِّيَات الَّتِي تَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَأَرَادَ بِالعَجَائِبِ الأُمُورَ الظَّاهِرَةَ كَالخَوَارِقِ لِلْعَادَةِ.

(وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ) لَا بِغَيْرِهِ، وَالتَّوْفِيقُ شَرْعاً هُوَ خَلْقُ الطَّاعَةِ فِي العَبْدِ، وَإِنَّمَا قَصَرَهُ عَلَى كَوْنِهِ بِاللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ **(لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، نَسْأَلُهُ**

(١) جَشَّ: دقَّ وكسر.

سُبْحَانه وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَأَحِبَّتَنَا عِنْدَ المَوْتِ نَاطِقِينَ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ) لِتَكُونَ آخِرَ كَلَامِنَا مِنَ الدُّنْيَا، فَقَدْ رُوِيَ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»[1] يَعْنِي مَعَ السَّابِقِينَ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضاً: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ»[2]، **(عَالِمِينَ بِهَا)** أَيْ بِمَعْنَاهَا وَهْوَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ العَقَائِدِ المُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ.

(وصلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا محمَّد كلَّمَا ذَكَرَهُ) أَيْ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا **(الذَّاكِرون وغَفَل عَنْ ذِكْرِهِ)** أَيْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى **(الغَافِلُونَ)** وَيَصِحُّ عَوْدُ كُلٍّ مِنَ الضَّمِيرَيْنِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ المُخْتَارِ النَّبِيءِ الأُمِّيِّ الخَاتَمِ ﷺ، وَاخْتُلِفَ فِي مَنْ صَلَّى بِنَحْوِ هَذِهِ الصِّيغَةِ هَلْ يَحْصُلُ لَهُ ثَوَابٌ بِعَدَدِ مَا ذَكَرَهُ، أَوْ يَحْصُلُ لَهُ ثَوَابٌ وَاحِدٌ لَكِنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ ثَوَابِ الصَّلَاةِ المُجَرَّدَةِ عَنْ ذَلِكَ؟ فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى الأَوَّلِ، وَذَهَبَ المُحَقِّقُونَ إِلَى الثَّانِي.

(وَرَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ) المُرَادُ بِالرِّضَا فِي حَقِّهِ تَعَالَى الإِنْعَامُ أَوْ إِرَادَتُهُ، فَهْوَ صِفَةُ فِعْلٍ عَلَى الأَوَّلِ، وَصِفَةُ ذَاتٍ عَلَى الثَّانِي.

(وَ) عَنِ **(التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)** أَيْ يَوْمِ الجَزَاءِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ، وَالمُرَادُ بِالإِحْسَانِ هُنَا الإِيمَانُ، يَعْنِي وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ فِي الإِيمَانِ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب في التلقين.

(٢) لفظه في صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، صدقا من قلبه، إلا حرمه الله على النار».

طَائِفَةً بَعْدَ طَائِفَةٍ إِلَى قُرْبِ يَوْمِ الدِّينِ، فَتَدْخُلُ عُصَاةُ المُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ أَحْوَجُ إِلَى الدُّعَاءِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَإِنَّمَا قَدَّرْنَا قَبْلَ يَوْمِ الدِّينِ مُضَافاً وَهْوَ «قُرْبِ» لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ مَبْدَؤُهُ مِنَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ، وَأَنَّ المُؤْمِنِينَ يَمُوتُونَ بِرِيحٍ لَيِّنَةٍ تَهُبُّ عَلَيْهِمْ قَبْلَ النَّفْخَةِ الأُولَى الَّتِي لَا يَمُوتُ بِهَا إِلَّا الكَفَارُ، فَصَارَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» إِلَى الزَّمَنِ الَّذِي تَأْتِي فِيهِ الرِّيحُ اللَّيِّنَةُ القَرِيبِ مِنْ يَوْمِ الدِّينِ، **(وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ)** بَاطِناً وَظَاهِراً أَوَّلًا وَآخِراً.

قَالَ جَامِعُ هَذَا الشَّرْحِ وَمُؤَلِّفُهُ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَفَا عَنْهُ بِمَنِّهِ: هَذَا آخِرُ مَا يَسَّرَهُ اللهُ ذُو العَطَايَا الكُبْرَى مِنْ شَرْحِ العَقِيدَةِ السَّنُوسِيَّةِ المُسَمَّاةِ بِأُمِّ البَرَاهِينِ وَالصُّغْرَى، جَعَلَهُ اللهُ مِنْ خَالِصِ الأَعْمَالِ، وَنَفَعَ بِهِ فِي الحَالِ وَالمَآلِ، وَأَسْأَلُ مِنْ مَكَارِمِ أَخْلَاقِ مَنِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ بِعَيْنِ الرِّضَا وَالصَّوَابِ إِلَيْهِ، فَإِنِّي مُعْتَرِفٌ بِقِصَرِ البَاعِ وَقِلَّةِ البِضَاعَةِ وَالاطِّلَاعِ.

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّنِي بَشَرْ ... أَسْهُو وَأُخْطِئُ مَا لَم يَحْمِنِي قَدَرْ

وَقَدْ طَالَعْتُ عَلَيْهِ عِدَّةً مِنْ كُتُبِ الفَنِّ، مِنْهَا شَرْحُ المُصَنِّفِ وَاخْتَرْتُهُ مِنْهَا، وَوَافَقَ الفَرَاغُ مِنْ تَبْيِيضِهِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ ثَانِي عَشر رَبِيع الأَنْور الَّذِي هُوَ يَوْمُ مَوْلِدِهِ الشَّرِيفِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ، عَامَ ١٣٤٢هـ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثمائَة وَأَلْف، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيئِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

** ** **




الفهرس الإجمالي

** ** **